نـواهى الإسلام للمرأة المسلمة



إمام الدعاة فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى

المكتبة التوفيقية

نواهي الإسلام للمرأة المسلمة

لفضيلة الإمام

محمد متولي الشعراوي

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

التجهيزات الفنية
دار التوفيقية للطباعة

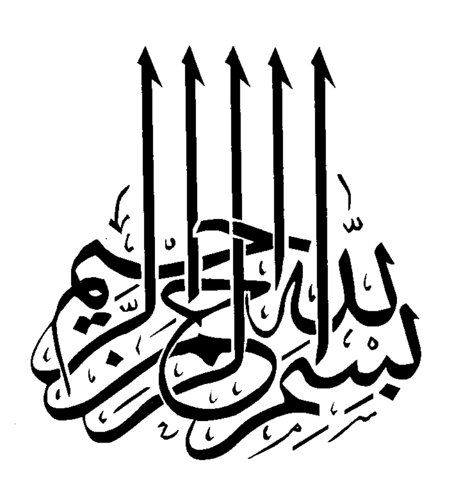
المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠(٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق علام


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا الكتاب: (نواهي الإسلام للمرأة المسلمة) لفضيلة الإمام/ **محمد متولي الشعراوي** - رحمه الله تعالى - يضمّ بين دفتيه جملة من نواهي الإسلام التي يجب اجتنابها والابتعاد عن الوسائل المفضية إليها، وذلك لما يترتب على فعلها من أخطار وأضرار وأوزار تفسد دنيا الإنسان، وتوبق أخراه.

هذا، وقد عرف العلماء العبادة بأنها: فعل الأوامر، واجتناب النواهي (افعل ولا تفعل). وهذا التعريف مستقى من الإسلام.

١- قال الحق سبحانه في سورة (النحل):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

للحق تبارك وتعالى في هذه الآية ثلاثة أوامر: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القُرْبى. وثلاثة نَواهٍ: عن الفحشاء والمنكر والبغي.

ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود: أجمعُ آيات القرآن للخير هذه الآية[1] لأنها جمعت كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم. ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلِم، وكان يعرض عليه الإسلام دائمًا، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشيَمًا تحسن في الإسلام.

وكأنه ﷺ ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون في غير مسلم، لذلك كان حريصًا على إسلامه وكثيرًا ما يعرضه عليه، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث في الأمر، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ في مجلس، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه، فقال له ابن مظعون: ما حدث يا رسول الله؟ فقال: إن جبريل عليه السلام قد نزل عليَّ الساعة بقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل].

قال ابن مظعون ﷺ: فاستقر حبُّ الإيمان في قلبي بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[2]. ثم ذهب فأخبر أبا طالب، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون في هذه الآية قال: يا معشر قريش آمِنُوا بالذي جاء به محمد، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[3].

---

(١) أورده الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في «تفسيره» (١٠/١٥٠)، بلفظ: «**هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب**».ا.هـ.

(٢) أورده الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - في «الدر المنثور»، وعزاه لأحمد والبخاري في «الأدب» وغيرهما.

(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (١٠/١٥٠)، بلفظ: «**اتبعوا ابن أخي، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق**».ا.هـ.

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب، وكان معه أبو بكر وعلي، قال علي: فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان بن ثعلبة فقال: إلى أي شيء تدعونا يا أخا قريش؟

فقال ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

فقال مقرون: إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال، أفِكتْ[1] قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك.

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبي جهل، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة، وقال له: إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا، فأفكر[2] الوليد بن المغيرة - أي: فكَّر فيما سمع - وقال: والله إن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه، وما هو بقول بشر[3].

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن، فقالوا: حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر.

وهكذا دخلت هذه الآية قلوب هؤلاء القوم، واستقرت في أفئدتهم؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ، دعَت لكل خير، ونَهَت عن كل شر.

---

(١) **الإفك**: الكذب والإثم.

(٢) فكر في الشيء وأفكر فيه وتفكر بمعنى واحد.

(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (١٠/١٥٠).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾

ما العدل؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم المَيْل، لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين، لذلك سُمِّي الحاكم العادل مُنْصِفًا، لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة، هذا هو الإنصاف.

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان، والميزان تختلف دِقّته حَسْب الموزون، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً، وتتناهى دقة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية، حيث أقلّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ، وقد شاهدنا تطورًا كبيرًا في الموازين، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره.

والعدل دائر في كل أقضية الحياة من القمة في شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق، فالعدل مطلوب في أمور التكليف كلها، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح في حركة الحياة.

فكيف يكون العدل في الأمور العقدية؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود إله في الكون، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقًا، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة، هكذا تناقضت الأقوال وتباعدت الآراء، فجاء العدل في الإسلام، فالإله واحد لا شريك له، مُنزه عَمّا يُشبه الحوادث، كما وقف موقفَ العدل في صفاته سبحانه وتعالى.

فلله سَمْع، ولكن ليس كأسماع المحدثات، لا ننفي عنه سبحانه مثل هذه

الصفات فنكون من المعطِّلة، ولا نُشبّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة، بل نقول ليس كمثله شيء، ونقف موقف العَدْل والوسطية.

كذلك من الأمور العقدية التي تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار، حيث اختار موقفًا وسطًا بين مَنْ يقول: إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه في أعمال العبد، ولذلك رتَّب عليها ثوابًا وعقابًا. ومن يقول: لا، بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها.

فيأتي الإسلام بالعدالة والوسطية في هذه القضية فيقول: بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التي خلقها الله فيه للاختيار.

وفي التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام في القصاص مثلاً: في شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بني إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام:

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:١٥٣].

فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به، فكان المناسب لهم القِصَاص ولابُدّ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع: مَنْ قَتَل يُقتَل، والقتل أنْفى للقتل.

وقد تعدى بنو إسرائيل في طلبهم رؤية الله، فكونك ترى الإله تناقض في الألوهية؛ لأنك حين تراه عينك فقد حدَّدْتَه في حيز.

إذن: كونه لا يرى عين الكمال فيه سبحانه وتعالى، وكيف نطمع في رؤيته جل وعلا، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته، فالروح التي بين جنبي كل منا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم، وبها نتحرك ونزاول

أعمالنا، وبها نفكر، وبها نعيش، أين هي؟!

فإذا ما فارقت الروح الجسد وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس في مواراتها التراب. هل رأيت هذه الروح؟ هل سمعتها؟ هل أدركتها بأي حاسة من حواسك؟!

فإذا كانت الروح وهي مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها، فكيف بمن خلق هذه الروح؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار.

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً، وهو معنى من المعاني التي يدَّعيها كل الناس، ويطلبون العمل بها، هذا الحل ما شكله؟ ما لونه؟ طويل أم قصير؟! فإذا كنا لا نستطيع أن نتصور الحق وهو مخلوق لله سبحانه، فكيف نتصور الله ونطمع في رؤيته؟!

ومن إسراف بني إسرائيل في المادية أن جعلوا لله تعالى في التلمود جماعة من النقباء، وجعلوه سبحانه قاعدًا على صخرة يدلى رجليه في قصعة من المرمر، ثم أتى حوت . إلـــخ . سبحان الله، ألهذا الحد وصلت بهم المادية؟

ومن هنا كان الكون في حاجة إلى طاقة روحية، تكون هي أيضًا مُسرفة في الروحانية ليحدث نوع من التوازن في الكون، فجاءت شريعة عيسى عليه السلام بعد مادية مُفْرطة وإسراف في الموسَوية، فكيف يكون حُكْم القصاص فيها وهي تهدف إلى أن تسموَ بروحانيات الناس؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدّئ الموقف إذا حدث قتل، فيكفي أن قُتِل واحد ولنستبقي الآخر ولا نثير ضجّة، ونهيج الأحقاد والترة بين الناس، فدَعَتْ هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل.

ثم جاء الإسلام ووقف موقف ا ا والوسطية في هذا الحكم، فأقرّ

القصاص ودعا إلى العفو، فأعطى وليَّ المقتول حَقّ القصاص، ودعاه في نفس الوقت إلى العفو في قوله تعالى:

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة:١٧٨].

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إخوة لِيُرقّق القلوب ويُزيل الضغائن.

وللقصاص في الإسلام حكَم عالية، فليس الهدف منه أن يُضخّم هذه الجريمة، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٧٩].

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين.

وحينما يُعطي ربُّنا تبارك وتعالى حقَّ القصاص لولِيّ المقتول ويُمكنّه منه تبردُ ناره، وتهدأ ثورته، فيفكر في العفو وهو قادر على الانتقام، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الغِلَّ من الصدور ويُطفِئ نار الثأر بين الناس.

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عملية الثأر يأتي القاتل حاملاً كفنه على يده إلى وليّ المقتول، ويضع نفسه بين يديه مُعترفًا بجريمته: ها أنا بين يديْك اقتلني وهذا كفني.

ما حدث ذلك أبدًا إلا وعفا صاحب الحق ووليّ الدم، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام، دين الوسطية والاعتدال.

هذا العفو من وليّ الدم أداةُ بِنَاء، ووسيلة محبة، فحين نعطيه حَقّ القصاص، ثم هو يعفو، فقد أصبحتْ حياة القاتل هبة من وليّ الدم، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل، ويقولون: هذا حَقَن دم ابننا.

موقف آخر لعدالة الإسلام ووسطيته نراها في حكم الحيض مثلاً. ففي

شريعة موسى عليه السلام يُخرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد.

وفي شريعة عيسى عليه السلام لا مانع من وجودها في البيت، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها.

فجاء الإسلام بالعدل في هذه القضية فقال: تبقى المرأة الحائض في بيتها لا تخرج منه، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض. فقال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية في حياتنا، والتي هي عصب الحياة، والتي بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملبس وغيره، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج، وكل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج، وإلى حركة استهلاك، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة، ولو توقف أحدهما لحدث في المجتمع بطالة وفساد.

وبناء عليه وزع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد، فما أعرفه أنا أخدم به الكل، وما يعرفه الكل يخدمني به، وهكذا تستمر حركة الحياة.

والكون الذي تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتراودك فيه آمال، فإن شاركت في حركة الحياة واكتسبت المال الذي هو عصب الحياة فعليك أن توازن بين متطلباتك العاجلة وآمالك في المستقبل.

فلو أنفقت جميع ما اكتسبت في نفقاتك الحاضرة فقد ضيعت على نفسك تحقيق الآمال في المستقبل، فلن تجد ما تبني به بيتًا مثلاً، أو تشتري به سيارة، أو

ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة. وهذا ما نسميه الإسراف.

وفي المقابل، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب، ولا تنفق إلا ما يمسك الرمق؛ لأنك في هذه الحالة لن تساهم في عملية الاستهلاك، فتكون سببًا في بطالة المجتمع وفساد حاله.

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجًا دقيقًا في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

أي: لا تُمسك بدك بخلاً وتقتيرًا، فتكون ملومًا من أهلك وأولادك، ومن الدنيا من حولك، فيكرهك الجميع، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بسطًا يصل إلى حد الإسراف والتبذير، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسر حينما ترى المقتصد قد حقق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة، وترقّى هو في حياته وأنت معدم لا تملك شيئًا، فكان عليك أن تدخر جزءًا من كسبك يمكنك أن ترتقي به حينما تريد.

ولذلك قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

إذن: فالعَدْل أمر دائر في كل حركات التكليف، سواء كان تكليفًا عَقَديًّا، أو تكليفًا بواسطة الأعمال في حركة الحياة، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال، ومن هنا قالوا: خَيْر الأمور الوسط.

وقوله: ﴿ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾.

ما الإحسان؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك، وأن تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل:١٢٦].

فالإحسان أن تتركَ هذا الحق، وأن تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله، عملاً بقوله تعالى:

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤].

والناس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلقي.

وأول هذه المراتب كظم الغيظ، من كَظْم القرْبة المملوءة، فالإنسان يكظم غَيْظه في نفسه، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردّ بالمثل، ولكنه يظل يعاني ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره في قلبه.

لذلك يحسُن الترقي إلى المرتبة الأعلى، وهي مرتبة العفو، فيأتي الإنسان ويقول: لماذا أدَعُ نفسي فريسة لهذا الغيظ؟ لماذا أشغل به نفسي، وأُقَاسي ألمه ومرارته؟ فيميل إلى أن يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه، فيعفو عمَّنْ أساء إليه، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه.

فإن ارتقى الإنسان في العفو، سعى إلى المرتبة الثالثة، وهي مرتبة أن تُحسن إلى من أساء إليك، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل، وارتقيتَ

إلى درجة العارفين بالله، فالذي اعتدى اعتدى بقدرته، وانتقم بما يناسبه، والذي ترقّى في درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى، وأين قدرتُك من قدرة ربك سبحانه وتعالى؟ إذن: فالإحسان أجمل بالمؤمن، وأفضل من الانتقام. لكن كيف يصل الأمر إلى أن تعفو عمن أساء، بل إلى أن تحسن إليه؟

نقول: هب أن لك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه، فماذا يكون موقفك منهما؟ وإلى أيهما يميل قلبك؟ لا شك أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه، وقد يتعدى الأمر إلى أن ترضيه بهدية وتريه من حنانك وألطافك ما يذهب عنه ما يعاني، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهي التي عطفت قلبك إليه، وعادت عليه بالهدايا والألطاف. إذن: من الطبيعي أن يحسن المعتدى عليه إلى المعتدي، وأن يشكر له أن تسبب له في هذه النعم؛ ولذلك يقول الحسن البصري - رحمه الله -: «أفلا أُحسن لمن جعل الله في جانبي؟».

فالإحسان: أن تصنع فوق ما فرض الله عليك، بشرط أن يكون من جنس ما فرض الله عليك، ومن جنس ما تعبدنا الله به. فمثلاً تعبدنا الله بخمس صلوات في اليوم والليلة فلا مانع من الزيادة عليها من جنسها، وكذلك الأمر في الزكاة والصيام والحج. والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا.

وقد يكون الإحسان في الكيفية دون زيادة في العمل، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات، ولكن أحسن ما أنا بصدده من الفرض، وأتقن ما أنا فيه من العمل، وأُخلص في ذلك عملاً لحديث جبريل عليه السلام حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان، فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

فعليك أن تستحضر في عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله، فإن لم

---

(١) جزء من حديث طويل: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨)، من حديث عمر رضي الله عنه.

تصل إلى هذه المرتبة فلا أقل من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك. وهذه كافية لأن تعطي العبادة حقها ولا تسرق منها. فاللص لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين، أيليق بنا أن نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا؟!

وقال بعضهم في معنى العدل والإحسان:

العدل: أن تستوي السريرة مع العلانية.

والإحسان: أن تعلو السريرة وتكون أفضل من العلانية.

والمنكر: إنْ علَتْ العلانية على السريرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل:٩٠].

إيتاء: أي إعطاء.

قالوا: لأن العالم حلقات مقترنة، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتا فلو أعطاهم من خيره، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه لَعَمّ الخير كل مجتمع، وما وجدنا مُعْوزًا محتاجًا: ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله، كل قادر يُعطي من حوله.

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل، فلا نرى في مجتمعنا فقيرًا، وقد حثَّتْ الآية على القريب، وحنَّنَتْ عليه القلوب، لأن البعيد عنك قريب لغيرك، وداخل في دائرة عطاء أخرى.

وقد يكون الفقير قريبًا لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس.

وقالوا: المراد هنا قرابة النبي ﷺ ؛ لأن قرابة النبي ﷺ حَرَّمت عليهم الزكاة التي أحلت لغيرهم من الفقراء، وأصبح لهم ميزة يمتازون بها عن قرابة

الرسول، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ في حاجة إلى الزكاة، وإن كان أقرباؤكم أصحاب رحم، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله ﷺ أولى من أرحامكم، كما قال تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية، وإنَّ مجتمعًا يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلّى بها أفراده، مجتمع ترتقي فيه الاستعدادات الخُلقية، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو، بل إلى الإحسان، مجتمع تعمُّ فيه النعمة، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان.

إن مجتمعًا فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمِنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وهذه مجموعة من النواهي تمثل مع الأوامر السابقة منهجًا قرآنيا قويمًا يضمن سلامة المجتمع، وأُولى هذه النواهي النهي عن الفحشاء أو الفاحشة، والمتتبع لآيات القرآن الكريم، سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذي سماه القرآن فاحشة، فهي إذن الزنا، أو كل شيء يخدش حُكْمًا من أحكام الله تعالى، ولكن لماذا الزنا بالذات؟

نقول: لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية، أما الزنا فيتعلّق بالنفس الإنسانية ذاتها، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنّسُ الأعراض، وبه يشكُّ الرجل في أهله وأولاده، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومن أقوال العلماء في الفاحشة: «أنها الذنب العظيم الذي يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس، فلا يستطيع أن يجاهر به، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصح، ولا ينبغي لأحد أن يطلع عليه».

(والمنكر) هو الذنب الذي يتجرأ عليه صاحبه، ويُجاهر به، ويستنكره الناس.

إذن: لدينا هنا مرتبتان من الذنب:

الأولى: أن صاحبه يتحرّج أن يعرفه المجتمع فيستره في نفسه، وهذا هو الفحشاء.

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع، وهذا هو المنكر، (والبغْي) هو الظلم في أيّ لونٍ من ألوانه، وهو داخل في أشياء كثيرة أعظمها ما يقع في العقيدة من الشرك بالله، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

والظلم هنا أن تسلبَ الحق- تبارك وتعالى- صفة من صفاته، وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك، ومنه ظلم الرسول ﷺ حيث لم يُجرَّب عليه في يوم من الأيام أن قال خطبة أو ألقى قصيدة، كما لم يُجرّب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة، ومع هذا كله قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون، وأيُّ ظلم أعظم من هذا؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسان لنفسه حينما يُحقِّق لها شهوة عاجلة ومُتعة زائفة، تُورثه ندمًا وحَسْرة وألمًا آجلاً، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلمًا كبيرًا وجَرَّ عليها ما لا تطيق، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله.

إذن: الآية انتظمتْ مجموعة من الأوامر، والنواهي التي تضمن سلامة المجتمع بما جمعتْ من مكارم الأخلاق، والأخلاق أعمُّ من أن تكون في الاعتقادات، وأعمُّ من أن تكون في المعجزة إيمانًا بها، وأعمُّ من أن تكون في التكاليف، وأعمُّ من أن تكون في أمر لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم.

وقوله: ﴿يَعِظُكُم﴾ [النحل:٩٠].

الوعظ: تذكير بالحكم، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكي نعرفه، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفل عنه، فيكون الوعظ والتذكير به، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل.

وعادة لا تكون العظَة إلا فيما له قيمة، وما دام الشيء له قيمة فلا تصطفي له إلا من تحب، كذلك الحق- تبارك وتعالى- يحب خَلْقه وصَنْعته، لذلك يَعظهم ويُذكِّرهم باستمرار لكي يكونوا دائمًا على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب في الآخرة، كما تمتعوا بنعمة الأسباب في الدنيا.ا.هـ.

٢- وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»[١].

قال الحافظ بن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث، ما مختصره:

«أشار رسول الله ﷺ في هذا الحديث إلى أن في الاشتغال بامتثال أمره واجتناب نهيه شغلاً عن المسائل فقال: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم**».

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧/٤١٢).

فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما ينهى عنه فيكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره، وهكذا كان حال أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة.

فأما إن كانت همة السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع، فإن هذا مما يدخل في النهي ويثبط عن الجد في متابعة الأمر.

وقد سأل رَجُلٌ ابن عمر عن استلام الحجر. فقال له: رأيت النبي ﷺ يستلمه ويقبله، فقال له الرَّجُل: أرأيت إن غلبت عنه؟ أرأيت إن زوحمت؟ فقال له ابن عمر: اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله. خرجه الترمذي[1].

ومراد ابن عمر أن لا يكون لك هم إلا في الاقتداء بالنبي ﷺ، ولا حاجة إلا فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه فإنه يفتر العزم على التصميم عن المتابعة، فإن التفقه في الدين والسؤال عن العلم إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال.

وقد روى عن علي ﷺ أنه ذكر فتنا تكون في آخر الزمان، فقال له عمر: متى ذلك يا علي؟ قال: إذا تفقه لغير الدين وتعلم لغير العمل والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: كيف بكم إذا لبستم الدنيا فتنة يربو فيها الصغير

---

(١) إسناده **صحيح**: أخرجه الترمذي (٨٦١).

ويهرم فيها الكبير وتتخذ سنة، فإن غيرت يومًا قيل هذا منكر. قالوا: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلت أمناؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت فقهاؤكم وكثرت قراؤكم وتفقه لغير الدين والتمست الدنيا بعمل الآخرة. خرجها عبد الرازق في كتابه.

ولهذا المعنى كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ولا يجيبون عن ذلك.

قال عمرو بن مرة: خرج عمر على الناس فقال: أُحرِّج عليكم أن تسألونا عما لم يكن فإن لنا فيما كان شغلاً.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر ﷺ لعن السائل عما لم يكن.

وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شيء يقول: كان هذا؟ فإن قالوا: لا. قال: دعوه حتى يكون.

وقال مسروق: سألت أبي بن كعب عن شيء فقال: أكان بعد؟ فقلت: لا. فقال: أجمعنا. يعني: أرحنا حتى يكون، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا.

وقال الشعبي: سئل عمار عن مسألة فقال: هل كان هذا بعد؟ قالوا: لا. قال: فدعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمناه لكم.

وقد انقسم الناس في هذا الباب قسمان: فمن أتباع أهل الحديث من سد باب المسائل حتى قل فهمه وعلمه لحدود ما أنزل الله على رسوله وصار حامل فقه غير فقيه. ومن فقهاء أهل الرأي من توسع في توليد المسائل قبل وقوعها ما يقع في العادة منها ومالا يقع، واشتغلوا بتكلف الجواب عن ذلك وكثرة الخصومات فيه والجدال عليه حتى يتولد من ذلك افتراق القلوب ويستقر فيها

بسببه الأهواء والشحناء والعداوة والبغضاء، ويقترن ذلك كثيرًا بنية المغالبة وطلب العلوّ والمباهاة وصرف وجوه الناس وهذا مما ذمه العلماء الربانيون ودلّت السنة على قبحه وتحريمه.

وأما فقهاء أهل الحديث العاملون به فإن معظم همهم البحث عن معاني كتاب الله وما يفسره من السنن الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعن سنة رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها وسقيمها، ثم التفقه فيها وفهمها والوقوف على معانيها، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام وأصول السنة والزهد والدقائق وغير ذلك، وهذا هو طريق الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين، وفي معرفة هذا شغل شاغل عن التشاغل بما أحدث من الرأي ما لا ينتفع به ولا يقع وإنما يورث التجادل فيه كثرة الخصومات والجدال وكثرة القيل والقال.

وكان الإمام أحمد كثيرًا إذا سئل عن شيء من المسائل المحدثة المتوالدات التي لا تقع يقول: دعونا من هذه المسائل المحدثة.

وما أحسن ما قاله يونس بن سليمان السقطي: نظرت في الأمر فإذا هو الحديث والرأي، فوجدت في الحديث ذكر الرب ﷻ وربوبيته وإجلاله وعظمته وذكر العرش وصفة الجنة والنار وذكر النبيين والمرسلين والحلال والحرام والحث على صلة الأرحام وجماع الخير فيه، ونظرت في الرأي فإذا فيه المكر والغدر والحيل وقطيعة الأرحام وجماع الشر فيه.

وقال أحمد بن شبويه: من أراد علم القبر فعليه بالآثار، ومن أراد علم الخبر فعليه بالرأي ومن سلك طريقه لطلب العلم على ما ذكرناه تمكن من فهم جواب الحوادث الواقعة غالبًا؛ لأن أصولها توجد في تلك الأصول المشار إليها،

ولابد أن يكون سلوك هذا الطريق خلاف أئمة أهل الدين المجمع على هدايتهم ودرايتهم كالشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد، ومن سلك مسلكهم، فإن من ادعى سلوك هذا الطريق على غير طريقهم وقع في مفاوز ومهالك وأخذ بما لا يجوز الأخذ به وترك ما يجب العمل به، وملاك الأمر أن يقصد بذلك وجه الله ﷻ والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل على رسوله وسلوك طريقه والعمل بذلك ودعاء الخلق إليه ومن كان كذلك وفقه الله وسدده وألهمه رشده وعلمه ما لم يكن يعلم وكان من العلماء الممدوحين في الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. ومن الراسخين في العلم.

قال نافع بن زيد: يقال الراسخون في العلم المتواضعون لله والمتذللون لله في مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم.

ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «**أتاكم أهل اليمين هم أبرّ قلوبًا وأرق أفئدة، الإيمان يماني والفقه يماني والحكمة يمانية**»[(١)].

وهذا إشارة منه إلى أبي موسى الأشعري ومن كان على طريقه من علماء أهل اليمن، ثم إلى مثل أبي موسى الخولاني وأويس القرني وطاوس ووهب بن منبه وغيرهم من علماء أهل اليمن، وكل هؤلاء من العلماء الربانيين الخائفين لله فكلهم علماء بالله يخشونه ويخافونه. وبعضهم أوسع علمًا بأحكام الله وشرائع دينه من بعض ولم يكن تميزهم عن الناس بكثرة قيل وقال ولا بحث ولا جدال.

وكذلك معاذ بن جبل ﵁ أعلم الناس بالحلال والحرام، وهو الذي يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة ولم يكن علمه بتوسعة المسائل وتكثيرها، بل قد سبق عنه كراهة الكلام فيما لا يقع، وإنما كان عالمًا بالله وعالمًا بأصول دينه ﵁

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢، ٨٢).

وقد قيل للإمام أحمد: من نسأل بعدك؟ قال: عبد الوهاب الوراق. قيل له: إنه ليس له اتساع في العلم. قال: إنه رَجُلٌ صالح مثله يوفق لإصابة الحق. وسئل عن معروف الكرخي، فقال: كان معه أصل العلم: خشية الله، وهذا يرجع إلى قول بعض السلف: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

وهذا باب واسع يطول استقصاؤه، ولنرجع إلى شرح حديث أبي هريرة ﷺ فنقول: من لم يشتغل بكثرة المسائل التي لا توجد مثلها في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ بل اشتغل بفهم كلام الله ورسوله وقصده بذلك امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فهو ممن امتثل أمر رسول الله ﷺ في هذا الحديث وعمل بمقتضاه ومن لم يكن اهتمامه بفهم ما أنزل الله على رسله و اشتغل بكثرة توليد المسائل قد تقع وقد لا تقع وتكلف أجوبتها بمجرد الرأي خشى عليه أن يكون مخالفًا لهذا الحديث مرتكبًا لنهيه تاركًا لأمره.

واعلم أن كثرة وقوع الحوادث لا أصل لها في الكتاب والسنة إنما هو من ترك الاشتغال بامتثال أوامر الله ورسوله واجتناب نواهي الله ورسوله، فلو أن من أراد أن يعمل عملاً سأل عما شرعه الله في ذلك العمل فامتثله وعما نهى عنه فيه فاجتنبه وقعت الحوادث مقيدة بالكتاب والسنة، وإنما يعمل العامل بمقتضى رأيه وهواه، فتقع الحوادث عامتها مخالفة لما شرعه الله وربما عسر ردها إلى الأحكام المذكورة في الكتاب والسنة لبعدها عنها.

وفي الجملة فمن امتثل ما أمر به النبي ﷺ في هذا الحديث وانتهى عما نهى عنه وكان مشتغلاً بذلك عن غيره حصل له النجاة في الدنيا والآخرة ومن خالف ذلك واشتغل بخواطره وما يستحسنه وقع فيما حذر منه النبي ﷺ من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وعدم

انقيادهم وطاعتهم لرسلهم.

وقوله ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**».

قال بعض العلماء: هذا يؤخذ منه أن النهي أشد من الأمر؛ لأن النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه والأمر قيد بحسب الاستطاعة.

وروي هذا عن الإمام أحمد - رحمه الله - ويشبه هذا قول بعضهم: أعمال البر يعملها البر والفاجر، وأما المعاصي فلا يتركها إلا صديق.

وروي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال له: «**اتقى المحارم تكن أعبد الناس**»(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب.

وقال الحسن: ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه. والظاهر أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات إنما أريد به على نوافل الطاعات وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات؛ لأن الأعمال مقصودة لذاتها والمحارم مطلوب عدمها؛ ولذلك لا تحتاج إلى نية بخلاف الأعمال، وكذلك كأن جنس ترك الأعمال قد تكون كفرًا كترك التوحيد وكترك أركان الإسلام أو بعضها على ما سبق بخلاف ارتكاب المنهيات فإنه لا يقتضى الكفر بنفسه. ويشهد لذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: لرد دانق من حرام أفضل من مائة ألف تنفق في سبيل الله.

وعن بعض السلف قال: ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمائة حجة.

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥).

وقال ميمون بن مهران: ذكر الله باللسان حسن وأفضل منه أن يذكرَ الله العبدُ عند المعصية فيمسك عنها.

وقال ابن المبارك: لأن أرد درهما من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليست التقوى قيام الليل وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى أداء ما افترض الله وترك ما حرم الله، فإن كان مع ذلك عمل فهو خير إلى خير أو كما قال: وقال أيضًا: وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس سوى الوتر، وأن أودي الزكاة ولا أتصدق بعدها بدرهم وأن أصوم رمضان ولا أصوم بعده يومًا أبدًا. وأن أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبدًا، ثم أعمل إلى فضل قوتي فأجعله فيما حرم الله عليَّ فأمسك عنه.

وحاصل كلامهم يدل على اجتناب المحرمات، وإن قلت: فهي أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات فإن ذلك فرض وهذا نفل.

وقال طائفة من المتأخرين: إنما قال ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**». لأن امتثال الأمر لا يحصل إلا بعمل، والعمل يتوقف وجوده على شروط وأسباب وبعضها قد لا يستطاع فلذلك قيده بالاستطاعة كما قيد الله الأمر بالتقوى بالاستطاعة. قال الله ﷻ:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال في الحج: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وأما النهي فالمطلوب عدمه وذلك هو الأصل، فالمقصود استمرار العدم الأصلي وذلك ممكن وليس فيه ما لا يستطاع وهذا فيه أيضا نظر، فإن الداعي إلي فعل المعاصي قد يكون قويًا لا صبر معه للعبد على الامتناع مع فعل المعصية

مع القدرة عليها فيحتاج للكف عنها حينئذ إلي مجاهدة شديدة، وربما كانت أشق على النفوس من مجرد مجاهدة النفوس على فعل الطاعات، ولهذا يوجد كثيرًا من يجتهد في فعل الطاعات ولا يقوى على ترك المحرمات.

وقد سئل عمر عن قوم يشتهون المعصية ولا يعملون بها فقال: أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وقال يزيد بن ميسرة: يقول الله في بعض الكتب: أيها الشاب التارك لشهوته المتبذل في شبابه من أجلي أنت عندي كبعض ملائكتي. وقال: ما أشد الشهوة في الجسد، إنها مثل حريق النار، وكيف ينجو منها الحصوريون؟ والتحقيق في هذا أن الله لا يكلف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به.

وقد أسقط عنهم كثيرًا من الأعمال بمجرد المشقة رخصة عليهم ورحمة لهم. وأما المناهي فلم يعذر أحد بارتكابها بقوة الداعي، والشهوات بل كلفهم تركها على كل حال، وإن ما أباح أن يتناولوا من المطاعم المحرمة عند الضرورة ما تبقى معه الحياة لا لأجل التلذذ والشهوة. ومن هنا يعلم صحة ما قال الإمام أحمد رحمه الله: إن النهي أشد من الأمر.

وقد روي عن النبي ﷺ من حديث ثوبان وغيره أنه قال: «**استقيموا ولن تحصوا**»[١]. يعني لن تقدروا على الاستقامة كلها.

وروى الحاكم بن حرب الكلفي قال: وفدت إلى رسول الله ﷺ فشهدت معه الجمعة، فقام رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا أو قوس، فحمد الله وأثنى عليه بكلمات خفيفات طيبات مباركات، ثم قال: «**يا أيها الناس: إنكم لن تطيقوا ولن تفعلوا كل ما أمرتكم به، ولكن سددوا وأبشروا**». أخرجه الإمام أحمد وأبو داود[٢].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٤/٢١٢)، وأبو داود (١٠٩٦).

وفي قوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**». دليل على أن مَن عجز عن فعل المأمور به كله وقدر على بعضه فإنه يأتي بما أمكن منه وهذا مطرد في مسائل: منها الطهارة، فإذا قدر على بعضها وعجز عن الباقي إما لعدم الماء أو لمرض في بعض أعضائه دون بعض فإنه يأتي من ذلك بما قدر عليه ويتيمم للباقي، وسواء في ذلك الوضوء والغسل على المشهور، ومنها الصلاة، فمن عجز عن فعل الفريضة قائمًا صلى قاعدًا، فإن عجز صلاها مضطجعًا.

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنبك، فإن عجز عن ذلك كله أومأ بطرفه وصلى بنيته**»(١).

ولم تسقط عنه الصلاة على المشهور. ومنها زكاة الفطر فإذا قدر على إخراج بعض صاع لزمه ذلك على الصحيح، فأما من قدر على صيام بعض النهار دون تكملته فلا يلزمه ذلك بغير خلاف؛ لأن صيام بعض اليوم ليس بقربة في نفسه، وكذلك لو قدر على عتق بعض رقبة في الكفارة لم يلزمه؛ لأن تبعيض العتق غير محبوب للشارع بل أمر بتكملته بكل طريق.

وأما من فاته الوقوف بعرفة في الحج فهل يأتي بما بقي منه من المبيت بمزدلفة ورمى الجمار أم لا؟ بل يقتصر على الطواف والسعي، ويتحلل بعمرة على روايتين عن أحمد: أشهرهما أنه يقتصر على الطواف والسعي؛ لأن المبيت والرمي من لواحق الوقوف بعرفة وتوابعه، وإنما أمر الله تعالى بذكره عند المشعر الحرام، وبذكره في الأيام المعدودات لمن أفاض من عرفات، فلا يؤمر به من لا يقف بعرفة كما لا يؤمر به المعتمر. والله أعلم»(٢).ا.هـ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١٠٣ – ١٠٦) باختصار.

وجوب تطهير الظاهر والباطن

من الإثم

ومما سبق يتبين لنا: أن تطهير الظاهر والباطن من الآثام من علامات العبودية الحقة. وهذا التطهير واجب.

قال الحق - سبحانه -:

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«هذه تقنينات السماء التي تحمي المجتمع من بعضه وذلك في ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد في المجتمع ففساد المجتمع يأتي من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات.

وهناك أشياء تكون في منابع النفس البشرية التي تصدر عنها عوامل التروع؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر. والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم؛ ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم.

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر وتقنين الإله، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم، ولا يكفي أن تحمي نفسك من أن يراك القانون؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس

من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية؛ والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم، ولكن تشريع السماء يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم في الأرض.

وبعض أهل الإكتساب في الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمرًا قد تعودوا عليه بلا افتعال.

و(كسب) - كما نعلم - تأتي بالاستعمال العام للخير، و(اكتسب) تأتي للشر لأن الخير يكون فيه الفعل العملي رتيبًا مع كل الملكات، ولا افتعال فيها، فمن يريد - مثلاً - أن يشتري من محل ما فهو يذهب إلى المحل في وضح النهار ويشتري؛ لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيبًا آخر، وهذا افتعال، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً، لأنه قد أضحى لونًا من الكسب.

و(يكسبون): تدل على الربح؛ لأن (كسب) تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطي لنفسه مقومات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائدًا، وهذا هو قمة الكسب.

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد في حركته أن يحقق لذاته نفعًا هو بصدد الحاجة إليه، ولكن الإنسان قديحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك؛ لذلك يحمي الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالي ويحقق نفعًا ممتدًا ولا يأتي له بالشر وما يحقق له نفعًا عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات - مثلاً - يحققون لأنفسهم نفعًا مؤقتًا، مثل التلميذ الذي لا يلتفت إلى دروسه، والذي ينام ولا يستيقظ، والذي إن أيقظوه

وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكع في الشوراع، هو في ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة، لكن مآله إلى الفشل. بينما نجد أن من اجتهد وجد وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذي لا تعقبه ندامة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ففي الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم؟

فالذي يصون المجتمع - إذن - هو التقنين السماوي؛ فالمنهج لا يحمي الإنسان ممن حوله ولكن يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة.ا.هـ.

أختي المسلمة:

وقد كان عملي في هذا الكتاب:

١- جمعتُ مادته العلمية من خلال خواطر الإمام - رحمه الله - ثم رتبتها بعد أن اختصرتها.

٢- أضفتُ فوائد وفرائد أشرت إليها في مواضعها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تنبيه مهم:

الكتاب لم يضم كله النواهي الشرعية، إنما تناول جملة منها، كما أشرتُ في البداية.

والآن نشرع في بيان المقصود.

❁ ❁ ❁ ❁

[١] اجتنبي كبائر الذنوب

قال الحق سبحانه:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝﴾ [النساء: ٣١].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية - ما مختصره -:

الاجتناب: ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسدّ المؤمن على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له.

والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه[1] السيئات ويكفرها، كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حمق الاختيار، فيوضح: أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأنَّ عندك مسلكين: كل مسلك يغريك، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله في الآخرة يُغري، وشهوة النفس العاجلة تُغري.

وما دامت المسألة قد تخلخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ؛ لذلك يوضح سبحانه: أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار، وأنا وهبت لك هذا الاختيار.

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها، يُحبُّ أن يأتي لربه راغبًا محبًّا، لأن هناك فارقًا بين أن يسخَّر المسخَّر ولا يستطيع أن

---

(١) عن المجتنب «للكبائر».

ينفلت عما قدر له أن يعمله، وتلك تؤديها صفة القدرة لله، لكن لم تعط لله صفة المحبوبية؛ لأن المحبوبية أن تكون مختارًا أن تطيع ومختارًا أن تعصي ثم تطيع، هذه صفة المحبوبية، والله يريد من الإنسان أن يثبت بطاعته صفة المحبوبية له سبحانه، فالإنسان المحب لمولاه برغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أو لا يفعلها ينحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء: ٣١]. كأن الله بعد تكليفاته في أمور الأعراض والأموال وتكليفاته في الدماء من قتل النفس وغيرها، أوضح: إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور، فأنا سأرضي باجتناب الكبائر من المساوئ؛ فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، والجمعة للجمعة كفارة، ومن رمضان لرمضان كفارة، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر، فلا تقل: سأفعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها، وأيضًا تكون كالمستهزئ بربّه.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾.

في السيئات يقول: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ وقلنا: إن (الكفر): هو(الستر) أي: يسترها. ومعنى نسترها يعني لا نعاقب عليها، فالتكفير إماطة للعقاب، والإحباط إماطة للثواب. فإن ارتكب إنسان أمرًا يستحق عليه عقابًا وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله. أي: يضع ويستر عنه العقاب. أما من عمل حسنة و لم يقبلها الله، فهو يحبطها.

إذن فالتكفير - كما قلنا - إماطة للعقاب، والإحباط: إماطة للثواب كما في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أي: ليس لهم على تلك الأعمال ثواب؛ لأنهم فعلوها وليس في بالهم الذي

يعطي الثواب وهو الله، بل كان في بالهم الخلق، ولذلك يقول النبي ﷺ: « **فعلت ليقال وقد قيل** ».

أنت فعلت ليقال وقد قيل، وقالوا عنك إنك محسن كبير، قالوا: إنك بنيت المسجد، وقرءوا اللافتة التي وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير، ويقول الحق:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

أنت فعلت ليقال وقد قيل؛ لذلك فالذين عملوا مثل هذه ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفطنوا لهذا الأمر، وإن كان الواحد منهم حريصًا على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهي المسألة، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله ﷺ في شأن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم: « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يَمينهُ** »(١).

فأنت حين تتصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة، والحق يقول: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ ﴾، و« الاجتناب » هو إعطاء الشيء جانبًا، ولذلك يقولون: فلان ازورّ جانبه عني، أي: أنه عندما قابلني أعطاني جانبه.

والمراد في قوله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ ﴾ هو التباعد، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهي عنه في مكان واحد، فعندما يقول الحق:

﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعندما يقول: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾، «فاجتنبوه» أي: ابتعدوا عنه، لماذا؟ لأن حمى الله محارمه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في المشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه.**»[(١)].

والحق يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

واجتنابه يكون بألا توجد معه في مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق: اجتنبها، أي: لا تذهب إليها؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون، فقد تشربها، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها وإغرائها، ولذلك قلنا: إن الاجتناب أبلغ من التحريم، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون: إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص!! نقول لكل واحد منهم: حسبك أن شرب الخمر قُرن بالرجس من الأوثان، فالحق يقول:

﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبده، بل إياك أن تراه، إذن: فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها، بل إياك أن تكون في محضرها.

و(الكبائر) جمع: كبيرة، ومادام فيه (كبيرة) يكون هناك مقابل لها وهي

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(صغيرة) و(أصغر)، فالأقل من (الكبيرة)، ليس (صغيرة) فقط؛ لأن فيه (صغيرة)، وفيه (أصغر) من (الصغيرة) وهو (اللمم).

والحق يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، و(السيئات): منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر؛ لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء، قالوا: معنى ذلك أننا سنغري الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر. نقول: لا، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك؛ فالحق يُكفر ما فلت منك فقط؛ ولذلك يقول الحق:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

يفعلون الأمر السيئ بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

إذن: فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنها بذلك تكون كبيرة، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون؟

يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. فإن أخذت هذه فخذ تلك، خذ الاثنتين، فلا كبيرة مع الاستغفار، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار.

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا: الكبيرة هي ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة، والتي لم يأت فيها حد فقد دخلت في عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر.

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها[1]، وهو الذي قال فيه أحد الخلفاء: كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد، أي أن كل العلماء يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد.

إذن: فقد شهد له، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء، بل قال: أريد أن أعرفها من نص القرآن، الذي يقول لي على الكبيرة يأتيني بنص من القرآن.

ودخل ابن عبيد البصري على سيدنا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل؛ لأنه عالم أهل البيت، ولأنه قد بحث في كنوز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش في رحاب الفيض، فقال ابن عبيد: هذا هو من أسأله، فلما سلم وجلس قرأ قول الله – سبحانه –:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

ثم سكت!! فقال له سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق: ما أسكتك يا ابن عبيد؟

قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله.

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن، ساعة قال له: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله.

قال أبو عبد الله: نعم، أي على خبير بها سقطت. أي: جئت لمن يعرفها. ثم قال: الشرك بالله، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) لعلّ الإمام – رحمه الله – مدح فيه جانب الزّهد، وإلاّ فهو معتزلي.

وقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأضاف: واليأس من رحمة الله فإن الحق قال:

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

وهكذا جاء سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله، وأضاف: ومن أمن مكر الله؛ لأنه – سبحانه – قال:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

والكبيرة الرابعة: عقوق الوالدين؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقي. قال تعالى:

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

وقتل النفس. قال تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

وأكل الربا. قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والفرار يوم الزحف. أي: إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فر واحد من الزحف. فقد قال تعالى في شأنه:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال: ١٦].

وأكل مال اليتيم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

والزنا. قال تعالى:

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

وكتمان الشهادة. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

واليمين الغموس وهو: أن يحلف إنسان على شيء فعله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله، وهو قد فعله، أي القسم الذي لا يتعلق بشيء مستقبل.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

والغلول أي: أن يخون في الغنيمة. قال تعالى:

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وشرب الخمر؛ لأن الله قرنه بالوثنية. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ

فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ [المائدة: ٩٠].

وترك الصلاة؛ لأن الله قال:

مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

ونقض العهد، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل. قال تعالى:

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ٢٧].

إذن: فكل هذه، هي الكبائر بنص القرآن، وكل كبيرة معها حكمة، عرضها لنا سيدنا ابن عبيد لأنه خاطب عالمًا، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذي جاء به سيدنا ابن سيدنا جعفر الصادق عندما سأله، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد. نعم. أي: إن جوابك عندي. ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت في ذهنه، وخصوصًا أنها ليست آيات رتيبة مسلسلة متتابعة! بل هي آيات يختارها من هنا ومن هناك، مما يدل على أنه يُعايش أسرار القرآن.

لقد نشأ هذا الرجل في بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذي وضع للمؤمن منهجًا بحيث لا يصيبه شيء في نفسه إلا وجد له علاجًا ودواء في كتاب الله، إنه وجد أن الزوايا التي تعكِّر على الإنسان أنه يخاف من شيء، والذي يخاف من شيء يكون هذا الشيء - غالبا - محدودًا معروفًا.

أنا أخاف من الشيء الفلاني، ولكن واحدًا يصيبه غمّ وهمّ لا يدري سببه، فيقول لك: أنا مغتم دون أن أعرف السبب.

إذن: ففيه انقباض لا يعرف سببه، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون له ويأتمرون به، وهناك ثالث يحب الدنيا ويريد أن تكون الدنيا عنده،

كل هذه هي مشاغل النفس البشرية: أن تخاف من شيء، أن تغم من شيء، أن تشفق من مكر بك وكيد لك، أن تطلب أمرًا من أمور الدنيا، وسيدنا جعفر هو الذي قال: عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله - سبحانه -:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

انظر لاستنباط الدليل، الذي يقوله سيدنا جعفر: فإني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

انظر دقة الأداء، يقول: سمعت الله، ولم يقل: قرأت، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآنًا لابُدَّ أن يتأكد أن الله هو الذي يتكلم.

وجلال القديم يغطي على جدية الحادث، فالذي يقرأ أمامك حادث، لكنه يقرأ كلام الله.

إذن: فجلال القديم يغطي على جدية الحادث. ويضيف سيدنا جعفر: وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قول الله - سبحانه -:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ثم يقول: إني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ويضيف سيدنا جعفر: وعجبت لم مُكر به ولم يفزع إلى قول الله - سبحانه -:

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

فإني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥].

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفزع إلى قول الله - سبحانه -:

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

فإني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٣٩، ٤٠].

هذه هي الاستنباطات الإيمانية، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التي قالها سيدنا جعفر تجدها تغطي زوايا النفس الاجترائية؛ لأن التكليف حينما يأتي يحد حركة الإنسان عن الشهوات، فالآيات جاءت لتحدّ من الاجتراء، وتجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوحدانية في الألوهية إلى قطيعة الرحم، وقد غطت الآيات كل جوانب الاجتراءات في النفس البشرية، أول اجتراء: هو الشرك. لأنه قال:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم الذي نعرفه: أنك تحكم بشيء للغير وليس من حقه، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك، أليس هذا أعظم الظلم، وهو ظلم لنفسك، فإياك أن تظن أنك تظلم الله؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ ولذلك يقول في الحديث القدسي:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

إن هذا ظلم لنفسك؛ لأنك حين تعتقد أن لله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء. واقرأ قول الله:

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر: ٢٩].

فعبد مملوك لعشرة أسياد، ويا ليت العشرة الأسياد متفقون، بل هذا يقول له: اذهب، وهذا يقول له: تعال. إذن: فقد أتعب نفسه وأرهقها. إذن: فقد ظلمها. قال تعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤].

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة، ولا أوامر من جهة أخرى أبدًا. إذن: فقد أرحت نفسك، وهذه قضية يثبتها الواقع؛ لأن الله قد أنزل في قرآنه المحفوظ المتلو المقروء:

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [طه: ١٤].

فالمؤمن يقول: هذه كلمة صدق، والكافر يقول - والعياذ بالله -: هذه الكلمة غير صدق، والمسألة على أي تقدير منتهية، واحد جاء وأخذ الكون وقال: لا يوجد إله إلا أنا، والذي أخذ منه الكون إله ولكن أَعَلِمَ أن الكون أُخِذَ منه أم لم يعلم بذلك؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة في هذا الإله، وإن كان قد درى فما الذي أسكته؟ فالمسألة - إذن - محلولة، هذه مسألة الشرك.

إن الإيمان بوحدانية إله جاءت لتريح النفس البشرية من كثرة تلفتاتها إلى آلهة متعددين، إنه هو الحق، وهو الذي ينفع ويضر، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كمثل العبد الذي له شركاء ويا ليتهم متفقون؛ بل هم مختلفون.

بعد ذلك يأتي في المرحلة الثانية وهي: اليأس من روح الله، و(الرَّوْح) من (الرائحة) وهي النسيم، فساعة تكون في ضيق والجو حار تلتفت لتجد واحة

فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها، هذه الراحة يعيطها الله لمن لا ييأس من روح الله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة؛ لأن الحياة أغيار، وأحداثها متعددة، وللعالم وللكون الظاهر سنن في الأسباب والمسببات.

هَبْ أن أسبابك ضاقت بشيء ولم يعد عندك أسباب له أبدًا، فالذي لا يؤمن بإله قوي يخرق الأسباب، ماذا يفعل ؟ ينتحر كما قلنا.

إذن: فاليأس من روح الله هو من جعل قوة الله العليا التي خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية في شيء يئس منها، أما المؤمن فنقول له: أنت لا تيأس؛ لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس؛ فالذي ييأس من روْح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية، إن الله، هو خالق هذه النواميس.

فعندما ييأس إنسان من روح الله، يكون قد سوّى الله - بطلاقة قدرته - بالنواميس، إن الذي تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره.

وبعد ذلك جاء بـــ (عقوق الوالدين) وهما الخلية الأولى التي يواجهها الإنسان، وهما السبب المباشر في إيجادك؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سببًا مباشرًا لوجودك تكون قد عققت وعصيت من كان سببًا أوليًا لوجودك، وهو الله الذي لم تره. إذن: فاحترامهما والبرّ بهما ليس - فقط - لأنهما سبب في وجودك وإنما - أيضًا - لأنهما ربياك صغيرًا فعليك بالبر بهما، وهذا يحثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سببًا في إيجادك، وتربيتك، وعندما ترقيها وتتسائل: من أوجد أباك؟ جدّك. ومن أوجد جدّك؟ تصل إلى أين؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له، وهو أن الله قد خلق آدم.

ثم قال: قتل النفس، والقتل هو نقض بنية الكائن، وهو يختلف عن الموت،

فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأي شيء. ولنقرأ القرآن بإمعان، إن الحق يقول:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية، وهذا لا يجريه إلا الله، إنما القتل هدم البنية، فأي إنسان يستطيع أن يفعله، فتخرج الروح بإذن الله، وليس معنى ذلك أن أحدًا عجل بأجل القتيل، لا؛ ولكنه تدخل في بنيان أقامه الله فهدمه، ولو لم يتدخل أحد في بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء.

إذن: فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل في هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا في بنيان له مواصفات خاصة تقتضي أن يكون المخ سليمًا، وكذلك القلب، وبقية أجزاء الجسم. لكن حين يجيء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية.

وضربنا مثلاً لنقرِّب هذا الأمر - ولله المثل الأعلى -:

إن هذه الروح نشبهها بالكهرباء، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمها ولم تذقها، إذن فبأي وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها. لكنك تعرف أنها تدير حياة جسمك كله، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رِمّة. وقد جعلها الله كدليل ذاتي في النفس البشرية على وجود إله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، تقول: لا نرى الله. نقول لك: نعم، فهو - سبحانه - يقول:

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١].

إن الحق لا يطالبك بأن تبصر ما في الكون فقط من آيات، بل إن الأدلة لا تتعداك أنت أولاً، فروحك التي تدير جسمك أين هي؟ ما شكلها؟ ما لونها؟ ما رائحتها؟ أتعرف؟ لا، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها، فكيف تطلب أن ترى إلهًا وقد خلق شيئًا لم تقو على أن تراه؟ أمخلوق لا تقدر أن تراه، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه. إذن: فمن عظمته أنه لا يُدْرَك. ويقول الحق - سبحانه وتعالى - عن لحظة تنزل الروح في الجسم:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص: ٧٢].

لأنه سيكون إنسانًا سويًّا، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء - ولله المثل الأعلى - هل تعرف ماهي هل رأيتها؟ لم ترها، هل أحد عرفها؟ الذين اكتشفوها، أعرفوا ما هي؟ لم يعرفوا، إنما نعرفها بآثارها، فساعة نرى المصباح منيرًا نقول: جاءت الكهرباء، وساعة تدور المروحة تقول: الكهرباء جاءت.

إذن: فأنت تعرفها بآثارها، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لا تجد له حركة. وعندما تخف الحركة وتَخْفُت يقولون: خذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت، وليس من اليد، لأن اليد قد لا تتحرك لإصابتها بالشلل، بينما الإنسان مازال حيا؛ ولذلك هات المرآة وضعها أمام مخرج النفس، فإن وجدت بخارًا على المرآة فهذا يعني أن هذا الإنسان مازال حيًّا، وفيه روح، وكذلك عندما ينكسر المصباح الكهربائي فالكهرباء لا تعمل عملها؛ لأن الكهرباء لا تظهر إلا في قالب من هذا النوع، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور.

إذن: فعندما نهدم الجسم لا تجد الروح الوعاء الذي تظهر فيه، فكذلك المصباح الكهربائي إن انكسر تكون الكهرباء موجودة في الأسلاك إنما لا يوجد

نور، وعندما تأتي بمصباح جديد يأتي النور، كذلك الروح لا تظهر إلا في الجسد الذي له مواصفات خاصة، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل، لأن القاتل يقتل خصمه فهذه شهادة منه أنه أعجز من خصمه، صحيح أنه قد قدر عليه وضربه وأماته وهذا مظهر قدرة بشرية حمقاء. لكن في الواقع أن هذا عجز.

إن معنى القتل ونقض الحياة أن القاتل يعلن أمام الملأ أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه، ولا يرتاح إلا إذا مات هذا الإنسان. إذن: فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه. فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنها شهادة عجز، وأنه لا يمكن أن يواجه حياة هذا الحي إلا بأن يميته لما قتله، والحق يحمي النفس البشرية من القتل حتى لا يكون أي إنسان مهددا، وحتى لا تتعطل الخلافة التي أرادها الله في الكون.

ثم تأتي كبيرة أخرى وهي: قذف المحصنات الحرائر، ونعرف أن ركنًا من أركان المجتمع السليم أن تظل الحرائر مصونات كي لا يعاني النشء والنسل الذي ينسل منهم من ظن الريبة والعار، وحين لا تظل النفس البشرية بريئة فهي تواجه الحياة بمنتهى طلاقتها وبمنتهى قدرتها؛ لذلك فالذي يحب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والحرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلزلة في المجتمع، زلزلة في نسب أفراد المجتمع، ويضار بها من ليس له ذنب، يضار بها الأولاد الصغار، وما ذنبهم وقد قال تعالى:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨].

وبعد ذلك قال: أكل الربا؛ لأن الربا يصنع خللاً اقتصاديًا فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد.

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط، والعلاقة الأولى التي أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هي أن تكون المرأة سكنًا وليست أداة استمتاع فقط، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه في النفس البشرية؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد في الأولاد.

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر، لأن الفرار يصنع خللاً في المجتمع الإيماني؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الإسلام أغاروا علينا، وماداموا قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الإسلام، حتى لا يمكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام، ولتظل كلمة الله هي العليا، ففرار المسلم يعطي أسوة على ضعف الإيمان في النفس، ولذلك لا تغتروا بأن هذا صار مؤمنًا وذاك صار مؤمنًا، فلو كان مؤمنًا حقًّا ووثق بالغاية فهو لايهاب القتال؛ لأنه إن قتل صار شهيدًا ومبشرًا من الله بكذا وكذا؛ لذلك فالفرار في يوم الزحف يعطي أسوة سيئة ليس في الحرب فقط، بل سيعطي شيوع خلخلة إيمانية في النفس البشرية، والحق - سبحانه وتعالى - أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب في أحد أمرين كلاهما حسن: النصر أو الشهادة، فقال - سبحانه -:

﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ما قاله الله:

﴿ونَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾

[التوبة: ٥٢].

فإذا كان الحق - سبحانه وتعالى - يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن

يفقد الحياة التي هي سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن، ولكن الحق - سبحانه وتعالى - لا يحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٦].

فالإنسان لا يدخل في معركة وهو غير مستعد لها، أو ليس لديه مظنة النصر، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحدًا، فماذا أفادنا؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بثمن يخصه وهو الجنة، وبثمن يُبقي للجماعة الأمان أو النصر.

وبعد ذلك قال: واليمين الغموس. واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع؛ لأن اليمين الغموس هي السبب الذي يغمس صاحبه في النار؛ لأنه حلف على شيء أنه كان وهو لم يكن، أو على شيء لم يكن وهو قد كان، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق، ولا يعرف القاضي التمييز حين يفصل في الحقوق، هناك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدي ذلك إلى ضرر بالغير، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يحلفان له، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه.

وتأتي كبيرة أخرى وهي الغلول. وتعني أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهي ما نسميها (السلب) وهي أسلحة الأعداء وما عندهم من أشياء. فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها، أيكون قد نقض عملية الحرب في سبيل الله أم لا؟ إنه ينقض عملية الحرب في سبيل الله، إن الحرب في سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هي العليا، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

لقد قلنا: إن كان قد غل بقرة. فسيحملها يوم القيامة، وسيكون لها خوار. إن غل في أسمنت فسيأتي حامله يوم القيامة، ومن غل في حديد أو استورد لحومًا فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتي وهو يحمله يوم القيامة.

ثم تأتي كبيرة وهي شهادة الزور. فشهادة الزور أيضًا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها؛ لأنها لا تجعل المؤمن مطمئنا على حقه.

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفزع كيانه؛ لأنه ينتهي إلى قوة خفية، إذ ليس أمام الذي يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه، حتى يرتب لنفسه الحماية منه. ولذلك يقول الحق - سبحانه -:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي ليس له نصيب في الآخرة، وربما يقول قائل: إذا كانت هذه مضرة السحر في هدم كيان المجتمع وتفزيعه، فلماذا وجد؟ نقول له: إن الكائنات مخلوقة لله، وكل كائن له قانون، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد. وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد في ذلك الجنس تكافؤ الفرص، بمعنى أن لك فرصة هي لغيرك. أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك، هذا يمثل خللاً في تكافؤ الفرص في الجنس الواحد.

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذي يحمي المجتمع، بأن تكون فرصك أنت وفرصي أنا متساوية، فيكون صاحب الحركة في مادة الكون هو الذي يتغلب، وبذلك لا آخذ أنا فرصة غير موجودة عندك. فتكافؤ الفرص هو الذي يرحم البشرية.

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل في الشيوعية في روسيا قد سقطت وبقيت قوة

في الغرب تتمثل في أمريكا، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان، اليابان، ألمانيا الموحدة، وأوروبا التي تبحث عن الوحدة، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى في الفرص المادية الموجودة.

وهذا هو ما يحمي الكون من الدمار؛ لأن أي واحد يفكر في أي شر جارف يخاف من ردّ الفعل، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد، ولو تيقنوا أن واحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب.

إذن: فحماية الجنس البشري إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفراده، ولكن الإنسان جنس، والجن جنس آخر، والإنس والجن مكلفان من الله، فعنصر الاختيار موجود فيهما، ولذلك حكى القرآن:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝ ﴾ [الجن: ١، ٢].

وعندما قسموا قال القرآن:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝ ﴾ [الجن: ١١].

إذن: فهم مثلنا. لكنهم لهم قانون ولنا قانون:

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إذن: فقانون الجن أنه يرى الإنسان، والإنسان لا يراه، وقانونه أخف من قانون الإنسان؛ لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى، فنحن البشر مخلقون من طين. أي: أنا لنا مادية محسة وكثيفة. والجن مخلوق من النار، والمخلوق من مادة الطين مثلنا، النبات والحيوان، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها. هب أنها خلف جدار وأنت جالس. أيتعدى طعمها لك؟ أتتعدّى رائحتها لك؟

يتعدّى لونها لك؟ لا. إذن: فالجرمية المحيزة لا تجعلك تنتفع به.

لكن هب أن نارًا موضوعة وراء الجدار، وبعد مضي مدة ستشعر بالحرارة، ي أن الحرارة قد نفذت. والجن له شفافية وله خفة في قانونه وفي انتقاله ولا وجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان، ولذلك لاحظوا أن الحق - سبحانه تعالى - حينما أراد أن يبين لنا هذا، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى بينا السلام الذي سخر الله له الجن:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ: ١٣].

وحينما اجتمع في جنوده ومن حوله من الناس قال:

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠].

وبعد ذلك جاءه الهدهد وقال له:

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣].

وهذا كله ليس بمهم، إنما المهم هو قول الهدهد:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٢٤].

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول. فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول ملك، فجاء بالملكية أولاً:

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾.

هذه مقومات المُلك، أما المسألة التي تهم سيدنا سليمان:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر، كأن الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب، ثم يقول:

﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥].

إذن: فهو يعرف من الذي يستحق السجود، ولاحظ أنه جاء بـــ ﴿ ٱلْخَبْءَ ﴾ لأن طعامه دائمًا من تحت الأرض، ينقر ويُخرج رزقه.

واستمرت القصة حتى قال سليمان لم يجلس معه:

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل: ٣٨].

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس ملكة سبأ في الطريق إليه، ومعنى أن يقول:

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

معناها أن الذي يتصدّى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحلّ ويحمل العرش ويأتي به قبل أن تأتي بلقيس.

بالله هل من قانون بشري يأتي به؟ وكيف ذلك؟ ولذلك لم يتكلم إنسيٌّ عادي، فالإنس العادي يعرف أن قانونه البشري لا يقدر على تلك المهمة، لأن سليمان قال:

﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى ﴾.

ومادام قال ذلك فقد علم أنهم في الطريق. فهل يذهب إنسان عادي ويحل العرش ويحمله ويأتي به قبل أن يأتوا؟ لا، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهنا يتصدى أحد الأذكياء من الجن قائلاً:

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩].

ومن يقول ذلك ليس بجن عادي، فالجن أيضًا فيهم عفاريت أذكياء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء، مثل الإنسان، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه، فكم يمكث من الوقت؟ لا نعرف، تُرى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف. إذن: فتأخذ هذه العملية زمن مقامه، لكن هاهو ذلك الإنسي الذي أعطاه الله فتحًا من الكتاب وعلمًا يقول:

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ [النمل: ٤٠].

الإنسي العادي لم يتكلم، والعفريت من الجن قال:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ ﴾ .

أما الإنسي الذي أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ .

ولذلك انظر إلى الأداء العاجل في القرآن أداء الحركة:

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ .

فالمسألة حدثت على الفور.

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ ﴾ .

ومنها نعرف أن له قانونًا في الحركة والسرعة، والإنسان الذي وهبه الله

علمًا بالكتاب له قدرة وحركة. إذن: فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له.

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيي المفكرين قائلين: ما الجن والملائكة والعالم الخفي الذي تحدثوننا به؟ نقول: ألا تؤمن إلا بالمُحسّ بالنسبة لك؟ فما رأيك في الميكروبات التي ظهرت الآن بعدما اخترع المجهر؟ لقد كانت موجودة، أكنت تعرفها؟ لقد كانت غيبًا عنك، فلماذا لا تأخذ من أن شيئًا لم يكن موجودًا تحت حسّك وغير مُدرك بإدراكك، كان موجودًا وكنت لا تملك آلة إدراكه، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أجناس غير مُدركة، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها؟ فما المشكلة في هذا؟

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «**وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1].

قد تتساءل: وهل الشيطان يجري مجرى الدم، أهو سائل أم ماذا؟

نقول: هو خلق لطيف خفي له قانونه الخاص، فربنا فضح الفكر الملحد وفضح التشكيك في الغيبيات التي يذكرها الله، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هي الميكروبات، وهي من الجنس المادي من الطين، لكنها ضئيلة جدًا، وماذا يفعل الميكروب؟ إنه ينفذ في الجسم ولا تدري أنت به وهو داخل في جسمك، وبعد ذلك ماذا يفعل في حرارتك؟ وماذا يفعل في جسمك؟ فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله: إن الشيطان سيجري منك مجرى الدم فما التناقض في هذا؟ إذا كان هناك شيء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل، ولا تشعر به وهو

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

داخل، ثم يقلب ميزانك في الحرارة ويمارس العبث بكل جسمك، فتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد. أي تناقض إذن؟

إن ربنا ترك من غيبيات كونه المادي مايثبت صدقه في التحدث بغيبيات أخرى:

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾.

لقد جاء الحق بواحد من الإنس حتى لا يظنن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون - سبحانه - إذن: فالمسألة ليست عنصرية بل هي إرادة الله إنه - جلت قدرته - أوضح: أنا أستطيع أن أجعل من الجنس القوي بقانونه وهو الجن محكومًا لواحد من الإنس، ويجعله يعمل ما يريده.

ولم يطلقها الله كطاقة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعرفها؛ لأنه ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره. وقد يطغى وهذا هو السحر. وأوضحنا ذلك عند قوله - سبحانه -:

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فتنة، لماذا؟ لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها في الضار فقد تستعملها في ذلك؛ فتستذهب بك إلى النار. والحق يقول:

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

إذن: فالحق - سبحانه وتعالى- من طلاقة قدرته يعطي للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئًا يستطيع به أن يسخر الأقوى وهو الجن، والجن يعرف هذه الحكاية. ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن لا يأتي ويدوم بل يأتي لمحة خاطفة؛ لأنه لا يستطيع أن يستقر على صورته التي يتمثل فيها، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلا لحكمته الصورة، وإن حكمته الصورة، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من (مسدسه) لقتله!

ولذلك فالجن يأتي لمحة مثل ومضة البرق ويختفي، إنها طلاقة قدرة الحق التي يمكن أن تعطي للجنس الأقل - الإنسان - قوة القدرة على أن يسخِّر الجنس الأقوى - الجن - لكن هذه ليست في مصلحة الإنسان، ولذلك فالمؤمن من الجن يقول: أنا أكتفي في جنسي بقانوني، فربما يجعلني عدم تكافؤ الفرص طاغيًا، لأن من يملكون هذه القدرة يطغون في الناس. والذي يقوم بعمل تكره به المرأة زوجها ويكره به الزوج امرأته هو نفسه من يحلّ مثل هذا العمل، ومن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية.

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق:

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالسحر وارد بنص القرآن، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعة في السحرة ولا ذاتية فيهم، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس، والذي يتبع هؤلاء السحرة، ويذهب لهم ليفكوا له السحر، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم، وينفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقًا مصداقًا لقوله الحق:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾ [الجن: ٦].

صحيح أهم يقدرون أن يسحروا، لكن ذلك السحر يزيد المتسبب فيه رهقًا وتعبا.

وعلى المؤمن أن يحمي نفسه بهذا الدعاء:

« اللهم قد أقدرت بعض خلقك على السحر، واحتفظت لذاتك بإذن الضر، فأعوذ مما أقدرت عليه بما احتفظت به » .

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه، فهم يستغلون الضعيف فقط، والسحر يُوجِد عدم تكافؤ فرص، ويفتن الناس في الناس، ويؤدي إلى إخلال توازن المجتمع.

وبعد ذلك تجيء كبيرة منع الزكاة، والحق - سبحانه وتعالى - حين يطلب منا أن نزكي، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشيء من عندنا؛ فالعقل الذي يخطط للعمل مخلوق لله، والجوارح التي تعمل مخلوقة لله، والأرض التي تعمل فيها أو الصنعة التي نصنعها مخلوقة لله. إذن: فكل حاجة لله. لكنه أوضح لك: سأحترم عملك، وعليك أن تعطي أخاك الفقير بعضًا مما رزقك به.

ويقول قائل: مادام هو ربُّ الكلّ، فلماذا يترك واحدًا فقيرًا؟ نقول: لكي يُثبت الأغيار في الكون، ويعرف الغني أن الفقر قد يلحقه، ويعرف القوي أن الضعف قد يلحقه. إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون، فيحُنن الخالق قلب الواجد على المعدم ليعطيه، فيوم تمنع الزكاة يظهر أثر ذلك في الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق، ولذلك فإذا رأيت واحدًا جوعانًا بحق فاعرف أن واحدًا ضيع زكاته فلم يؤدها، وإن رأيت عورة في المجتمع فاعرف أن فيه حدًا مضيعًا لله، لأن ربنا جعل المجتمع متساويًا والنقص هنا يكمله من هناك، فإن رأيت نقصا عامًّا فاعرف أنه فيه حقًّا لله مضيعًا.

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة، ونعرف أن

الصلاة هي إعلان دوام الولاء للإله الواحد، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله مرة واحدة في العمر، وتُزكي إن كنت واجدًا وقادرًا مرة واحدة في السنة، وتحجُ مرة واحدة في العمر، وتصوم شهرًا واحدًا في السنة، وإن كنت مريضًا لا تصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لا يرجى شفاؤه أو أصبح الشخص لا يقوى على الصوم لكبر سنه، وإذا كنت فقيرًا لا تزكي، فقد سقطت الزكاة عنك أيضًا، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج.

ها هي ذي ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها. وبقى ركنان اثنان من أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والصلاة، وشهادة أن لا إله إلا الله يكفي أن تقولها في العمرة مرة، فماذا بقى من أركان الإسلام؟ بقيت الصلاة، ولذلك قال ﷺ: «**الصلاة عمود الدين**»(١).

إذن: فترك الصلاة معناه: أنه تمرد على إعلان العبودية والولاء للحق. وقد طلبها الله في اليوم خمس مرات، وحتم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع. لماذا؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيدًا لله. فلا يعبد واحد ربنا سرا وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحدًا فكلنا نسجد لله ولابد من إعلان الولاء لله، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له - سبحانه -.

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات في اليوم، هذا بالأمر والتكليف، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له في أي وقت تجده في استقبالك في أي مكان تقف وتقول: الله أكبر تكون في

(١) حسن: رواه أبو نعيم الفضل بن دكين في «الصلاة» عن عمر. ورواه الترمذي بإسناد صحيح بلفظ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ..» الحديث.

حضرة ربنا، وقلنا سابقًا: إن من له السيادة في الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلبًا حتى تلقاه. ويحدد لك الميعاد، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله: ستتكلم في ماذا. وقد يقف المسئول أو السيد في الدنيا وينهي المحادثة. لكن ربنا ليس كذلك. أنت تذهب له في أي وقت وفي أي زمان وتطيل كما تحب ولن ينهي المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت. ولذلك يقولون:

حسبُ نفسي عزًا بأني عبد ... يحتفي بي بلا مواعيد ربّ

هو في قدسه الأعزُّ ولكن ... أنا ألقى متى وأين أُحِبّ

صحيح هو يأمرني أن ألقاه خمس مرات في اليوم، لكن الباب مفتوح للقائه في أي وقت، وأوضحنا - سابقا - ولله المثل الأعلى - هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم - أيوجد فيها عطب ؟ لا. وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات. والصنعة العادية يُصلحها صانعها بسلك أو بمسمار أو بوصلة يضعها، أما أنت المخلوق لله وربك غيب وهو يُصلح جهازك بما يراه مناسبًا.

وبعد ذلك بقى من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم، ونقض العهد لا يجعل إنسانًا يثق في وعد إنسان آخر. فينتشر التشكك في نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض، والوعد قد يحل مشاكل الناس المعْسرين، فعندما يقول قادر لغير قادر: أعدك بكذا. ويعطيه ما وعده به، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن يصدقه بعد ذلك. وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق، يصبح صادقًا، وكل ما عند الناس يصبح عنده، ولذلك يقولون: من يأخذ ويعطي يكون المال ماله.

وبعد ذلك تأتي كبيرة قطيعة الرحم: لأن الحق - سبحانه وتعالى - اشتق

للرحم اسمًا من اسمه فهو القائل في الحديث القدسي: «**أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**»(١).

ونعلم جميعًا حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له: يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول: إنه أخوك، فيقول معاوية للحاجب: أي إخوتي هو؟ ألا تعرف إخوتي؟ فقال الحاجب: إنه يقول: إنه أخوك. فلما دخل الرجل، سأله معاوية، أأنت أخي؟ قال: نعم. فقال معاوية: وأي إخوتي أنت؟ فقال: أنا أخوك من آدم! فقال معاوية: رحمٌ مقطوعة، لأكونن أول من وصلها.

تلك هي الكبائر التي ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهي تمثل ما يمكن أن يكون نقضًا للمجتمع كله من أساسه، فكل كبيرة تنقض ناحية من نواحي المجتمع، وهذا يخالف الإيمان، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعًا عشنا في أمن. والإسلام أيضًا منهج إن اتبعناه جميعًا عشنا في سلام. فيوم تأتي أيها المسلم كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركنًا من الأركان، وحينئذ لا يكون هناك أمان ولا سلام، ولذلك يقول الحق - سبحانه -:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

وعندما ندقق في كلمة ﴿تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ نلتفت إلى أن أصل الفضائل: أن تسلب نقيصة وأن توجب كمالاً، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقائض بالنواهي؛ ولذلك يقولون: التخلية قبل التحلية.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

و ﴿نُكَفِّرْ﴾ أي: نستر. لأن الكفر هو الستر. وقلنا: إن التكفير للذنوب إماطة للعقاب، والإحباط إماطة للثواب.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد والبخاري وأبو داود وغيرهما.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم.

يقول الحق:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد كان يكفي ألا تعاقب، لكنك حينما تتجنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط، بل يدخلك الله مدخلاً كريمًا، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك في مدخله، فانظر، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله؟.

يقول رسول الله ﷺ: قال الله تعالى:

«**أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)].

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد، وهو: التوازن بين أفراد الجنس الإنساني، كل هذا الكلام كي يُحفظ الجنس الإنساني مع بعضه، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازنًا ومصالحه إيمانية بين نوعي الجنس الإنساني، و الجنس الإنساني فيه ذكروة وفيه أنوثة.

ونعرف أن كل جنس من الأجناس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعًا وهذا نوعًا ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين.

إذن: فما دام الجنس الواحد نوعين فلابُدَّ أن يجمعهما في شيء مشترك، ومادام الجنس الواجد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة. والذكورة والأنوثة

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

هما نوعان لجنس البشر، فالذكر والأنثى يشتركان في مطلوبات الجنس، وبعد ذلك ينفردان في مطلوبات النوع، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد. والأفراد أيضًا ليسوا مكررين، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شطارة في مجال كذا وكذا، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشري.

ومادام الجنس البشري قد انقسم لنوعين، فيكون للرجال خصوصية وللنساء خصوصية. وربنا - سبحانه وتعالى - لا يأتي حتى في البنية العامة ليجعل الجنسين مستويين في خصائص البنية، صحيح البنية واحدة: رأس وجذع وأرجل، إنما يأتي ويميز بنية كل نوع بشيء، الرجل له شكل مميز، والمرأة لها شكل مميز.

ولذلك فالذين يقولون: نسوي الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم: المرأة لها تكوين خاص، والرجل له تكوينه الخاص، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل، وبقيت مجالاتها التي لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها، معطلة لا يقوم بها أحد. إذن: فأنت حملتها فوق ما تطيق وأنت مخطئ؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى.

إن الحق - سبحانه وتعالى - ساعة يخلق جنسًا، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين، يوضح: تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك، المشترك بين الأنوثة والذكورة، ما هو؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر في عقيدته الإيمانية، الاثنان متساويان فيها، ولا يفرضها واحد على الآخر، وضرب الله - سبحانه وتعالى - لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة في الأمر الأولى للإيمان، وإن اختلفت في الأمر الثانوي للأحكام، فيقول:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

وهذان رسولان، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد. إذن: فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل، ولا أحد تابع لآخر في هذه المسألة أبدًا. ويقول الحق:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

فرعون الذي ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم امرأته على أن تكفر والحق – سبحانه وتعالى – قال فيها:

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: ١١].

إذن: ففي مسألة العقيدة الكل فيها سواء، الذكورة والأنوثة، فيها عقل وفيها تفكير.

ولعل المرأة تشير برأي قد يعز على كثير من الرجال. ولنا المثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقفها في صلح الحديبية فعندما يأتي الرسول ﷺ ليعقد المعاهدة، ويحزن أصحابه ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ الذي قال: «أنقبل الدنية في ديننا».

فيقول له سيدنا أبو بكر : الزم غرزك يا عمر إنه رسول الله.

فدخل رسول الله مغضبًا، طبعًا من حمية عمر وحزن الصحابة، لأنها مسألة

تعز على النفس البشرية، لكن رسول الله ﷺ يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها:

«هلك المسلمون، ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي»؟

فقالت: يا رسول الله: لا تلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبي الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك.

لقد وقع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة. ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله في هذه المسألة، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول: «سأبين لكم: أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم، وقد تقتلون أناسًا مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أي ما تكرهونه ويشق عليكم مصداقًا لقول الحق تعالى:

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥].

لو تزيلوا أي: لو تميز المؤمنون في منطقة لعاقبنا الكافرين عقابًا شديدًا. إذن: لقد أوضح لهم العلة، فرضى الكل، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا أم سلمة، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك في قصة بلقيس، لقد فكرت بلقيس في الرجل الآتي ليزلزل ملكها: يا ترى هل هو طالب ملك، فجاء على لسانها في القرآن الكريم:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٢].

فماذا قال القادة؟ قالوا: لا، هذه ليست مسألتنا، وجاء القرآن بقولهم:

﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٣].

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط، يحارب أو لا يحارب، لكن الذي يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال.

نقول لقائد الجند: أنت تنتظر الأمر، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون في عواقب الأمور؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس:

﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾.

لقد وضعواالأمر في رقبتها وهي امرأة، ففكرت: سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين. فأرسلت هدية له، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦].

فعرفت بلقيس أن المُلْكَ ليس هدفه، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة، فقالت: أذهب له وأسلم، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

يعني: أنا وهو أصبحنا عبيدًا لله، هذه رفعة الإيمان؛ فلا غضاضة مادامت هي وهو عبيدًا لإله واحد، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأي الحسن أيضًا ومن الأداء الجميل، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده

علم من الكتاب وأقامه، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها، وكان لابُدَّ أن يلتبس عليها الأمر، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢].

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة:

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢].

هي امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر. لكن المهم أن تعلم أن لها حدودًا في إطار نوعيتها، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيها، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى في البنية يختلف الرجل عن المرأة؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستميلة، ولها عاطفة فياضة، وفيض حنان، والرجل فيه صلابة حزم وعزم. إذن: فكل واحد معدّ لمهمة.

فلا يقولن أحد: أنا ناقص في هذه، لكن انظر غيرك إنه ناقص في ماذا وهو عندك أيضًا كامل.

ويأتي الدين ليوضح: يا مؤمنون. الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث. الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث. أي تدليل أكثر من هذا؟

لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء، والدين يطلب أن تكون المرأة سكنًا للرجل، فالمفروض أن الرجل هو الذي يتحرك حركة الحياة خارجًا، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه، والذي يصقل السيف ويحده، مثل الشجاع الذي يضرب به تمامًا. كل له عمل يكمل عمل الآخر، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة.

* * * *

[٢] اجتنبي المحرمات

قال الحق سبحانه:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى –:

نظر في هذه الآية فلا نجد شيئًا من المحرمات من الأطعمة التي بها قوام الحياة، ولكن نجد فيها المحرمات التي إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التي هي مقومات الحياة الروحية، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

والأداء القرآني هنا يأخذ لفظ (تعال) بفهم أعمق من مجرد الإقبال، فكأن الحق يقول: أقبل عليَّ إقبال من يريد التعالي في تلقي الأوامر. فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر؛ لأن الشرط الواجب في المشرع ألا يكون مساويًا لمن شرَّع له، وألا يكون منتفعًا ببعض ما شرَّع، وأن يكون مستوعبًا فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء. و المشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه، ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع.

الرأسمالي – مثلاً – يشرع ليستفيد، والماركسي يشرع ليستفيد. وكل واحد يشرع وفي نفسه هوى، ومن بعد ذلك تعدل التشريعات عندما نستبين أنها

أصبحت لا تفي ولا تغطي أمور الحياة، فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا، فنظر في قانونه فلم يجد شيئًا يغطي هذه القضايا، فيقول: نعدل القانون، ونستدرك. ومعنى استدراك القانون أي أن هناك ما جهله ساعة قنن.

إذن: يشترط في المقنِّن ألا يكون مساويًا للمقَنن له، وألا تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُستَدْرَك عليه، وألا يكون منتفعًا بالتشريع، ولا يوجد ذلك في بشر أبدًا، فأوضح الحق: اتركوا حضيض التشريع البشري وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها؛ فحين ينادي الله ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التي تحكم حركة حياتكم، فهو لا ينتفع بما شرع، بل أنتم الذين تنتفعون، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه، وهو خالق، هو أولى أن يشرع لكم.

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ﴿أَتۡلُ﴾ من التلاوة وهي القراءة.

﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي ما جعله حراما، أي يمتنع عليهم فعله، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغًا بعد بلاغ.

﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوي يؤكد علينا ألا نشرك به؛ فأنت ساعة تأتي لتلقّي أوامر لمن ترأسه تقول له: استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه. ثم تبدأ في التفصيل، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئًا. أي أتلو عليكم تحريم الشرك، فأول المحرمات الشرك، وعلينا أن نوحد الله، فكل نهي عن شيء أمر بمقابله وكل أمر بشيء نهي

عن مقابله. وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيًا، وكل نهي يستلزم أمرًا. فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهي. أو تكون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ منقطعة عما قبلها، أي عليكم ترك الشرك، وعليكم إحسانا بالوالدين، وألا تقتلوا أولادكم، وألا تقربوا الفواحش، أي الزموا ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين، أي لا تعقّوهم. فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، أي استبقوا حياة أولادكم، فإن أردها من قبيل النهي فقل هو نهي عن قتل الأولاد، وإن أردها من قبيل الإيجاب فقل: استبقوا الحياة.

وقوله: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من فقر، فكأنهم كانوا فقراء، وما دام الإملاق موجودًا فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتي بعده، فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتي زيادة عليكم وهم الأولاد.

ويقول سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، وهذا نهي عن القرب، أي نهي عن الملابسات التي قد تؤدي إلى الفعل لا نهي عن الفعل فقط؛ فحينما أراد الله أن يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

لأن القرب قد يغري بالأكل، وكذلك ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: لا

تأتي إلى مقدمات الفواحش بأن تلقي نظرة أو تحدّق النظر إلى محرمات غيرك، وكذلك المرأة التي تتبرج؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل؛ لأن رسول الله ﷺ يقول:

«الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كَراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

ويمنعك الحق ألا تقرب، أي أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء، مثلها مثل (اجتنب) تمامًا، وسبحانه وتعالى يقول:

﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ويقول:

﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وهنا يقول تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التي ترتكب الموبقات و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو من أفعال السرائر، مثل الحقد، والغل، والحسد.

ويتابع سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وكلمة ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ يختلف الناس في معناها، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة، والروح في ذاتها خيِّرة، والمادة في ذاتها خيِّرة مسبحة عابدة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت؛ لأن الله هو الذي يميت النفس، أما الإنسان فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها.

والذي وهب الحياة هو الله، فلا يسلب الحياة إلا هو. وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصًا، أو للزنا من الثيب المحصن رجلاً أو امرأة، أو للردة، فهذا قتل بحق، لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق، والإنسان بنيان الله فلا تعتدي عليه. ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنسانًا؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة غيره، وحين يحفظ الإنسان كل نفس، فإنه ينجو بنفسه ويسلم.

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيب، والثيب الزاني يطلق على الذكر والأنثى، وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه، وكذلك المرتد، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلي لكفره، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضي أن يدرسه دراسة مستوفية مُقنعة، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع.

ونحن نحمى بالاختيار، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره: إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل، وما دام الشيء ثمنه الحياة، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد. وفي ذلك أيضًا ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث في الأدلة فسيقتنع بأن له إلهًا حقًا، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلي.

إذن: فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار، فإياك أن تدخل بدون روية؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل، وبذلك يصفي الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه، ولا يدخل إلا بنية على هذا، ففي أي عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات. ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج، أو الدخول الأرعن، أو الدخول المتعجل. بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية.

وفي الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضًا هي: «أنت طالق»، ولذلك تحتاط المرأة، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا في يد أمينة عليه، وساعة أن يقول لها أبوها: اسمعي، إن لك أن تختاري الزوج الذي إن أحبك أكرمك، وإن كرهك لا يظلمك، لأنه بكلمة منه تنتهي الحياة الزوجية، إذن: فعلى المرأة أن تفكر في الإنسان الأمين على هذه الكلمة.

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة، من مرة واحدة لكن في الطلاق هناك ثلاث مراحل؛ كرصيد للغفلة، فالرجل يتزوج المرأة بكلمة: «زوّجتك نفسي» أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج، لكن في الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة، ثم يراجع هو من غير دخول أحد بينهما، ثم يطلق ثانية، ويراجعها، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق: لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك، ولكن عندما تريدها زوجًا لك فلا يتم ذلك إلا أن تتزوج غيرك، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها، فاحتط جيدًا للأمر الذي تدخل عليه، وللتعاقد الذي التزمت الذي التزمت به، فإذا كان هذا هو الشأن في تعاقد الزواج، فما بالنا بالرّدة؟! إننا نقتل المرتد، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه

وقبل الدخول في حيز المؤمنين، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل، وهكذا يصعِّب الإسلام الدخول إليه، ويحمي الاختيار في الوقت نفسه.

ويتابع سبحانه:

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾،

و« الوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التي لا تستقيم الحياة إلا بالقيام بها، إنها في أمهات المسائل التي لا يصح أن نغفلها. ولذلك حين تنظر إلى النبي ﷺ، لقد ظل ثلاثة وعشرين عامًا يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض، ثم جاء في حجة الوداع وركز كل مبادئ الدين في قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

و﴿ وَصَّىٰكُم ﴾ غير شرَّعَ؛ فشرَّعَ تأتي بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة، والوصية تضم أمهات المسائل في التشريع. والعقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها؛ فلو استعملت عقلك في كل منهي عنه، أو في كل مأمور به في الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التي ذكرها في هذه الآية بـ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. هذه الأوامر متفق عليها في جميع الرسالات وفي جميع الأديان، ويسمونها: الوصايا العشر.

والأشياء الخمسة التي أوصى بها سبحانه هي:

- ألا تشركوا به شيئًا.
- وبالوالدين إحسانًا.
- ولا تقتلوا أولادكم من إملاق.
- ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

- ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق.

فكان يجب أن يقول:ذلكم وصاكم بها، لكنه قال: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها في : التزم ما أمر الله به، واجتنب ما نهى الله عنه.

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فكأن العقل لو خُلِّي ليبحث هذه الأشياء بحثًا مستقلا عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء.

إذن: كيف نُعْصَم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض؟ لابد أن يكون الإله واحدًا حتى لا يتبع كل واحد منا هواه.

إننا نعرف أن الأصل في الإنسان هو الأب والأم. ولذلك وصى بالأصل في ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر؛ لأن الحياة تستمر بهم، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة، طاهرة لجميع الأفراد، ولا تشوبها شائبة الدنس أبدًا، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش، ما ظهر منها وما بطن؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلون؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال في الحياة؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله. ويكون محسوبًا عليه أمام المجتمع، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة.

ثم يجيء الحق بعد ذلك في الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول:

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه، و لم يبلغ مبلغ الرجال، هذا في الإنسان، أما اليتيم في الحيوان فهو من فقد أمه، وقوله الحق:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال، فلم يقل: لا تأكل مال اليتيم. بل أمرك ألا تقترب منه ولو بالخاطر، ولو بالتفكير، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة. وإذا كان قد قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه؟ لا؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك: ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي بأن تُثمِّرَ له ماله تثميرًا يسع عيشه، ويبقى له الأصل وزيادة.

ولذلك قال في موضع آخر: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٥].

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره، ثم يعطيه منه كل شهر جزءًا حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أو ضاع، لذلك لم يقل: «ارزقوهم منها» بل قال: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ أي: ارزقوهم رزقًا ناشئًا منها، فَمَا لُهم ظرفية للرزق، ولا يتأتى هذا إلا بأن نثمرها لليتيم، ولا نحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب الكفاءات في إدارة الأعمال والأمناء، وقد يوجد الكفء في إدارة العمل، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامه بإدارة أموال اليتيم؛ فقال – سبحانه – في ذلك

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء: ٦].

أي: أن يهب الوصيّ تلك الرعاية لله، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجرًا؛ يضمن أنه إن وُجدَ في ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعًا منه مدخرًا أجره عند الله، والحق هو القائل:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ [النساء: ٩].

وحينما يجد اليتيم من يرعاه، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغارًا ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى، لكن الإنسان إن وَجَد اليتيم مُكرّمًا، ووجد له آباء من الأمة الإسلامية متعددين، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم في رعاية المجتمع، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أي يتيم، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك، وحين يرعى المجتمع الإيماني كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعًا بِقَدَر الله في خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولادًا، والمثل الواضح في سورة «الكهف» بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرّا على قرية:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ [الكهف: ٧٧].

فلم يطلبا نقودًا ليدخراها، ولكنهما طلبا طعامًا لسد الجوع، وهذه حاجة ملحَّة. ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما. ومعنى ذلك أنها قرية لئيمة الأهل. وعلى الرغم من أن العبد الصالح وجد ردهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما، ولكنه عندما وجد جدارًا، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض؛ وكأن الجدار له إرادة، فأقام الجدار، ولامَهُ سيدنا موسى عليه السلام، وكان سيدنا موسى منطقيًّا مع نفسه، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا، فكيف ترد عليهم بأن تبني لهم الجدار، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة، فهم قوم لئام؟ هذا كلام موسى. لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز، لأنه لو

ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذي تحته وهو ليتيمين، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم.

وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار كان لغلامين يتيمين في المدينة:

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢].

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناء موقوتا، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما. وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك، فقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

فكأن صلاح الأب هو الذي أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء، فيأتي العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام، ويطلبان طعامًا، فلا يطعموهما، فيبنى العبد الصالح الجدار الموقوت الذي يصون الكنز من اللئام. والحق يقول هنا:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومن لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه.

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٦].

وكلمة ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي: لا يكنز ولا يدخر منه أبدًا، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسي ما يستر جسمه. ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد، وكذلك الكبير السفيه هو أيضًا لا يقدر على التصرف؛ لذلك قال الحق في أدائه البياني حيث يؤدي اللفظ ما يوحي بالمعاني الواسعة:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ [النساء: ٥].

وجعل الحق مال السفيه في مرتبة مال الولي؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها. ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق:

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

إنه أداء قرآني عجيب، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله، فما دام هو في سفه فانظر إلى المال كأنه مالك، ولتكن أمينًا عليه أمانتك على مالك. وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله. ونعود إلى اليتيم، وهنا يقول الحق:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

هذا إن كان له مال، فماذا عن اليتيم الذي لا مال له؟. هنا تكون الوصية أقوى، عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا (وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما)**»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل**» [2].

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد، احذروا ذلك، فإنه فضلا على أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) أخرجه ابن ماجه وهو في «الصحيحين» بلفظ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**». قال أبو هريرة: وأحسبه قال: «**وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر**».

لم يقل الله - سبحانه - بالتي هي حسنة ولكنه قال: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد، يعني أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة، وما المعيار في الذاتية المستقلة؟ أن يصبح قادرًا على إنجاب مثله، وهذا معيار النضج. مثله مثل الثمرة حين تنضج؛ أي صارت البذرة التي فيها صالحة لأن نضعها في الأرض لتكون شجرة. وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوي البذرة وتنضج.

و«الأشد» أي: أن الإنسان يصير قادرًا على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ، ويصبح أيضًا قادرًا على حسن التصرف في المال وفي كل شيء.

ويتابع سبحانه:

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والكيل هي المعايير لما يكال حجمًا، والموازين هي المعايير لما يقدر كثافة، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة. معيار الحجم الكيل، ومعيار الكثافة هو الوزن، وهناك أيضًا التقديرات العادلة في القياس، للأقمشة مثلاً، المقياس فيها هو المتر، إذن كل شيء بحسبه، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكون بالقسط، أي بالعدل.

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس، فنحن نزنه بميزان كبير؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً. وحين نزن أشياء أثمن قليلاً، نأتي بالميزان الدقيق. فإن كان الشيء الموزون ذهبًا نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن.

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها. وحين نزن المواد الكيماوية نأتي بميزان يعمل بالذرة. إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره؛ لأن تحقيق العدالة في الميزان مسألة صعبة، وكذلك الأمر في الكيل. فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزه؛ حتى يأتي المكيال دقيقًا محررًا، وإن أراد أن يلغي ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع. وربنا يقول:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣].

فحين يكتال يستوفي ويطفف أي يزيد ما سوف يأخذه شراء، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمنًا أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل. وأصل المبادلات غالبًا بين طرفين، وبعض المتنطعين يقول: كيف يقول الحق: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والتطفيف في أي مسألة يكون بالزيادة، لا بالنقص. ونقول: انتبه إلى أن المتحدث هو الله، والتطفيف إنما هو الرغبة في الاحتفاظ بالزيادة للنفس، أما النقص فيكون للآخرين، والتطفيف يزيد طرفًا وينقص من طرف، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء. فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف.

ولذلك تأتي دقة الأداء القرآني من ربنا:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته في التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمرًا يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل في الاستطاعة؛ ففي ضبط المكيال والميزان قال: ﴿لَا

نكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل في نطاق الإنسان. ولذلك قلنا: إن وزن الأشياء التي نعلمها إن كانت من الأشياء التي ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة. وإن كانت في المتوسط فوزنها له آلة، وإن كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبَّة الهواء، فقول الحق: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التي لا تدخل في الاستطاعة.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب، ينفعل للمطلوب فيها خبرًا أو إنشاءً، والقول مقابله الفعل، وكلاهما عمل، فالقول عمل والفعل عمل؛ فإذا قلت: قل أو افعل، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان، فإذا رأيت، وإذا سمعت، وإذا شممت، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

وهل العدل مقصور على القول؟ أو العدل أيضًا يكون في الفعل؟ إن العدل قد يكون في خلاف بين اثنين، وهذا لا يتأتى بفعلك، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك، وإذا ما تعودت العدل في قولك، ألفته وأنست به وأحببته حتى في أعمالك الخاصة الأخرى.

والقول منه الإقرار، وإن تقر على شيء في نفسك فقله بالعدل وبالحق،

والشهادة. قُلْها بالحق، والحكم. قله بالحق. والوصية. قلها بالحق. والفتوى. قلها بالحق. إذن فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يزهد في الحركة. لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل الأمور، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة:

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والذي يؤثر في العدل هو الهوى، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقًا بك أو بقرابة لك، وقد تريد إن حكمت -والعياذ بالله -باطلاً، أن تسعد ذا قرباك، وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة؛ لأن حق القرابة كان يقتضي أن تمنع عنه كل شيء محرم وتحمي عرضه، وتحمي دينه قبل أن تحمي مصلحته في النفعية الزائلة. ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت في الواقع حكمت عليه لا له.

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يعتبر عهدًا داخلاً في إطار الإيمان؛ لأن الله لا يحكم حكمًا أو يبينه لمكلف إلا بعد أن يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة: ١].

أي يا من آمنت بالعهد الأصيل في القيم وهو العقيدة، وآمنت بي إلهًا، خذ التكليف مني؛ لأنك قد دخلت معي في عهد هو الإيمان.

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافرًا به، إنما يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به، فلا تبحث عن العلة في كل حكم، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذي أمرك أن تفعل كذا، فعلّة كل أمر هي الحكم.

ويُذيِّلُ الحق الآية الكريمة بقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

و ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم، من أول قوله سبحانه:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه:

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والتوصية تخصيص للتشريع؛ لأن التشريع يعم أحكامًا كثيرة جدًّا، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات: «إنها محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار».

و لم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا، ولذلك يقول اليهودي الذي أسلم وهو كعب الأحبار: «والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هي جامعة لكل شيء؛ نجد تسع وصايا قد

مرت؛ خمسا منها قال فيها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وأربعًا قال فيها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، والعاشرة يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هي الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنها قوله الحق:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أي: أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا.

وقلت: إننا نلاحظ أن الخمس الأُوَل ذَيَّلَها الحق بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والأربع التي بعدها ذيلها الحق بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والواحدة الجامعة لكل شيء قال تذييلاً لها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التي قال الحق فيها:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذه الأشياء كانت موجودة في بيئة نزول القرآن، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقّون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، فأوضح لهم: تعقّلوها، فإذا ما تَعَقَّلْتُموها تجدون أن تكليف الله يمنعكم من هذه الأفعال، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذي يبحث الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة، لكن (الأربع) الأخرى، هم كانوا

لونها ويتفاخرون بها.

ففي التي كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء في الكيل يزان والعدل في القول والوفاء بالعهد قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: كم أن تغفلوها؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية؛ فافعلوها من باب أولى نم على إسلامية. ثم جاء بالوصية الجامعة:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن بيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ونظرًا لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابًا وسلبًا، نهيًا وأمرًا، ضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم: لتقوا أنفسكم آثار ات القهر من الحق سبحانه وتعالى: وأول جنودها النار.

و«الصراط»: هو الطريق المعبّد، ويأخذون منه صراط الآخرة، وهو - كما ل - «أدق من الشعرة، وأحد من السيف»، ما معنى هذا الكلام؟. معناه أن شي عليه بيقظة تامة واعتدال؛ لأنه لو راح يمنة يهوي في النار، ولو راح يسرة قط فيها، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقًا واسعًا، بل -كما قلنا - ق من الشعرة، وأحد من السيف»، فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً، تنحرف يمنة أو يسرة؛ لأن الميل - كما قلنا - يبعدك عن الغاية، إنك إذا ت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل، ي انحراف قليل في نقطة البداية يؤدي إلى زيادة الهوة والمسافة.

كذلك الدين، كلما نلتقي فيه ويقرب بعضنا من بعض، نسير في الطريق ستقيم، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ورسول الله ﷺ ؛ جلّى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية، حينم جلس بين أصحابه وخطّ خطًّا. وقال: « **هذا سبيل الله** ».

ثم خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره، ثم قال: « **هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان؛ يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية:** ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ ».

ولذلك فكل أهل الحق، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل نقط واحدة.

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه في دينه، منسوبًا إل رسوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾، فالرسول يسير على هذا الصِّراط وه لا يغش نفسه، والذي يفعله ويمشي فيه يأمركم بأن تمشوا فيه، وهو لم يأمرك أمرًا وهو بنجوة وبُعْد عنه، ولو غشكم جميعًا لا يغش نفسه، وهذا هو صراط الذي يسير فيه.

والسبيل هنا معروف أنه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد ﷺ ، ونسب الفعل والحدث له وحده؛ ففي البداية قال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾، ث قال: ﴿ سَبِيلِهِۦۚ ﴾ فالصراط لم يعمله محمدٌ لنفسه، ولكن أراده الله للمؤمنير جميعًا، ورسول الله هو الذي يأخذ بأيديهم إليه.

وحين ننظر إلى كل الخلافات التي تأتي بين الديانات بعضها مع بعض، بير اليهودية والنصرانية على سبيل المثال:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَ

هُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

والمشركون قالوا: لا هؤلاء على شيء، ولا هؤلاء على شيء: ﴿كَذَٰلِكَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣].

أي أننا أمام ثلاثة أقوال: اليهود قالوا: ليست النصارى على شيء،
صارى قالوا: ليست اليهود على شيء، وقال الذين لا يعلمون - وهم أهل
ة - : مثل قولهم، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة،
ل طائفة لها شيء تتعصب له، وترى أن الذي تقول به هو الحق، والذي
ل به غيرها هو الباطل، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد، والتنزيلات
ية على الرسل واحدة؟! إن آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية، وكل
ان يريد أن تكون له مكانة ونفوذ وخلافة. وهذا يريد أن يتزعم فريقًا، وذاك
أن يتزعم فريقًا، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء.

ونجده ﷺ يقول: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى
اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[1].

وفي رواية: «**كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة**»، والجماعة: هم أهل
نة والجماعة.

وفي رواية: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

ونلاحظ دقة هذا القول في عدد المذاهب والفرق، وإن كنتم لا تسمعون
بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها، والذين كانوا يريدون أن
شوا في جلالها.

إذن الآفة تأتي حين ننظر إلى حكم من الأحكام، يرى فيه واحد رأيا، ويأتي

صحيح أخرجه أبو داود وغيره.

الآخر فيرى فيه رأيا آخر، لا لشيء إلا للاختلاف.

ونقول لهم: انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحْكَم. وحكم تركه الله مناطً للاجتهاد فيه، فالحكم الذي أراده الله محكمًا جاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف، وهذا النص يَحسم كل خلاف. والحكم الذي يحبه الله من المكلفين تخفيفًا عنهم على وجه من الوجوه يأتي بالنص فيه محتملاً للاجتهاد، ومجيء النص من المشرع في حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه؛ لأنه لو أراده حُكما لا نختلف فيه لجاء به محكمًا.

والمثال المستمر ما تركه لنا رسول الله ﷺ في سنته الشريفة، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بني قريظة، وهم من شايعو مشركي مكة في الحرب. فقال ﷺ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أحد العصرَ إلا في بني قريظة**»[1].

فذهب الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة، وآذنت الشمس بالمغيب وهم في الطريق فانقسم صحابة رسول الله ﷺ إلى قسمين: قسم قال: نصلي العصر قبل أن تغيب الشمس، وقال قسم آخر: قال رسول الله لا نصلين العصر إلا في بني قريظة. فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ﷺ، فأقر هذا، وأقر هذا، لأن النص محتمل، لماذا؟

لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفًا له زمان ومكان؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلي العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان والذين قالوا: لا نصلي إلا في بني قريظة نظروا إلى المكان. وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلم أقرّ هؤلاء وأقر هؤلاء.

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

إذن: فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه. وإن كان الله قد تركه موضعًا للاجتهاد فيه فهو يأتي لنا بالنص غير المحكم. ومن ذهب إليه لا يصح أن نخطِّئه، ولذلك بقي لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض. نجد الواحد منهم يقول: الذي ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ، والذي ذهب إليه مقابلي خطأ يحتمل الصواب، وجميل أدبهم هو الذي أبقى مذاهبهم إلى الآن، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفي ولا تدرون بها، والحمد لله أنكم لا تدرون بها.ا.هـ.

وفي سورة «الأعراف» قال الحق سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«والحق سبحانه قد بدأ الآية بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي للحصر. أي: ما حرم ربي إلا هذه الأشياء، الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والشرك بالله، والقول على الله ما لا نعلم. فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حرامًا؛ لأنها لا تدخل في هذه.

وقول الله في الآية السابقة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. هو على صيغة استفهام لكي يجيبوا هم. ولن يجدوا سببًا لتحريم زينة الله. لأن الحق قد وضح وبيَّن ما حرم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

ونتأمل الخمسة المحرمات التي جاءت بالآية؛ فحين ننظر إلى مقومات حيا الخلافة في الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابُدَّ من صيانة أشيا ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها، وأول شيء أن يسلم للمجتمع طه أنسابه، وسلامة طهر الأنساب أي الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع؛ لأ الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه، ويرعا ويربيه. أما إذا تشكك في هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه، كذلك يهمله المجتمع ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به.

إذن: فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعًا سليمًا، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث مر أن شكًّا طرأ على الأب في أن هذا ليس ابنه؛ ولذلك ماتت فيه غريزة الحنا عليه، فلا يبالي إن رآه أم لم يره، ولا يبالي أهو في البيت أم شرد، لا يبالي أكل أم جاع، لا يبالي تعرى أم لا.

إذن: فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع؛ لأن المجتمع سيكون بين مرب يقوم على شأن وصغير مربَّى، المربى قادر على أن يعمل، والمربَّى صغير يحتا إلى التربية؛ ولذلك حرم الله الفواحش، والفحش - كما قلنا - ما زاد قبحه وانتهوا على أنه هو الزنا؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع. بل يتعدى إلى الأنسال. وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع، ويصير مجتمعً مهملاً لا راعي له.

والإثم: أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد؟ لقد انتهى العلماء على أ الإثم: هو الخمر والميسر؛ لأن الله قال بالنص:

﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة في الإنسان وهو العقل ن الخمر تغيب العقل، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة اجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحًا ولا تتعدى على الإنسان. ا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة. لذين يأتون ويشربون ويقولون: نريد أن ننسى همومنا نقول لهم: ليس مراد مارع أن ينسى كل واحد ما أهمه؛ لأنه إن نسى كل واحد ما أهمه فلن يحتاط د ولن يقوم على تقدير الأمور التي تضمن السلامة.

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التي تعاني منها بعقل مضاعف يلها. أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة. إذن: يجب عليك أن جه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك. فإن كانت المشكلة قد نشأت من ك أهملت في واجب سببي. أي: له أسباب وقد قصرت في الأخذ بها فأنت وم. وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس في قدرتك. أي: هبطت عليك ماء وقدرًا، فاعلم أن مجريها عليك له فيها حكمة.

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها، لأن كل ، نعمة محسود، وحتى لا تتم النعمة عليك؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن الها، وأنت ابن الأغيار وفي دنيا الأغيار، وإن تمت النعمة لك فقد تتغير النعمة نقصان.

إذن: فالتفكير في ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتي بالعقل الكامل، تفكير في الأشياء التي ليس لها سبب يأتي من الإيمان، والإيمان يطلب منك أن : كل شيء إلى حكمة الحكيم. إذن: فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب

الخمر؛ لأن العقل يدير حركة الحياة.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ نعرف أنه مجاوزة الْحَدّ ظُلْمًا أَوْ كِبْرًا، أو بخلاً، والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد في العمل؛ لذلك يحرّم الحق أن يبغي أحد على أحد، لا في عِرضه، ولا في نفسه، ولا في ماله، ويجب أن نصون العرض من الفواحش؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام، وإن لم تأت فهي تهدر العرض، والمطلوب صيانته، كذلك لا يبغي أحدٌ على محارم أحد، وكذلك لا يبغي أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل.

ويصون الحق المال فيمنع عنه البغي فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدوانًا وظلمًا، ومظاهر البغي كثيرة. ومن البغي أن تأخذ سلطة قسرًا بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسرًا وقهرًا بحق، فإن كنت - على سبيل المثال - تركب سفينة، ثم قامت الرياح والزوابع، وأنت أمهر في قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها، إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس، وهذا بغي بحق، وهو يختلف عن البغي بغير الحق.

وحتى نفرق بين البغي بحق والبغي بغير الحق نقول: إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له، فنكون قد أخذنا حقًا من صاحبه رعاية لهذا الحق، فهو وإن كان في ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغي بحق أو أنه سمي بغيًا؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلمًا، ويسمى هذا في علم البلاغة مشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير، ونقرأ أيضًا قول الله:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

فهل جزاء السيئة يكون سيئة؟ لا. وإنما هي سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه؛ لأنه لما عمل سيئة واختلس مالا - مثلاً - وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦].

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه، وأن يتوقع أن يناله بغي ممن هو أكثر قدرة منه، وينبهنا الحق إلى العمل الذي لا غفران له: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾. ومحال أن ينزل الحق الذي نعبده شريكًا له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة على أنه شريك له - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفي هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية.

وإذا كان الحق قد قال لنا في هذه الآية:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]. فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء، وفي إطار إيجازي ومع المقابل أيضًا، يقول الحق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

لقد جاء بالفحشاء في هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال، وجاء أيضًا بتحريم المنكر والبغي، وزاد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط.

وكأن الإثم في آية الأمر بالعدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر

والبغي، مطمور في المنكر، والمنكر ليس محرمًا بالشرع فقط، بل هو ما ينكره الطبع السليم، وأيضًا فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصي تعود عليه بالضرر. هنا يقول: أعوذ بالله منها. وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر.

وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة، لكنه ساعة يرى إنسانًا آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلاً إنه يرى في ذلك أبشع المنكرات؛ لذلك لابُدَّ أن تجعل للمنكر حدًّا يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذي تكلف به أنت وحدك، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون. وإياك أن تقود: إنه حدد بصري من أن يتمتع بجسم يسير أمامي، إنه - سبحانه - كما حرم نظرك إلى ذلك، حرم أنظار الناس جميعًا أن ينظروا إلى محارمك، وفي هذا صيانة لك.



[٣] انتبهي: النظر بريد الزنا

النظرة: سهم مسموم من سهام إبليس. وهي كما قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: «الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته».ا.هـ. ولذا أمر الله تعالى بغض الأبصار.

قال سبحانه:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ومسألة غض البصر التي يأمرنا بها ربنا ﷻ في هذه الآية هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة، ويسد الطريق دونها؛ لذلك قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

وقلنا إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة، وكل جهاز إدراك له مناط: فالأذان تسمع الصوت، والأنف يشم الرائحة، واللسان للكلام، وللذوق المطعومات، والعين لرؤية المرئيات، لكن أفتن شيء يصيبُ الإنسان من ناحية الجنس هي حاسة البصر؛ لذلك وضع الشارع الحكيم المناعة اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر، فأمر المؤمنين بغض أبصارهم، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة، وهكذا جعل المناعة في كلا الطرفين.

وحين تتأمل مسألة غض البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات:

الأولى: أن يغض هو بصره ولا تبدي هي زينتها، فخط الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل.

الثانية: أن يغض هو بصره وأن تبدي هي زينتها.

الثالثة: أن ينظر هو ولا تبدي هي زينتها. وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدم الآخر؛ إنما الخطر في القسمة الرابعة.

الرابعة: وهي أن ينظر هو ولا يغض بصره، وأن تتزين هي وتُبدي زينتها، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر.

إذن: فالحق تبارك وتعالى حرَّم حالة واحدة من أربع حالات؛ ذلك لأن المحرمات هي الأقل دائمًا، وهذا من رحمة الله بنا، بدليل قوله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فالمحرمات هي المحصورة المعدودة، أما المحللات فهي فوق الحصر والعد، فالأصل في الأشياء أنها حلال، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شيء نص عليه، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك ﷻ

وكما أمر الرجل بغض بصره، كذلك أُمِرَتْ المرأة بغض بصرها، لأن اللفتة قد تكون أيضًا للرجل ذي الوسامة و. و.فإن كان حظ المرأة في رجل تتقحمه العين، فلربما نظرت إلى غيرها، فكما يُقال في الرجال يُقال في النساء.

هذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها الله ﷻ وألزمنا بها إنما هي لمنع هذه الجريمة البشعة التي بُدِئَتْ بها هذه السورة؛ لأن النظر أول وسائل الزنا، وهو البريد لما بعده، ألا ترى شوقي رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغَزَل يقول:

نَظْـــرَةٌ فابتسَـــامَةٌ فسَـــلامٌ   فكَـــلامٌ فموعـــدٌ فَلقَـــاءٌ

فالأمر بغض البصر ليسدَّ منافذ فساد الأعراض، ومنع أسباب تلوث النسل؛ ليأتي الخليفة لله في الأرض طاهرًا في مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد، بأن له نسبًا وشرفًا والآخر لا نسب له.

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن من يليه في الخلافة من أبناء أو أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعي شريف، فيجتهد كل إنسان في أن ينشئ أطفاله تنشئة فيها شفقة، فيها حنان ورحمة؛ لأنه واثق أنه ولده، ليس مدسوسًا عليه، وأغلب الظن أن الذين يُهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون في نسبهم إليهم.

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضمنت له الصيانة الكافية، لئلا تشرد منه غرائز الجنس، فيعتدي كل نظر على ما لا يحل له؛ لأن النظر بريد إلى القلوب، والقلوب بريد إلى الجنس، فلا يعف الفرج إلا بعفاف النظر.

ونلحظ في قوله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

دقة بلاغ الرسول عن ربه ﷻ وأمانته في نقل العبارة كما أُنزلت عليه، ففي هذه الآية كان يكفي أن يقول رسول الله ﷺ: غُضُّوا أبصَاركم، لكنه التزم بنص ما أُنزل عليه؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط، وإنما القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله والذي يُتعبد بتلاوته، فلابد أن يبلغه الرسول كما جاءه من ربه.

لذلك قال في البلاغ عن الله ﴿قُل﴾ وفي الفعل ﴿يَغُضُّوا﴾ دلالة على ملحظية ﴿قُل﴾، فالفعل ﴿يَغُضُّوا﴾ مضارع لم تسبقه أداة جزم، ومع ذلك حذفت منه النون، ذلك لأنه جعل ﴿قُل﴾ ملحظية في الأسلوب.

والمعنى: إن تقُل لهم غُضُّوا أبصاركم يغضُّوا ، فالفعل إذن مجزوم في جواب

الأمر ﴿ قُل ﴾.

إذن ﴿ قُل ﴾ تدل على أمانة الرسول في البلاغ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب، إنما هو أيضًا كلام الله المعجز؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه، وكأن رسول الله ﷺ يقول: ما أتيت لكم بشيء من عندي، ومهمتي أن أبلغكم ما قاله الله لي.

وقوله: ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فما داموا مؤمنين بإله حكيم، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد، فلابد أن يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه.

والغَضُّ: النقصان، يقال: فلان يغُضُّ من قدر فلان يعني ينقصه، فكيف يكون النقصان في البصر؟ أينظر بعين واحدة؟ قالوا: البصر له مهمة، وبه تتجلى المرائي، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحرمًا عليها.

فنقص البصر يعني: قصره على ما أحل، وكفه عما حرم، فالنقص نقص في المرائي وفي مجال البصر، فلا تعطي له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شيء، إنما توقفه عند أوامر الله فيما يُرى وفيما لا يُرى.

و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول: من هذا الطعام، يعني: بعضًا منه، فالمعنى: يغضوا بعض البصر؛ لأن بعضه حلال، لا أغض عنه بصري، وبعضه محرم لا أنظر إليه.

أو: أن ﴿ مِنْ ﴾ هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله، وسبق أن تكلمنا عن ﴿ مِنْ ﴾ بهذا المعنى، ونحن كلما توغلنا في التفسير لابد أن تقابلنا أشياء ذكرناها سابقًا، ونحيل القارئ عليها.

قلنا: فرق بين قولك: ما عندي مال، وقولك: ما عندي من مال. ما عندي مال، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتَدّ به، لكن ما عندي من مال نفي لجنس المال مهما قَلّ، فَمِنْ تعني بداية ما يقال له مال.

فالمعنى هنا:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾

يعني: بداية ما يقال له بصر، ولو لمحة خاطفة، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر.

وقلنا: إن الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس، إنما يتدخل في الأعمال النزوعية التي يترتب عليها فعل، قلنا لو مررت ببستان فرأيت به وردة جميلة، فأعجبت بها وسُرِرْت وانبسطت لها أسارير نفسك، كل هذا مباح لك لا حرج عليك فيه، فإن تعدى الأمر ذلك فمددت إليها يدك لتقطفها، هنا يتدخل الشرع يقول لك: قِفْ، فليس هذا من حقك لأنها ليست لك.

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر وحده، وكأن ربنا ﷻ يستسمحنا فيه، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يخلّفه في النفس من عذابات ومواجيد.

ففي نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له: انظر كما تحب واعشق كما شئت، فإن نزعت إلى ضمة أو قبلة قلنا لك: حرام، لماذا؟ لأن الأمر هنا مختلف تمامًا، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبدًا.

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك، فإن أعجبتك وانبسطت لها أساريرك، فهذا وجدان، لابد أن يترك في تكوينك تفاعلاً كيماويا لا يهدأ، إلا بأن تنزع

فإن طاوعت نفسك في النزوع فقد اعتديت، وإن كبتَّ في داخلك هذه المشاعر أصابتك بعقد نفسية ودعتك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى منع الإدراك بغض البصر.

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغض البصر قال:

﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾

لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، وإن أمكن ذلك في الأمور الأخرى، فحين نمنعك عن قطف الوردة التي أعجبتك لا يترك هذا المنع في نفسك أثرًا ولا وجدًا، على خلاف ما يحدث إن منعت عن امرأة أعجبتك، وهيجك الوجدان إليها.

وحِفْظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحله الله وشرعه فلا أنيله لغير مُحلَّل له، سواء كان من الرجل أو من المرأة، أو: أحفظه وأصونه أن يُرى؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة.

﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ ﴾

يعني: أطهر وأسلم وأدعى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرمًا، ويلج في أعراض الناس، وإما ألا ينزع فيكدِّر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق.

ثم يقول سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾

فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف في الأرض، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة لزهد الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات.

ألا ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب في مرحلة الحمل، وأنها ترى الموت عند الولادة، حتى إنها لتقسم أنها لا تعود، لكن بعد أن ترى وليدها وتنسى آلامها سرعان ما يعاودها الحنين للإنجاب مرة أخرى، إنها الغريزة التي زرعها الله في النفس البشرية لدوام بقائها.

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز، خاصة غريزة الجنس، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز، وربطها بلذة أكثر أثرًا من لذة الطعام والشراب والشم والسماع .. إلــخ فهي لذة تستوعب كل جوارح الإنسان وملكاته. وما ذلك إلا حرصًا على بقاء النوع ودوامًا للخلافة في الأرض.

* * * *

[٤] احذري التبرج

اعلمي - أختي المسلمة - أن ستر العورة نعمة من نعم الله تعالى.

قال الحق سبحانه:

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية:

وكلمة ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضي أبيكم مع عدوكم المبين، إبليس، أنتم أولاد آدم، والشيطان موجود، فانتبهوا، لقد أنزل الحق عليكم لباسًا يواري سوءاتكم؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة، والإنزال يقتضي جهة علو لنفهم أن كل خير في الأرض يهبط مدده من السماء، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذي أنزل المطر، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التي غزلناها فصارت ملابس، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطًا من السماء.

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول:

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ ﴾ [الزمر: ٦].

نعم هو الذي أنزل من الأنعام أيضًا لأن السببية في النبات من مرحلة أولى، والسببية في الحيوان من مرحلة ثانية، فهو الذي جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان، ويقول سبحانه أيضًا:

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضًا؛ لأننا نأخذه من الأرض التي خلقها الله، وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله بها أن يحمي بها كل منهج.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذي يواري سوءات الحس وسوءات المادة، كذلك أنزلنا اللباس الذي يواري سوءات القيم. فكما أنكم تحسون وتدركون أن اللباس المادي يداري ويواري السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضًا أن اللباس الذي ينزله الله من القيم إنما يواري ويستر به سواءتكم المعنوية. ولباس الحياة المادية لم يقف عند مواراة السوءات فقط، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضًا. لذلك قال الحق:

﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والريش كساء الطير، وقديمًا كانوا يأخذون ريش الطير ليزينوا به الملابس، وكانوا يضعون الريش على التيجان، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا: فلان مريش أي: لا يملك مقومات الحياة فقط، بل عنده ترف الحياة أيضًا. فكأن هذا القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك في حل. وقبل أن يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال في الحياة، فقال سبحانه:

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ ﴾ [النحل: ٨].

والركوب لتجنب المشقة، والزينة من أجل الجمال. وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

بل سبحانه طلب زينتنا في اللقاء له في بيته فيقول:

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

إذن: فهذا أمر بالزينة، وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه:

﴿ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله؛ لأن اللباس المادي يستر العورة المادية، وقصاراه أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا، لكن لباس التقوى يواري عنا فضوح الآخرة.

أو لباس التقوى هو الذي تتقون به أهوال الحروب؛ إنّه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل، أو ذلك اللباس – لباس التقوى – خير من اللباس المادي وهو من آيات الله، أي: من عجائبه، وهو من الأشياء اللافتة؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية، وهناك أمور قيمية لا تنتظم الحياة إلا بها، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية، وزينة الحياة المادية، وأعطاك ما تحيا به في السلم والحرب، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا، فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس» ا.هـ.

* * * *

التبرج هدف من أهداف الشيطان

هذا، والتي تظهر من بدنها ما أمر الله بستره، إنما تستجيب لهدف من أهداف الشيطان.

قال الحق سبحانه:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان، من أبينا آدم وإغواءه له.

والفتنة في الأصل هي الاختبار، وتُطلق - أحيانا - على الأثر السيّئ حيث تكون أشد من القتل، لكن هل يسقط الإنسان في كل فتنة؟ لا؛ لأن الفتنة هي الاختبار، وفي الاختبار إما أن ينجح الإنسان، وإما أن يرسب، فإن نجح أعطته الفتنة خيرًا وإن رسب تعطه شرًّا.

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة في الأرض، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة في الأرض فلله منهج يحكمه في كل حركاته، ومادام له منهج يحكمه في كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداء ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعي على المنهج، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف في الأرض، وحذره من الشيطان الذي أبى أن يسجد له، وأراد منه أن يأخذ التجربة في التكليف.

وكل تكليف محصور في (افعل كذا) و(لا تفعل كذا)؛ لذلك شاء الله أن يجعل له في الجنة فترة تدريب على المهمة، لينزل إلى الأرض مباشرًا مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية، وأوضح له: أن كلْ من كلِّ ما في الجنة، ولكن لا تقرب هذه الشجرة. و﴿وَكُلَا﴾ أمر، ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ نهي. وكل تكليف شرعي هو بين (لا تفعل) وبين (افعل).

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذي يضع ويجعل له العقبات في تنفيذ منهج الله، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها؛ خالفَا أمر الله في ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾. وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابُدَّ أن ينشأ عنها عورة تظهر في الحياة، فبدت له ولزوجته سوءاتهما، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع، فأمره الله: أن اهبط إلى الأرض مزودًا بهذه التجربة.

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾. وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ، وتدركه الغفلة، وقد يخالف منهج الله في شيء، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًّا، جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى في تبليغ الرسالة.

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآني:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١].

إن هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة. ولابد أن نفطن أيضًا إلى قوله الحق: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢].

إذن: فالاصطفاء جاء بعد المعصية؛ لأن عصيانه كان أمرًا طبيعيًّا لأنه بشر، يخطئ ويصيب، ويسهو ويغفل، ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًا ورسولاً، ومادام قد صار نبيًّا ورسولاً فالعصمة تأتي له.

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢].

إذن: لا يصح لنا أن نقول: كيف يعصى آدم وهو نبي؟! نقول: تنبه إلى أن النبوة لم تأته إلا بعد أن عصى وتاب؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها، والبشرية منقسمة إلى قسمين: بشر مبلغون عن الله، وأنبياء يبلغون عن الله، فله في البشرية أنه عصى، وله في النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه. والذين يقولون: إن آدم كان مخلوقًا للجنة، نقول لهم: لا. افهموا عن الله، لأنه يقول: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض. إنها كانت تدريبًا على المهمة التي سيقوم بها في الأرض، وإلا فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته، إلا أن الله قد قبل منه توبته، ومادام قد قبل توبته فكان يجب أن يبقيه في الجنة، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض. وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لآدم حتى نتعظ بها، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا، وألا نقع في الفتنة كما وقع آدم.

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذا نهي لبني آدم وليس نهيًا للشيطان، وهذا في مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته، بل ينهاه عما في

مكنته، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان؛ لأن أمره مع أبيكم واضح، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة، ويتساءل البعض: لماذا لم يقل الله: لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم، وقال: ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾؟

ونقول: هذا هو السمو والافتنان الراقي في الأداء البياني القرآن، وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف، كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة.

ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك، وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر قصد الاختصار. وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى بمنتهى الإيجاز، لينبه ذهن السامع لكلام الله. فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء، وعدم الفضول في الأساليب.

﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢].

والفتنة - كما علمنا - هي في الأصل الاختبار حتى ننقى الشيء من الشوائب التي تختلط به، فإذا كانت الشوائب في ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصًا نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به. كذلك الفتنة بالنسبة للناس، إنها تأتي اختبارًا للإنسان لينقي نفسه من شوائب هذه المسألة، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء. فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن ألحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء. والشيطان هو المتمرد على منهج الله

من الجن، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر. فقد قال الحق سبحانه:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الجن: ١١].

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحدًا، واقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ [الكهف: ٥٠].

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

و﴿ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ هم جنوده وذريته الذين ينشرهم في الكون ليحقق قَسَمَه:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص: ٨٢].

إذن: ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله، وحينما عصى إبليس ربه عز عليه ذلك، فبعد أن كان في قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدته وأوصلته إلى الكفر؛ لأنه ردّ الحكم على الله. إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه، وجعله يوغل ويسرف في عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته.

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾.

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفي بنفسه ولن يكتفي بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شياطين الجن، وهم من قال فيهم سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وكلمة ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾. تعني الاستمالة التي تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها، ويتأثر بزخارف القول. وكل معصية في الكون هكذا تبدأ من زخرف القول، فللباطل دعاته، ومروجوه، ومعلنوه، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التي تصرفه عن منهج الله، ونلاحظ أن أعداء الله، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان في البشر، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركًا هبة إيمان في نفوس الناس، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا غرضهم في العداوة للإسلام ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله. والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة. واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم؛ فقال قوم: إنهم جنوده وذريته. ويقصدون جنوده من البشر، و لم يلتفتوا إلى قول الحق: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. فلابد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية؛ لأننا نرى البشر، وفي قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه؛ لأن العدو الذي تراه تستطيع أن تدفع ضرره، ولكن العدو الذي يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيده أشد، والجن يرانا ولا نراه، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف، وهم مخلوقون من نار وهي شفيفة.

فالشفيف يستطيع أن يؤثر في الكثيف، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر في الشفيف ولا ينفذ منه. إذن:

فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان، ولذلك أخذ خفة حركته. ونحن لا نراه.

إذن: معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى، ولكن إذا كان ثبت في الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رئى وهو من نار، والملائكة من نور، والاثنان كل منهما جنس خفي مستور، وقد تشكل الملك بهيئة إنسان، وجاء لرسول الله وقال لنا ﷺ: «**هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم**»(١).

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله ﷺ جبريل لا على صورة ملائكيته، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر، فيتمثل لهم مادة.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ رأى الشيطان وقال: «**إن عفريتًا من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة، وإن الله أمكنني منه فَذَعَتُّهُ فلقد هممتُ أن أربطه إلى جَنْب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون**»(٢).

وذلك من أدب النبوة. إذن: فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته، فإذا ما أرادك أن تراه، فهو يظهر على صورة مادية. وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشًا يدل على حرصهم على فهم كتاب الله، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره. فقال بعضهم: حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، لأبُدَّ أن نقول: إننا لن نراه.

وأقول: إن الإنسان إن رأى الجني فلن يراه على صورته، بل على صورة مادية يتشكل بها، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان؛ لأن الجني لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد. ومعنى فذعته أي: خنقته.

وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه، هل هو الشيء الذي نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضروري لحركة الحياة، وحركة المجتمع؛ لأنك لا تعطف على ابنك إلا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك، ولا تثق في صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك. ولا تأخذ علمًا إلا من عالم تثق به. وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه، وهنا سيشكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذي يتمثل في صورته. وأيضا أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء، فما الذي يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق في علمه، ثم يقول كلامًا مناقضًا لمنهج الله؟

إذن: فالشيطان لا يتمثل، هكذا قال بعض العلماء، ونقول لهم: أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل، يتمثل تمثلاً استمراريًّا، لا. هو يتمثل تمثل الومضة؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التي انتقل إليها، وإذا حكمته الصورة التي انتقل إليها فقد يقتله من يملك سلاحًا، إنه يخاف منا أكثر مما نخاف منه، ويخاف أن يظهر ظهورًا استمراريًّا؛ لذلك يختار التمثل كومضة، ثم يختفي، والإنسان إذا تأمل الجني المشكل، سيجد فيه شيئًا مخالفًا، كأن يتمثل - مثلاً - في هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفي؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التي يتشكل بها تحكمه، وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه.

ويتابع الحق سبحانه:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

والشياطين من جعل الله، وسبحانه خلى بينهم وبين الذين يريدون أن

يفتنوهم وإلا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم. لفعل.

إذن: فكل شيء في الوجود، أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين: طاقة تفعل الفعل، وداعٍ لفعل الفعل. فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل، والداعي إلى الفعل، فإبراز الفعل في الصورة النهائية نستمدها من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان. فأنت تقول: العامل النساج نسج قطعة من القماش في غاية الدقة، ونقول: إن العامل لم ينسج، وإنما نسجت الآلة، والآلة لم تنسج، لكن الصانع الذي صنعها أرادها كذلك، والصانع لم يصممها إلا بالعالم الذي ابتكر قانون الحركة بها.

إذن: فالعامل قد وجه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل، واعتمد على طاقة المهندس الذي صنعها في المصنع، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذي ابتكر قانون الحركة، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله، وفي مادة خلقها الله.

إذن: فكل شيء يعود إلى الله فعلاً؛ لأنه خالق الطاقة، وخالق من يستعمل الطاقة، والإنسان يوجه الطاقة فقط، فإذا قلت: العامل نسج يصح قولك، وإذا قلت: الآلة نسجت، صح قولك، وإذا قلت: إن المصنع هو الذي نسج صح قولك. إذن: فالمسألة كلها مردها في الفعل إلى الله. وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله في فعل أمر من الأمور. فإذا قال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾. أي: خلّينا بينهم وبين المفتونين بهم، غير أننا لو أردنا ألا يفتنوا أحدًا لما فتنوه. وهذا ما فهمه إبليس.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

إذن: من يريده الله معصومًا لا يستطيع الشيطان أن يغويه، وتعلم الشياطين

أن الله خلَّى بينهم في الاختيار، وهذه اسمها تخلية؛ ولذلك لا معركة بين العلماء. فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله، ونسب كل فعل إلى الله، ومنهم من رأى أن موجِّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله في أنه الفاعل لكل شيء، ومنهم من قال: إن الإنسان هو الذي فعل المعصية. أي: أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولا خلاف بينهم جميعًا.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إذن: جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن، ولكن الذي آمن لا يتخذه الشيطان وليًّا». ا.هـ.



وجوب الحجاب

ولما كان التبرج قرة عين للشيطان، ودعوة إلى الزنا، أوجب الإسلام الحجاب على النساء.

قال الحق سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

والزينة: هي الأمر الزائد عن الحد في الفطرية، لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين: غانية[١] يعني: غنيت بجمالها عن التزيُّن فلا تحتاج إلى كحل في عينيها، ولا أحمر في خدَّيها، لا تحتاج أن تستر قُلْبها[٢] بأسورة، ولا صدرها بعقد.. إلـــخ.

فإنْ كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجت لشيء من الزينة، لكن العجيب أنهن يُبالِغْنَ في هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبي مَائل،

---

(١) الغانية: الجارية الحسناء، سُمّيت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة.
(٢) القُلْب: سوار المرأة. والقُلْب من الأسورة: ما كان قلدًا واحدًا.

فترى مُسنَّات يضعْنَ هذه الألوان وهذه المساحيق، فيَظْهَرن في صورة لا تليقَ، لأنه جمال مُصْطَنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية، وفيها قال المتنبي، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية:

حُسْن الحِضارة مَجْلوبٌ بتطْرِيَةٍ وفِي البَداوة حُسْنٌ غير مَجْلُوب[(١)]

ومن رحمة الله بالنساء أن قال بعد:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾.

قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

يعني: الأشياء الضرورية، فالمرأة تحتاج لأنْ تمشي في الشارع، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء، فلا مانع أن تُظهر مثل هذه الزينة الضرورية.

لكن لا يظهر منها القُرْط مثلاً، لأن الخمار يستره ولا «الديكولتيه» أو العقد أو الأسورة أو الدُّمْلُك ولا الخلخال، فهذه زينة لا ينبغي أن تظهر.

إذن: فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطةَ أن تكون في حدود، وأن تقصر على مَنْ جُعِلَتْ من أجله.

ونلحظ في قوله تعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

المراد تغطية الزينة، فالجارحة التي تحتها من باب أولْىَ، فالزينة تُغطيِّ الجارحة، وقد أمر الله بسَتْر الزينة، فالجارحة من باب أولْىَ.

وقوله تعالى:

---

(١) الحضارة: الإقامة في الحضر.

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾.

الخُمر: جمع خِمَار، وهو غطاء الرأس الذي يُسْدل ليستر الرقبة والصدر. الجيوب: جمع جيب، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها «القَبَّة» والمراد أن يستر الخمارُ فتحةَ الثوب ومنطقة الصدر، فلا يظهر منها شيء.

والعجيب أن النساء تركْنَ هذا الواجب، بل ومن المفارقات أنهن يلبسْنَ القلادة ويُعلِّقن بها المصحف الشريف، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعي وعدم الدراية بشرع الله مُنزل هذا المصحف.

وتأمل دقة التعبير القرآني في قوله تعالى:

﴿ وَلْيَضْرِبْن ﴾.

والضرب هو: الوَقْع بشدة، فليس المراد أن تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء، إنما عليها أن تُحكِمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام. لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة: «رحم الله نساء المهاجرات، لما نزلت الآية لم يكُنْ عندهم خُمر، فعمدْن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخُمُر»[1]. إذن: راعَى الشارع الحكيم زيَّ المرأة من أعلى، فقال:

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾.

ومن الأدنى فقال:

﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩].

ثم يقول تعالى:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٧٥٨-٤٧٥٩)، من حديث عائشة – رضي الله عنها –.
والمروط: جمع مِرْط: وهو كساء يؤتزر به، وتتلفع به المرأة.

أي: أزواجهن، لأن الزينة جُعلَتْ من أجلهم.

﴿أَوْ ءَابَآبِهِنَّ أَوْ ءَابَـآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾.

أبو الزوج، إلا أنْ يخاف منه الفتنة، فلا تبدي الزوجة زينتها أمامه.

ومعنى: ﴿أَوْ نِسَآبِهِنَّ ﴾.

أي: النساء اللائي يعملْنَ معها في البيت كالوصيفات والخادمات..

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾.

والمراد هنا أيضًا ملْك اليمين من النساء دون الرجال.

ويشترط في هؤلاء النساء أن يكُنَّ مسلمات، فإنْ كُنَّ كافرات كهؤلاء الذين يستقدمونهن من دول أخرى، فلا يجوز للمرأة أن تُبدي زينتها أمامهن، وأن تعتبرهن في هذه المسألة كالرجال، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة، وربما ذهبت فوصفتْ ما رأتْ من سيدها للرجل الكافر فينشغل بها.

ومن العلماء مَنْ يرى أن ملْك اليمين لا يخصُّ النساء فقط، إنما الرجال أيضًا، فللمرأة أنْ تُبدي زينتها أمامهم، قالوا: لأن هناك استقبالاً عاطفيًّا وامتناعًا عاطفيًّا في النفس البشرية، فالخادم في القَصْر لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها، لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة، إلا إذا شجَّعْنَهُ، وفتحْنَ له الباب، وهذه مسألة أخرى.

وقوله تعالى:

﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾.

أي: التابعين للبيت، والذين يعيشون على فضلاته، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه، فليس عنده بيت يأويه، لذلك ينام في أيِّ مكان، وليس عنده طعام، لذلك يُطعمه الناس وهكذا، فهو ضائع لا هدفَ له ولا استقلاليةَ لحياته، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَق وينامون ولو على الأرصفة.

مثل «الأهبل» أو المعتوه الذي يعطف الناس عليه، وليس له مطمع في النساء، ولا يفهم هذه المسألة، فلا يُخاف منه على النساء، لأنه لا حاجة له فيهن، ولا يتسامى لأنْ ينظر إلى أهل البيت.

ومعنى: ﴿غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ .

يعني: كأن يكون كبير السِّنِّ واهن القوى، لا قدرةَ له على هذه المسائل، أو يكون مجبوبًا[1]، مقطوع المتاع، ولا خطَر من مثل هؤلاء على النساء.

وقوله تعالى:

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ .

نلحظ هنا أن الطفل مفرد، لكن وُصِف بالجمع:

﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ .

لماذا؟ قالوا: هذه سِمَة من سمات اللغة، وهي الدِّقة في التعبير، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع.

كما نقول: هذا قاضٍ عَدْلٌ، وهذان قاضيان عَدْل، وهؤلاء قضاة عَدْل، و لم نقل: عدلان وعدول، فإذا وحِّد الوصف في الجميع بدون هوى كان الوصف كالشيء الواحد، فالقاضي لا يحكم بمزاجه وهواه، والآخر بمزاجه وهواه، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد.

إذن: فالعدل واحد لا يُقَال بالتشكيك، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به، العَدْل واحد.

كذلك الحال في ﴿ٱلطِّفْلِ﴾ مع أن المراد الأطفال، لكن قال ﴿ٱلطِّفْلِ﴾ لأن غرائزه مشتركة مع الكل، وليس له هَوىً، فكل الأطفال- إذن- كأنهم طفل

---

(١) الجَبّ: القَطْع. والمجبوب: الخصيُّ الذي قد استؤصل ذَكَرُه وخُصْياه. فهو مقطوع الذَّكَر.

واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فِكْره الخاص به، الجميع يحب اللهو واللعب، ولا شيء وراء ذلك، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز وفي الميول.

بدليل أنه إذا كَبِر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوَّن لديهم هَوىً وفكْر ومَيْل يقول القرآن عنهم:

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ [النور:٥٩].

فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحُّد في مرحلة الطفولة المبكرة. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات:٢٤].

فوصف ضيف وهي مفرد بالجمع «مكرمين»، ذلك لأن ضَيْف تدل أيضًا على الجمع، فالضيف من انضاف على البيت، وله حق والتزامات لابد أن يقدمها المضيف، مما يزيد على حاجة البيت، والضيف في هذه الالتزامات واحد، سواء كان مفردًا أو جماعة، لذلك دّلَّ بالمفرد على الجمع.

وقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

يظهر على كذا: لها معنيان في اللغة: **الأول**: بمعنى يعلم كما في قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ [الكهف:٢٠].

يعني: إن عَلِموا بكم وعرفوا مكانكم.

والثاني: بمعنى يعلو ويغلب ويقهر، كما في قوله تعالى:

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف:٩٧].

أي: السد الذي بناه ذو القرنين، فالمعنى: ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه.

وهنا: ﴿ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ ﴾.

يعني: يعرفونها ويستبينونها، أو يقدرون على مطلوباتها، فليس لهم عِلْم أو دراية بهذه المسائل.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ ﴾.

الحق- تبارك وتعالى- يكشف ألاعيب النساء وحِيلَهنّ في جَذْب الأنظار، فإذا لم يلفتْك إليها النظر لفتَك الصوت الذي تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك: يا بجم اسمع، يا للي ما نتاش شايف اسمع، وفي الماضي كُنَّ يلبَسْنَ الخلخال الذي يُحدِث صوتًا أثناء المشي، والآن يجعلْنَ في أسفل الحذاء ما يُحدِث مثل هذا الصوت أثناء المشي، وأول مَنِ استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار. ومعلوم أن طريقة مَشْي المرأة تُبدِي الكثير من زينتها التي لا يراها الناس، وتُسبِّب كثيرًا من الفتنة، لذلك يقول تعالى بعدها وفي ختام هذه المسائل:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

لم يَقُل الحق تبارك وتعالى: يا مَنْ أذنبتم بهذه الذنوب التي سبق الحديث عنها، إنما قال ﴿ جَمِيعًا ﴾ فحثَّ الجميع على التوبة، ليدل على أن كل ابن آدم خطاء، ومهما كان المسلم مُتمسِّكًا ملتزمًا فلا يأمن أنْ تفوته هفوة هنا أو هناك، والله- ﷻ- الخالق والأعلم بمَنْ خلق، لذلك فتح لهم باب التوبة وحَثَّهم عليها، وقال لهم: ما عليكم إلا أنْ تتوبوا، وعليَّ أنا الباقي.

❁ ❁ ❁ ❁

[٥] احذري قذف المحصنات

اعلمي - أختي المسلمة - أن حرمة المسلم أعظم عند الله تعالى من حرمة الكعبة.

نظر ابن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وما أعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»(١).

وها هو الحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٣ - ٢٥].

قال الإمام **الشعراوي** — رحمه الله تعالى — في تفسيره لهذه الآيات:

المحصنة: لها إطلاقات ثلاثة، فهي المتزوجة؛ لأن الإحصان: الحفظ وكأنها حفظت نفسها بالزواج، أو هي العفيفة، وإن لم تتزوج فهي محصنة في ذاتها، والمحصنة هي أيضًا الحرة؛ لأن عملية البغاء والزنا كانت خاصة بالإماء.

و ﴿ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ﴾: جمع غافلة، وهي التي لا تدري بمثل هذه المسائل، وليس في بالها شيء عن هذه العملية، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريدة خادمة السيدة عائشة: «**ما تقولين في عائشة يا بريرة؟**».

فقالت: تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتي الدواجن فتأكله وهي لا تدري(٢).

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذي وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٥).
(٢) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخاري في «صحيحه» (٥/٢٦٩ — =

وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نضج المراهقة ومع نضج المراهقة نضج اليقين والإيمان. وتلحظ هذه الغفلة في البنت الصغيرة حين تقول لها: أتتزوجين فلانًا؟ تقول: لا أنا أتزوج فلانًا، ذلك لأنها لا تدري معنى العلاقة الزوجية، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإن ذكرت لها الزواج تستحي وتخزى أن تتحدث فيه؛ لأنها عرفت ما معنى الزواج. لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها، فإن سكتت فهذا إذن منها، ودليل على فهمها لهذه العلاقة، إنما إن قالت: نعم أتزوجه لأنه جميل و. و.، فهذا يعني أنها لم تفهم بعد معنى الزواج.

إذن: الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية، ولا تدري شيئًا عن مثل هذه الأمور كيف تفكر في الزنا؟

ثم يذكر ربنا تبارك وتعالى جزاء هذه الجريمة:

﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [النور: ٢٣]. وإن كانت الغالفة هي التي ليس في بالها مثل هذه الأمور، ولا تدري شيئًا حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرَّجُل والمرأة، فكيف نقول: إنها تفكر في هذه الجريمة؟

و«اللعن»: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، وأيضًا الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين؛ لأن القاذف حكمه أن يُقام عليه الحدُّ، ثم تسقط شهادته، ويسقط اعتباره في المجتمع الذي يعيش فيه، فجمع الله عليه الخزي في الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار، إلى جانب عذاب الآخرة، فاللعن في الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة.

=٢٧٢) «بشرح فتح الباري»، عن عائشة رضي الله عنها وفيه: «أن علي بن أبي طالب قال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك». فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «يا بريرة هل رأيت فيها شيئًا يريبك؟». فقالت بريرة: «لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله».

وقلنا: إن العذاب: إيلام حي، وقد يوصف العذاب مرة بأليم، ومرة بمهين، ومرة بعظيم، هذه الأوصاف تدور بين العذاب والمعذب، فمن الناس من لا يؤلمه الجلد، لكن يهينه، فهو في حقه عذاب مهين لكرامته، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوره المتصور؛ لأن العذاب إيلام من معذب لمعذب، والمعذب في الدنيا يعذب بأيدي البشر وعلى قدر طاقته، أما العذاب في الآخرة فهو بجبروت الله وقهر الله؛ لذلك يوصف بأنه عظيم.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤].

نعلم جميعًا أن اللسان هو الذي يتكلم، فماذا أضافت الآية:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ [النور: ٢٤].

قالوا: في الدنيا يتكلم اللسان وينطق، لكن المتكلم في الحقيقة أنت؛ لأنه مَا تحرَّك إلا بمرادك له، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك، إذن: فهو مجرد آلة، أمَّا في الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن. ولتقريب هذه المسألة: ألاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم، ويُمسك لسانه بعد طلاقته، بسبب مرض أو نحوه، فلا يستطيع بعدها الكلام، وهو ما يزال في سَعَة الدنيا. فما الذي حدث؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام، فهكذا الأمر في الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها، فتنطلق وتتحرك، لا بإرادتك، إنما بإرادة الله وقدرته.

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ [النور: ٢٤]. أي: شهادة ونطقًا على مراد الله، لا على مراد أصحابها.

ولم نستبعد نُطْق اللسان على هذه الصورة، وقد قال تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجًا يؤكد صدْق هذه القضية. فَقُلْ لي: ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم الآن من مكَان؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر في شيء، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك، إنما تقوم تلقائيًّا دون أن تدري حتى كيفية هذا القيام، وأيّ عضلات تحركت لأدائه.

ولك أن تقارن هذه الحركة التلقائية السَّلِسَلة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة، وكيف أن السائق أمامه عدد كبير من العِصيِّ والأذرع، لكل حركة في الآلة ذراع معينة. فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم في نفسك وفي أعضائك، فكيف تستبعد أن يكون لربك - ﷻ - هذه السيطرة على خَلْقه في الآخرة؟ إذن: فاللسان محلّ القول، وهو طَوْع إرادتك في الدنيا، أمّا في الآخرة فقد شُلَّتْ هذه الإرادة ودخلتْ في قوله تعالى:

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

وهذه جوارح لم يكُنْ لها نُطْق في الدنيا، لكنها ستنطق اليوم، ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون: إن الجارحة حين تعمل أيَّ عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملتْ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التي التقطت. والأقرب من هذا كله أن نقول: إنها تنطق حقيقة، كما قال تعالى حكاية عن الجوارح:

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢١].

ومعنى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أن لكل شيء في الكون نُطْقًا يناسبه،

كما نطقت النملة وقالت:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

ونطق الهدهد، فقال:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢].

وقد قال تعالى عن نُطْق هذه الأشياء:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

لكن، إنْ أراد الله لك أن تفقه نُطْقهم فقَّهك كما فقَّه سليمان ﷺ، حين فَهِم عن النملة: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]. وكما فهم عن الهدهد، وخاطبه في قضية العقيدة. وإنْ كان النطق عادةً يفهم عن طريق الصوت، فلكل خَلْق نُطْقه الذي يفهمه جنسه؛ لذلك نسمع الآن مع تقدُّم العلوم عن لُغة للأسماك، ولغة للنحل..إلــخ. وسبق أنْ قلنا: إن الذين قالوا من معجزات النبي ﷺ أن الحصى سبَح في يده، نقول: عليكم أن تُعدِّلوا هذه العبارة، قولوا: سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده. ولو سألت هذه الجوارح: لم شهدتِ عليَّ وأنت التي فعلت؟ لقالت لك: فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك، إنما يوم ننحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك، فلن نقول إلا الحق. ثم يقول الحق سبحانه:

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [النور: ٢٥]. أي: يوم أنْ تحدث هذه الشهادة، وهو يوم القيامة ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

الدين: يُطلَق على منهج الله لهداية الخَلْق، ويُطلق على يوم القيامة، ويُطلق

على الجزاء. فالمعنى: يوفيهم الجزاء الذي يستحقونه ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]. أي: العدل الذي لا ظلمَ فيه ولا تغيير، فليس الجزاء جُزَافًا، إنما جزاء بالحق؛ لأنه لم يحدث منهم توبة، ولا تجديد إيمان؛ لذلك لابُدَّ أنْ يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب، وليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الحكم أو يؤخره عنهم. لذلك بعد أن قال تعالى:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد]. قال بعدها: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص]. يعني: ليس هناك إله آخر يغير هذا الكلام، فما قلته سيحدث لا محالة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور: ٢٥]. ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: هو الشيء الثابت الذي لا يتغير، فكل ما عدا الله تعالى متغير. إذن: فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تغيير فيه؛ لذلك يقولون: إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا، ولكن يجب أن نتغير نحن من أجل الله، كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

فالله هو الحق الثابت، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر من يقول أنا الله ويدعي هذا الكون لنفسه، وصاحب الدعوى تثبت له إن لم يقم عليها معارض. ومعنى ﴿ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾: الواضح الظاهر الذي تشمل أحقيته الوجود كله». اهـ.

* * * *

[٦] احذري ما يسمى باللقاء المفتوح

ورد إلى الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - سؤال يقول السائل فيه:

«تظهر بين الحين والآخر دعوات للقاء الجنسي المفتوح غير المقيد بقيود الزوجية، وكذلك دعوات للتخفف من قيود الدين في هذا اللقاء الجنسي، فكيف نواجه مثل هذه الدعوات؟».

فأجاب رحمه الله: « إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التي تأتي، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب، والإخصاب يعني أن يأتي الحيوان المنوي من الذكر لبويضة الأنثى كي ينشأ التكاثر، والتكاثر في غير الإنسان يتم بعملية قسرية. ففي الحيوانات نرى الأنثى وهي تجأر بالصوت العالي عندما تنزل البويضة في رحمها كالبقرة مثلاً، حتى يقول الناس جميعًا: إن البقرة تطلب الإخصاب، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ، ولا تمكن فحلاً آخر منها من بعد ذلك، وهكذا يتم حفظ النوع في الحيوانات.

أما في النباتات، فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال. ونحن نعرف بعضًا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات، وقد يعرفها المتخصصون فقط، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة في عود واحد كالذرة مثلا؛ فالأنوثة توجد في «الشراشيب» التي توجد في «كوز» الذرة، وعناصر الذكورة توجد في السنبلة التي يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة. وكذلك القمح. وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال؟!

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن لابد من أن تتلاقح إخصابًا لينشأ التكاثر، فيوضح ربنا: اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات، والنبات الذي يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعًا من الحشرات غذاؤها في مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها، حشرة يجذبها اللون الأحمر، وحشرة يجذبها اللون الأبيض؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة، وهذه العملية تحدث ولا ندري عنها شيئًا. من الذي يلقح؟ من الذي يعلمها؟ إنه الله القيوم الذي لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، فاستبقى لنا الأنواع غريزيًّا وقسريًّا، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئًا، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية التلقيح، ولذلك يقول الحق:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢]. إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة، لكن حين كان لك اختيار، وتوجد مشقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع، فقد قرن - سبحانه - حفظ النوع بالمتعة، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل، فلابد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك. إذن فإياك أن تلقي حيوانك المنوي إلا في وعاء نظيف، محسوب لك وحدك كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب، ولكيلا يكون مهينًا ولا مدنسًا في حياته؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها.

ولذلك - فسبحانه - سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق، أو

الرجل يكتفي بالرجل باللواط للمتعة، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله، فعندما تنتفع امرأة مع امرأة، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع، نقول لها: أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معًا، فيوضح سبحانه أنه لابد أن تكون المتعة في ضوء منهج الله».

واسمعوا قول الله:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ [النساء: ١٥].

﴿ وَٱلَّٰتِي ﴾ اسم موصول لجماعة الإناث، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة، وماذا يقصد بقوله: ﴿ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ ﴾؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض، فلا يلغ كل واحد في عرض الآخر، بل لابد أن يضع لها الحق احتياطًا قويًا، لأن الأعراض ستجرح، ولماذا ﴿ أَرۡبَعَةٗ ﴾ في الشهادة؟ لأنهما اثنتان تستمتعان ببعضهما، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا، ماذا نفعل؟ قال سبحانه: ﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ ﴾ أي احجزوهن واحبسوهن عن الحركة، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ وقد جعل الله. والذين يقولون: إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة، نقول له: إن كلمة ﴿ وَٱلَّٰتِي ﴾ هذه اسم موصول لجماعة الإناث، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر، فف هذه الحالة يقول الحق:

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٦].

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة، ولماذا يكون العقاب في مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلبًا للمتعة هو «الإمساك في البيوت حتى يتوفاهن الموت» ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يحاصر، فهذا الشر معناه الإفساد التام، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على الفاحشة، ونحن لا نعرف ما الذي سوف يحدث من أضرار، والعلم مازال قاصرًا، فالذي خلق هو الذي شرع أن يلتقي الرجل بالمرأة في إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال، وأعد الرجل للإرسال، وهذا أمر طبيعي، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له، فالتشويش يحدث. وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التي قررها من خلقنا فلابد أن يحدث أمر خاطئ ومضر، ونحن عندما نصل سلكًا كهربائيًا بسلك آخر من النوع نفسه، أي سالب مع سالب أو موجب مع موجب تشب الحرائق، ونقول: «حدث ماس كهربائي». أي: أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة. فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة في قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة في العلاقات الجنسية مضرة في البشر؟ إنني أقول هذا الكلام ليسجل، لأن العلم سيكشف - إن متأخرًا أو متقدمًا - أن لله سرًّا، وحين يتخصص رَجُلٌ بامرأة بمنهج الله «زوجني وتقول له زوجتك». فإن الحق يجعل اللقاء طبيعيًّا. أما إن حدث اختلاف في الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار، وهذه هي الحرائق في المجتمع. أكرر هذا الكلام ليسجل وليقال في الأجيال القادمة: إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفحة من نفحات الله، ولم يركنوا إلى الكسل، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله، ففطنوا إلى نفحات الله. والحق هو القائل:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فإذا كنا قد اهتدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطي نورًا جميلاً. أما إذا حدث خطأ في الاتصال، فالماس يحدث وينتج عنه حرائق، كذلك في العلاقة البشرية، لأن المسألة ذكورة وأنوثة.

والحق سبحانه القائل:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩]. فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب في غير الإنسان، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئًا، فما بالنا بالإنسان؟ في بعض رحلاتنا في الخارج، سألَنَا بعض الناس: لماذا عدَّدْتم للرجل نساء، و لم تعددوا رجالاً للمرأة؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله، حتى تقول المرأة الساذجة - متمردة على دينها: ليس في هذا الدين عدالة -؛ لذلك سألْتُ من سألوني: أعندكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسيًّا؟ فكان الجواب: نعم في بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن. قلت: بماذا احتطتم لصحة الناس؟ قالوا: بالكشف الطبي الدوري المفاجئ. قلت: لماذا؟ قالوا: حتى نعزل المصابة بأي مرض. قلت: أيحدث ذلك مع كل رَجُلٌ وامرأة متزوجين؟ قالوا: لا. قلت: لماذا؟؟ فسكتوا و لم يجيبوا. فقلت: لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رَجُلٌ واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض، لكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال في المكان الواحد. إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقي النوع بقاء نظيفًا، لذلك قال:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥].

والمقصود بـــ ﴿ نِّسَآئِكُمْ ﴾ هنا المسلمات، لأننا لا نشرع لغيرنا، لأنهم غير

مؤمنين بالله، وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة، وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس في البيوت. وقد عرفنا ذلك فيما يسمى في العصر الحديث بالحجر الصحي الذي نضع فيه أصحاب المرض المعدي، وهناك فرق بين من أُصِبْن بمرض معدٍ، ومن أصبن بالعطب والفضيحة. فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدي فكيف لا نعزل اللاتي أصبن بالعطب والفضيحة؟! لذلك يقول الحق:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

أي: أن تظل كل منهما في العزل إلى أن يأتي لكل منهن مَلَك الموت، وحدثتنا كتب التشريع أن رسول الله ﷺ حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين [١]. عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «**خذوا عني خذوا عني: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**» [٢].

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد، والثيب بالثيب رجم.

* * *

---

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (١٧١): قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]. أي: طريقًا غير الحبس في البيوت. وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغياة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلا، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن» ا.هـ. قلت: فلا يعمل بالحبس بعد نزول الآية، ولكن بالرجم للمحصن، وبالجلد لغير المحصن.

(٢) أخرجه مسلم.

[٧] لا تصافحي الرِّجال

سُئل الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى -:

«هل حرام أن تصافح المرأة رجلاً مهما كانت النية؟».

فأجاب رحمه الله:

«المرأة لا يجب أن تصافح الرَّجُل . وهل النية قبل السلام أم بعد السلام؟ إن النية قبل السلام وليست بعده. هب أن واحدًا نيته حسنة، إنما الشرع يشرع للمجموع. واحتشام المرأة للمجتمع كله، وهو قاطع حاسم رادع لاستفزاز الشهوات الملتهبة.

ثم يردف الإمام رحمه الله قائلاً:

وما الضرورة إلى ذلك، إن الرسول ﷺ، وهو الأمين على أُمتة، والرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم في بيعة العقبة، عندما بايع الرّجال: صافحهم!!؛ وعندما بايع النساء اكتفى بقبول البيعة!!»[(١)].

وقال الإمام **الشعراوي** ردًّا على من يقول: «إن سلامنا ومصافحتنا للسيدات من باب الضرورة وأنه أصبح عادة!! إن ذلك تمامًا يواكب قول بعض العلماء: يجب أن نعيش عصرنا، وكان واجبهم أن يقولوا: يجب أن نعيش ديننا!!». ا.هـ.

* * * *

---

(١) وقال حين حاولت امرأةٌ أن تصافحه بيدها: «**إني لا أصافح النساء، وإنما كلامي لامرأة ككلامي لمائة امرأة**». وإذا كان النبي ﷺ لم يصافح النساء وهو معصوم فمن باب أولى لاً نصافح نحن.

مزيد بيان

قال فضيلة العلامة الشيخ/ **محمد الحامد** - رحمه الله - في رسالة له بعنوان: (حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية) ما مختصره:

«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فقد اطلعت على نشرة أخفى ناشرها اسمه متنكرًا ونَحَا فيها نحوا غير سليم، وسلك فيها غير الصراط المستقيم، وبحث بحثا خرج منه بنتيجة سيئة مردودة عليه.

وفي الحديث النبوي الشريف: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ**». وقد كان عليه أن يلم بأطراف الموضوع الذي كتب فيه إلمامًا صحيحًا. محيطا بالنقول العلمية خبرا لئلا يزلّ فَيَضِلّ ويُضِلّ، وكان عليه أن يتقي الله في السذج البسطاء ذوي السلامة في الاعتقاد، والبراءة في العمل، فلا يدخل عليهم شبهها بالاستدلال الناقص والفكر الملتوي، وقد كان من الحسن جدًّا أن يعرض ما كتبه، قبل نشره، على فقهاء الملة وعلمائها ليقروا فيه ما هو صواب ويحذفوا منه ما هو خطأ، إن هذا هو الأبرأ للذمة والأحوط للدين، والأكثر تحصيلاً لصالح العمل، وهو الأشد درءًا للفتنة عن القلوب.

أما وقد فعل ما فعل وأذاع أضلولته كما أراد فالواجب الديني يقضي بتبيين الزيف من كلامه، وتعيين الزيغ من قوله، والكشف عن وجه الحقيقة الدينية فلا تكون مخبوءة ولا تكون الأفكار عنها شاردة.

زعم أن لمس الرَّجُل المرأة جائز بعد أن ساق الحديث الشريف الذي رواه

الإمام البخاري في صحيحه عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: «**قد بايعتك**». كلامًا يكلمها والله ما مست يده امرأة قط في المبايعة وما بايعهن إلا بقوله.

وروى البخاري أيضًا عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢]. قالت: وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها. أي يملك نكاحها.

وساق الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وصححه وغيرهم عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن على أن لا نشرك بالله شيئًا حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢].

فقال: «**فيما استطعتن وأطقتن**». قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا إلا تصافحنا؟ قال: «**إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة**». وهذه الأحاديث صريحة في أنه ﷺ لم يبايع النساء باليد ولم تكن منه مصافحة لهن.

لكنه روى بعد هذه الأحاديث الثلاثة حديثًا رواه البخاري في صحيحه أيضًا وقد خيل إليه أن فيه دليلاً على ما يزعم من حل مصافحة الرَّجُل للمرأة الأجنبية وقد غفل، أو صرف النظر قاصدًا إن كان مطلعا، عن روايات أخرى تقيد ما فيه من إطلاق.

والحديث هو ما رواه البخاري في بيعة النساء عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢]. ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة منا يدها فقالت: فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها فلم يقل شيئًا أي أنها بكت معي ميتًا لي فأنا أريد أن أكافئها بالبكاء على ميتها، لكن لا يلزم منه النياحة التي هي رفع الصوت بالعويل فإن الأذن النبوي وارد في البكاء المجرد عن هذا.

وقد زعم الكاتب أن هذا الحديث يفيد أن البيعة كانت باليد مصافحة لقول أم عطية: «فقبضت امرأة منا يدها». أي: ولم يقبض سائر النساء أيديهن بل صافحته عليه الصلاة والسلام، وهذا من الكاتب خطأ محض وزلل عظيم فإن المصافحة ليست بلازمة لمد اليد بحيث لا تتخلف عنه.

قال القسطلاني في شرحه لهذا الحديث من صحيح الإمام البخاري: «وليس في الحديث ما يدل عليها بل أن الدليل وارد بنفيها فقد ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية حديث أميمة السابق ثم قال بعد كلام: وقد رواه أحمد أيضًا من حديث محمد بن اسحق عن محمد ابن المنكدر عن أميمة به. وزاد: ولم يصافح منا امرأة». ا.هـ. وهو الصريح الذي لا محيد عنه.

وبفرض أنها حصلت فقد كانت بحائل. فقد نقل القسطلاني عن كتاب (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني شارح البخاري وأمير المؤمنين في الحديث قوله: «قد جاءت أخبار أخرى أنهن كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب». أخرجه ابن سلام في تفسيره عن الشعبي[1]. ا.هـ. كلام ابن حجر.

وقال القرطبي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «وروى أنه عليه الصلاة

---

(١) أحاديث مبايعته ﷺ من فوق ثوب لا تصح، والصحيح: أنه لم يصافح امرأة قط.

والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب وكان يشترط عليهن».ا.هـ. كلام القرطبي.

وقوله ﷺ: «**لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له**». أو كما قال رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقات رجال الصحيح[1].

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «**إن اليد زناها البطش**».

وبذا يسقط تجويز الكاتب مس الرَّجُل للمرأة الأجنبية فإن النصوص كما ترى تحرمه. وغير صحيح ما زعمه من أن التأسي بالنبي ﷺ يكون في الأفعال لا في التروك مدعيًا أن قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. لا يفهم منه أن المطلوب منا ترك ما تركه.

وهذا ضلال مبين فإنه عليه وآله الصلاة والسلام الأسوة في كل شيء فعلا كان أو تركا إلا ماقام الدليل على أنه من خصائصه الشريفة، وكما تكون المتابعة له في الأفعال تكون في التروك وقد عرف العلماء البدعة السيئة في العبادة بأنها فعل ما تركه عليه وآله الصلاة والسلام في مقام التبيين والتشريع فالفعل في موضع الترك سيئة وبدعة، وأن انصرافه عن مصافحة النساء، وهو المعصوم من الخطايا، دليل أي دليل على وجوب انصراف غيره عنها بالأولى. والنصوص مطلقة وصريحة في المنع. ولا اجتهاد في موارد النصوص.

فصل

وزعم الكاتب أن قوله عليه وآله الصلاة والسلام: «**أني لا أصافح النساء**».

---

(١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

لا يعتبر نهيا مطلقًا لأنه قاله في خصوص البيعة، زعم ساقط لما تقرر لدى العلماء أنه لا عبرة بخصوص السبب إذا كان اللفظ عامًّا وهو هنا كذلك فتحرم مصافحتهن مطلقًا. بل إن دلالة الحديث على تحريمها دلالة أولوية، إذ قد امتنع عنها عليه وآله الصلاة والسلام حال المبايعة مع أن الأصل فيها أن تكون معاقدة بالأيدي ومصافحة بها، فلأن تكون ممنوعة في غير هذا الموطن أولى وأجدر.

والأحاديث التي رويناها في تحريم المس تصحح الفهم وتورثه السلامة، وتنأى بالمرء عن هذا المزلق الخطر فإن المرأة مشتهاة خلقة، واللمس مثير شهوة الوقاع وهي أعصى الشهوات للدين والعقل فكل سبب يدعو إليها في غير حل، ممنوع في الإسلام ومحظور إذ الوسائل لها أحكام المقاصد.

فصل

هذا وقد أيد الكاتب فكرته بأن النبي ﷺ عليه وآله الصلاة والسلام كان يمتنع عن كثير من المباحات وذا لا يدل على تحريمها بزعمه وضرب لذلك أمثلة بامتناعه من ابط الضب وقد أكل على مائدته، وامتناعه من أكل أرنب أهديت إليه.

وعزز ذلك أيضًا بما روى عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما من حديث زمارة الراعي وقد أتى به موجزا وتفصيله على ما في كتاب (كف الرعاع، عن محرمات اللهو والسماع) لابن حجر الهيتمي ما رواه نافع أن ابن عمر سمع صوت زمارة راع فجعل أصبعيه في أذنيه وعدل عن الطريق وجعل يقول يا نافع أتسمع؟ فأقول: نعم. فلما قلت: لا، رجع إلى الطريق. ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعله.

وفي رواية أن ابن عمر سمع مزمارا فوضع أصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق

وقال لي: يا نافع هل تسمع شيئًا؟ قلت: لا. فرفع أصبعيه عن أذنيه وقال: كنت مع النبي ﷺ وآله وسلم فصنع مثل هذا.

قال أبو داود: «أنه حديث منكر، وخالفه ابن حبان فخرجه في صحيحه ووافقه الحافظ محمد بن نصر السلامي فإنه سئل عنه فقال: هو حديث صحيح». ا.هـ. ولكنه ليس في الرتبة كتصحيح البخاري ومسلم.

ثم نقل الكاتب عن الشوكاني عند كلامه على حديث نافع عن ابن عمر في زمارة الراعي، قوله: وأما سده صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لسمعه فيحتمل أن تجنبه كان كما كان يتجنب كثيرًا من المباحات كما تجنب أن يبيت في بيته درهم أو دينار أو أمثال ذلك. ا.هـ.

أقول أن امتناعه عن أكل الأرانب ليس كامتناعه عن مصافحة النساء فإن الأحاديث الشريفة في إباحة الأرانب صحيحة والعلماء كلهم قائلون بحلها إلا ما حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن أبي ليلى رضي الله تعالى عنهما أنهما كرها أكلها ودليلهما ضعيف الثبوت وهو ما روى الترمذي عن حبان بن جزء عن أخيه خزيمة بن جزء رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما تقول في الأرانب؟ قال ﷺ :«**لا آكله ولا أحرمه**». قال فقلت: ولم يا رسول الله؟ قال: «**إني أحسب أنها تدمي**». - أي تحيض - قال: فقلت يا رسول الله ما تقول في الضبع؟ قال رسول الله ﷺ : «**ومن يأكل الضبع؟!**». ثم قال الترمذي إسناده ليس بالقوي.ا.هـ.

فغاية ما فيه استقذارها مع جواز أكلها في كتاب (حياة الحيوان) للدميري.

قال الدميري: «وحجتنا ما روى الجماعة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: انفجنا - أي أثرنا - أرنبا بمر الظهران فسعى القوم عليها فلغبوا - أي تعبوا -

فأدركتها فأخذتها وأتيت بها أبا طلحة فذبحها وبعث إلى النبي ﷺ بوركها وفخذها فقبله».

وفي البخاري في كتاب (الهبة) أن النبي ﷺ قبله وأكل منه. ولفظ أبي داود: كنت غلامًا حزورًا فصدت أرنبا فشويتها فبعث معي أبو طلحة ﷺ بعجزها إلى النبي ﷺ. والحزور - بالتشديد والتخفيف - المراهق. وقد سئل رسول الله ﷺ فقال: «**هي حلال**».

وروى أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبان عن محمد بن صفوان أنه صاد أرنبين فذبحهما بمروتين وأتى النبي ﷺ فأمره بأكلهما. ا.هـ. من كتاب (حياة الحيوان) للدميري.

وأما الضب فقد قال الدميري في (حياة الحيوان): يحل أكل الضب بالإجماع. إلى أن قال: وروى الشيخان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قيل له: أحرام هو؟ قال: «**لا ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه**».

وفي سنن أبي داود لما رأى النبي ﷺ الضبين المشويين بزق فقال خالد: يا رسول الله أراك تقذره. وذكر تمام الحديث.

وفي رواية لمسلم: «**لا آكله ولا أحرِّمه**». وفي الأخرى: «**كلوه فإنه حلال ولكنه ليس من طعامي**».

قال الدميري: وكل هذه الروايات صريحة في الإباحة ولأن العرب تستطيبه. ا.هـ.

لكن دعوى الإجماع هنا على حل الضب غير صحيحة فإن الحنفية حرموا أكله وحملوا ما روى من أباحته على ابتداء الإسلام قبل نزول قوله تعالى:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

واستطابة العرب أصل لاعتماد الحل ويراد بها استطابة أهل الحجاز من سكان المدن لأنهم المخاطبون أولا بالآيات الكريمة إذ قد نزل الكتاب عليهم، ولا تعتبر استطابة أهل البوادي فإنهم لجوعهم وضرورتهم يأكلون ما يجدون. أنظر (الدر المختار ورد المحتار) في فقه الحنفية.

والمقصود من إيراد هذه الروايات أظهار الفرق بين ترك النبي ﷺ أكل الأرانب وبين تركه مصافحة النساء فإن الدلائل من السنة الشريفة تدل على حل الأرانب، والضب فيه خلاف المذاهب، وكان ترك أكله تعففا، وأما ترك مصافحة النساء قد كان تمنعا دينيا لمكان الحرمة وقد أسلفنا الأحاديث الشريفة في هذه الحرمة القائمة، فالفرق واضح لا يخفى على ذي بصيرة.

فصل

وأما حديث زمارة الراعي، فقد سمعت الخلاف فيه، وعلى تقدير ثبوته نقول: إن الزمارة ليست مباحة بإجماع، وقد كان على الكاتب أن يرعى الأمانة العلمية فلا يحكى إباحة ما فيه خلاف دون أن يصرح أو يشير على الأقل إلى الطرف المخالف، ولو ذهبنا نبحث ونستقصى لوجدنا أن الأكثيرين قائلون بتحريمها للأحاديث الشريفة المحرمة لكل لهو انظر (كتاب كف الرعاع، عن محرمات اللهو والسماع) لابن حجر الهيتمي، على أنه مهما تعارض دليلان أحدهما يحرم والآخر يبيح صرنا إلى التحريم طلبا لسلامة الدين وسدا لذرائع الفساد.

الأحاديث في النهي عن آلات الطرب واللهو كثيرة جدا وإليك منها ما يتعلق بالزمار فقط لأنه موضوع البحث.

روى الإمام أحمد وأحمد بن منيع والحارث بن أبي أسامة عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «**أن الله ﷻ بعثني رحمة وهدى للعالمين وأمرني أن أمحق المزامير والمعازف والخمور والأوثان التي تعبد في الجاهلية**». إلى آخر الحديث الشريف.

وروى النسائي عن جابر بن عبد الله وجابر بن عمير أن رسول الله ﷺ قال: «**كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا ملاعبة الرَّجُل امرأته وتأديب الرَّجُل فرسه**».

وفي رواية: «**اللهو – أي المباح – في ثلاث: تأديب فرسك، ورميك بقوسك، وملاعبتك أهلك**».

فهذه الأحاديث الشريفة وغيرها حملت جماهير العلماء على القول بتحريم الزمارة كغيرها من آلات لأنها تطرب، والاطراب علة التحريم.

وبعضهم أباح زمارة الراعي خاصة مع قولهم بالتنزه عنها وكراهة سماعها. وهذا إذا كانت بلا أوتار أما بها فحرام بلا خلاف.

ودليل المبيحين أن الراعي صفر صفرًا مجردًا لا على القانون المعروف في الصفر أي أنه لا يتبع قانون التنغيم في صفيره. وبعض المبيحين لها قال أنها مكروهة في الأمصار – أي المدن – لأنهما تكون للسخف والسفاهة، وهي في الأسفار مباحة لأنها تحث على السير وتجمع البهائم إذا سرحت.

والشوكاني الذي استشهد الكاتب بقوله واحد من هؤلاء المبيحين، الذين اعتمدوا حديث الزماة أصلا في إباحتها. والأكثرون على التحريم.

قال ابن حجر الهيتمي في كتابه (كف الرعاع، عن محرمات اللهو والسماع). وأما استدلال من أباحها به – أي الحديث – تمسكا بأنه لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه ولا نهى الراعي فدل على أنه إنما فعله تنزيها أو أنه كان في حالة

ذكر أو فكر وكان السماع يشغله فسد أذنيه لذلك، فقد رده الأئمة بأمور كثيرة منها أن تلك الزمارة لم تكن مما يتخذه أهل هذا الفن الذي هو محل النزاع من الشبابات التي يتقوها وتحتها أنواع كلها تطرب.

ومعلوم أن زمر الراعي في قصبة ليس كزمر من جعله صنعته وتأنق فيه وفي طرائقه التي اخترعوا فيها نغمات تحرك إلى الشهوات. ومنها أنه ﷺ إنما لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه لأنه تقرر عندهم أن أفعاله ﷺ حجه كأقواله فحين فعل ذلك بادر ابن عمر إلى التأسي به وهو من أشد الناس تأسيا به. عليه وآله الصلاة والسلام.

قال الدولقي خطيب الشام: وهذا لا يخطر ببال محصل قد عرف قدر الصحابة واطلع على سبيلهم. قال: وقوله ﷺ: «**يا عبد الله هل تسمع؟**». معناه وهل تسمع وإنما أسقط تسمع لدلالة الكلام عليه إذ من وضع أصبعيه في أذنيه لا يسمع وإنما أذن له بهذا القدر لموضع الحاجة.

ومنها أن الممنوع إنما هو الاستماع لا مجرد السماع لا عن قصد وإصغاء وقد صرح أصحابنا - أي الفقهاء - بأنه لو كان في جواره شيء من الملاهي المحرمة ويمكنه إزالتها لا يلزمه النقلة ولا يأثم بسماعها لا عن قصد، وصرحوا ههنا بأنه إنما يأثم بالاستماع لا بالسماع. ا.هـ. كلام ابن حجر.

والذي أراه هو اعتماد الوجهين الأخيرين من وجوه الرد إذ أن الوجه الأول يلتقي بتعليل المبيحين بأن الراعي صفره فيها مجرد.

والذي نخلص إليه من هذا هو أن لا دليل للكاتب في زعمه أن النبي ﷺ كان تاركًا للمباح فقط في حديث الزمارة. كما لا دليل له في زعمه أن الامتناع عن مصافحة النساء خاص بالبيعة وسائغ في غيرها لما أسلفنا من أحاديث النبي ﷺ.

فصل

وادعاؤه أيضًا أثناء كلامه أن قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنما الربا في النسيئة**». خاص بالنقدين فقط خطأ محض فإن ربا النسيئة ممنوع شرعًا في النقدين وفي غيرهما من سائر الأموال الربوية التي عدها الحديث الشريف ويلحق بها ما في معناها كما تقرر في الفقه.

واستدلاله لجواز لمس المرأة الأجنبية بقوله تعالى:

﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣].

استدلال غريب يقضي منه العجب لآن الآية واردة في موجبات الطهارة فهي تعنيها سواء كان الموجب لها لمس الزوجة أو امرأة أجنبية. أما الإثم في لمس الأجنبية فله أدلته الأخرى. وبهذا يسقط بحثه الخاطئ في أن حل اللمس لا يعارضه حديث الامتناع عن المصافحة. إذا لا دليل في الآية على هذا الحل الذي زعمه حتى تقوم المعارضة. على أن اللمس في الآية مراد به الجماع في قول فريق عظيم من فقهاء الأمة كالحنفية ومن وافقهم فهل يقول الكاتب بحل جماع المرأة الأجنبية؟! ثم إن استظهاره لما يراه من حل لمس الأجنبية بأنه ﷺ رد هدية بعض الكافرين وقبل هدية بعض آخر، غير صحيح. إذ لا يعدو مباحًا فعله تارة وتركه أخرى.

أما الامتناع من مصافحة النساء يوم البيعة فإنما هو للتحريم فلا يقاس هذا بذاك والبون بينهما شاسع والفرق عظيم. لكن الكاتب عاد فلج آخرًا في زعمه حل مصافحة المرأة الأجنبية حلاً تامًّا لا أثر فيه لكراهة لأن الحديث فيما يرى ليس فيه إلا تركها والترك لا يفيد في رأيه شيئًا حتى ولا الكراهة. ثم مثل بعد

ذلك للكراهة فساق الحديث الشريف في حرمة التداوي بالخمر وهو قوله ﷺ: «**أنه ليس بدواء ولكنه داء**». وكذلك قوله عليه وآله الصلاة والسلام: «**أن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل أداء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام**». ثم عارضهما بحديث العرنيين الذين استوخموا المدينة فأمر لهم النبي ﷺ بذود من إبل[1] وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها.

وكذا إباحته ﷺ لبس الحرير لعبد الرحمن بن عوف وللزبير لحكة كانت فيهما ثم خرج الكاتب بنتيجة هي أن النهي لا يجاور الكراهة فقط لمكان المعارضة. أما مصافحة الأجنبية فلا شيء فيها بزعمه لأن الذي كان منه ﷺ كان تركا محضا وهو لا يدل على التحريم.

وقد قدمنا إبطال هذه الفكرة غير مرة في هذا الرد الموجز وبينا أن متابعته ﷺ واجبة في الفعل وفي الترك جميعًا، لا سيما وقد جاء النهى النبوي يمنع من مزاحمة الأجنبية فضلا عن لمسها ومصافحتها وقد سقنا الأحاديث في المزاحمة فليرجع إليها مطالع هذا الرد.

وأما نصبه المعارضة فيما زعم فغلط، وذلك أن الخمر مجمع على نجاستها وتحريمها، فهي شؤم ونجاسة وتورث العلل والأمراض. فقد جاء في الحديث الشريف عن وائل بن حجر عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ أنه قال فيها: «**إنها ليست بدواء ولكنها داء**». يعني: الخمر. رواه النسائي بهذا اللفظ لا بغيره.

أما بول الإبل فطاهر في رأي كثير من أئمة الاجتهاد ونوابغ الفقهاء. فقد ذكر الشوكاني في (نيل الأوطار) أنهم العترة النبوية والنخعي والاوزاعي والزهري ومالك وأحمد بن حنبل ومحمد بن الحسن وطائفة من السلف ووافقهم

---

(١) هو: ما بين الثلاث إلى العشر.

من الشافعية ابن خزيمة وابن المنذر وابن حبان والاصطخري والروياني. فلا تقاس الخمر النحسة باتفاق والمحرمة قطعًا، ببول الإبل الذي وصفه ﷺ دواء مع قوله في الخمر: «**أنها ليست بدواء ولكنها داء**». فالتداوي بها حرام وليس مكروها فقط كما زعم.

واذنه عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن والزبير رضي الله تعالى عنهما بلبس الحرير كان لمكان الضرورة وقد تعين دواء فلا كراهة مطلقًا لا كما زعم الكاتب إثباتها.

ثم إن زعم الكاتب في آخر كلامه وختامه أن الكراهة لا إثم فيها، خطأ أيضًا فإن الكراهة بإطلاقها تنصرف إلى كراهة التحريم وهي إلى الحرام أقرب منها إلى الحلال وفي فعلها إثم يستوجب العقوبة بالنار وإن كانت دون العقوبة على فعل الحرام.

والكراهة التحريمية في المنهيات تقابل الواجب في المأمورات، كما يقابل الحرام في المنهيات الفرض في المأمورات. أما الكراهة التنزيهية فهي إلى الحل أقرب ويقابلها في المأمورات المستحب والمندوب.

وبعد، فأرجو للكاتب اعتدالا في الفكرة وعودا إلى حظيرة الصواب فإن ما ذهب إليه لا يقره عالم محقق بصير بحلال الله وحرامه.

أسأل الله الهداية لي وللكاتب وللمسلمين آمين. ا.هـ.

* * * *

[٨] لا تحرمي طفلك من الرزق

الذي ساقه الله إليه

اعلمي أختي المسلمة أن حرمان طفلك من اللبن الذي ساقه الله إليه عن طريقك يترتب عليه عدة أضرار وأخطار. لذا وضع الإسلام للرضاعة نظامًا محكمًا.

قال الحق سبحانه:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«انظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم العليم بعباده، فيريد أن يحمي الثمرة التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا: لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع.

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن بيوت أزواجهن، لأن الله يقول بعد ذلك:

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وما دامت الآية تحدثت عن ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾.

فذلك يعني أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرًا مفروغا منه. والحق سبحانه يفرض هنا حقا للرضيع، وأمه لم تكن تستحقه لولا الرضاع. وبعض الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموما ونقول لهم: لا. إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتي يرضعن فقط.

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرا مفروغا منه، فشرع حق الطفل في أن يتكفله والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلوما لديه حال الطلاق.

وقوله تعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل: يا والدات أرضعن، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب خبري على أنها أمر واقع طبيعي ولا يخالف.

ويقول الحق:

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾.

ولنتأمل عظمة الأداء القرآني في قوله:

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾.

إنه لم يقل: «وعلى الوالد»، وجاء بـــ ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ ليكلفه بالتبعات في الرزق والكسوة، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هي مسئولية الوالد وليست

مسئولية الأم، وهي قد حملت وولدت وأرضعت والولد يُنسب للأب في النهاية.

يقول الشاعر:

فإنّما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

وما دام المولود منسوبًا للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو وعليه أيضا رزق وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافًا وظلما للأب في كثرة الإنفاق، ويقول الحق:

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

هنا الحديث عن الأم والأب. فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته، وعليها أن تكتفي بالمعقول من النفقة.

و يتابع الحق:

﴿ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾.

ولا زال الحق يُذكرُ الأب بأن المولود له هو، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته، وفي الوقت نفسه يُذّكرُ الأم: لا تجعلي رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة.

إنه ﷻ يضع لنا الإطار الدقيق الذي يكفل للطفل حقوقه، فهناك فرق بين رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين.

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لفتة أخرى هي أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذي ينفق على الوليد الذي في رعاية أمه المطلقة؟ هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع:

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾.

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث والد الرضيع، صحيح أن الرضيع سيرث في والده، لكن رعاية الوليد اليتيم هي مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات. وهكذا يضمن الله ﷻ حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيا، وعند من يرث الأب إذا تُوفي.

وبذلك يكون الله ﷻ قد شَرَّع لصيانة أسلوب حياة الطفل في حال وجود أبويه، وشرع له في حال طلاق أبويه وأبوه حيٌّ، وشرع له في حال طلاق أبويه ووفاة أبيه. و يتابع الحق:

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

انظر إلى الرحمة في الإسلام، فطلاق الرجل لزوجته لا يعني أن ما كان بينهما قد انتهى، ويضيع الأولاد ويشقون بسبب الطلاق، فقوله تعالى:

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾.

دليل على أن هناك قضية مشتركة ما زالت بين الطرفين وهي ما يتصل برعاية الأولاد، وهذه القضية المشتركة لابد أن يُلاحظ فيها حق الأولاد في عاطفة الأمومة، وحقهم في عاطفة الأبوة، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب، وإن اختلفا حتى الطلاق.

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضي في مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم، وكذلك والدهم وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراضٍ وتشاور.

إن ما يحدث في كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي

مسألة خطيرة، لأنها تترك رواسب وآثارا سلبية عميقة في نفوس الأولاد، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم في الحياة. وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر في مجيئهم للحياة؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التي تكفل لهم النشأة الكريمة؟ إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة؟

والحق سبحانه وتعالى قال في أول الآية:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾.

لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين، أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين؟ هنا يقول الحق:

﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾.

إنه جَلّ وعَلاَ يبيّن لنا أن الفصال أي الفطام يجب أن يكون عن تراض وتشاور بين الوالدين ولا جناح عليهما في ذلك. ويقول الحق:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

و ﴿ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾. أي أن تأتوا للطفل بمرضعة، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم في ذلك.

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم الموجود لديها بالفطرة، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف في صحتها أو قوتها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتي لابنه بمرضعة، وهذه المرضعة التي ترضع الوليد تحتاج إلى

أن يعطيها الأب ما يُسخِّيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة، والإشراف عليه بصدق.

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعي بظاهر الأمر تطبيقها، لكنه غير حريص على روح هذه الأحكام، مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعي أنه ينفق عليها، ويعطيها أجرها كاملا، ويقابلها بالحفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك.

إن الله يحذر من يفعل ذلك: أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله «والله بما تعملون بصير» ا.هـ.

❁ ❁ ❁ ❁

عقاب من يمنعن أولادهن ألبانهن

عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« بينما أنا نائم إذ أتاني رجلان، فأخذا بضبعي، فأتيا بي جبلاً، وعرًا، فقالا: اصعد. فقلت: إني لا أُطيقه. فقالا: إنا سنسهله لك. فصعدتُ، حتى إذا كنت في سواء الجبل، إذا بأصوات شديدة، قلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار. ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم مُعَلّقين بعراقيبهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا، قال: قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم. فقال: خابت اليهود والنصارى. ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم أشد شيءٍ انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوأه منظرًا، فقلت: من هؤلاء. قال: هؤلاء الزانون والزواني. ثم انطلق بي، فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيَّات، قلتُ: ما بال هؤلاء: قال: هؤلاء يمنعن أولادهن ألبانهن. ثم انطلق بي، فإذا أنا بالغلمان يلعبون بين نهرين، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين. ثم شرف شرفًا، فإذا أنا بنفر ثلاثة يشربون من خَمْر لهم، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفر وزيد، وابن رواحة. ثم شرفني شرفًا آخر، فإذا أنا بنفر ثلاثة. قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى، وهم ينتظرونك – صلى الله عليهم أجمعين– ثم انطلقنا فإذا نحن برجال أحسن شيء وجهًا، وأحسنه لبوسًا، وأطيبه ريحًا، كأن وجوههم القراطيس، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الصديقون والشهداء والصالحون. ثم انطلقنا فإذا نحن بموتى أشدّ شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء موتى الكفار. ثم انطلقنا فإذا نحن نرى دخانًا، ونسمع عواءً. قلتُ: ما هذا؟ قال: هذه جهنم فدعها. ثم انطلقنا، فإذا نحن برجال ينامون تحت ظلال الشجر، قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء موتى المسلمين»[1]. والشاهد في الحديث، قوله ﷺ: « ثم انطلق بي، فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات ».

---

(١) ... صحيح: رواه ابن حبان (١٨٠٠)، وابن خزيمة (١٩٨٦)، وغيرهم.

[٩] احذري تجاوز مدة الإحداد

بعض النساء يتجاوزن مدة الإحداد على الميت المقررة شرعًا!! وهذا يخالف الدين، ولا يحل لأي سبب من الأسباب.

فعن زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره، فدهنت منه جارية، ثم مست بعارضيها، ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا**».

قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها، فدعت بطيب، فمست منه، ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: ثم ذكرت مثله.

قالت زينب: سمعت أمي أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني ابنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟

فقال رسول الله ﷺ: «**لا**». مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «**لا**».

ثم قال: «**إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول**»[١].

وفي سورة (البقرة) قال الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ [البقرة: ٢٣٤].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

والعدة كما عرفنا هي الفترة الزمنية التي شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج.

والعدة إما أن تكون بعد طلاق، وإما بعد وفاة زوج، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدها ثلاثة قروء، والقرء- كما عرفنا- هو الحيضة أو الطهر، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت سن الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصبح «ثلاثة أشهر» .

وعرفنا أن من حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخل الزوجة أو ولي أمرها، له ذلك في أثناء فترة العدة في الطلاق الرجعي، فإن انتهت عدها فقد سقط حقه في مراجعة الزوجة بنفسه، وله أن يراجعها، ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقي له حق أي لم يستنفد مرات الطلاق.

وقد قلنا: إن تعدت الطلقات اثنتين وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلابد من زوج آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا بقصد أن يحللها للزوج الأول.

وأما عدة المتوفى عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا، هذا إن لم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً فعدها أبعد الأجلين، فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرًا فتلك عدها، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدها أن ينتهي الحمل. لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهي في الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن؟ وهل يعني ذلك أن عدها انتهت؟

لا. إنها تنتهي بأبعد الأجلين وهو في هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشرا، وإن قال بعض الفقهاء: إن عدة الحامل بوضع الحمل.

لكن إذا لم يكن زوجها متوفًّى عنها فعدتها أن تضع حملها، وإن شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة..

وبعض الناس يفسرون الحكمة من جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا، فيقولون: لأنها إن كانت حاملاً بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملاً بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليالٍ.

ونقول لهم: جزاكم الله خيرًا على تفسيركم، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم، لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهت عدة المرأة بمجرد ولادتها.

ولو كان الأمر للتأكد من وجود حمل أو عدمه، لكانت عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سن لكانت عدتها ثلاثة أشهر.

لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكرامًا لحياتهما الزوجية.

إذن.. فالله ﷻ جعل المتوفى عنها زوجها تتربص أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها المرأة. فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تتزين ولا تلقى أحدًا وفاءً للزوج، فإذا انتهت عدتها أي مضت عليها الأربعة الأشهر والعشرة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾. وهو يعني أن تتزين في بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها.

وقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال.

وهنا لفتة تشريعية إيمانية تدل على استطراق كل حكم شرعي في جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم ماسًّا لهم، فالمتوفى عنها زوجها تربصت أربعة أشهر وعشرا وبلغتها في مدة العدة، وكان من حكم الله عليها ألا تتزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيتها وفاءً لحق زوجها فإذا بلغت الأجل وانتهى قال:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾، ولم يقل: فلا جناح عليهن.

لقد وجه الخطاب هنا للرجال، لأن كل مؤمن له ولاية على كل مؤمنة، فإذا رأى في سلوكها أو أسلوب عنايتها بنفسها ما ينافي العدة فله أن يتدخل..

مثلاً إذا رآها تتزين قال لها أو أرسل إليها من يقول لها: لماذا تتزينين؟ إن قول الله:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يجعل للرجال قوامة على المتوفى عنها زوجها، فلا يقولون: لا دخل لنا، لأن الحكم الإيماني حكم مستطرق في كل مؤمن وعلى كل مؤمن.

فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

إن قوله الحق: «تواصوا» لا يعني أن قومًا خُصوا بأنهم يُوصون غيرهم وقومًا آخرين يُوصيهم غيرهُم، بل كل واحد منا موصٍ في وقت، وموصىً من غيره في وقت آخر، هذا هو معنى ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ .

فإذا رأيت في غيرك ضعفًا في أي ناحية من نواحي أحكام الله، فلك أن توصيه، وكذلك إن رأى غيرك فيك ضعفًا في أي ناحية من النواحي فله أن يوصيك، وعندما نتواصى جميعًا لا يبقى لمؤمن بيننا خطأ ظاهر.

إذن: فالآية لا تَخُصُ بالوصاية جماعة دون أخرى إنما الكل يتواصون، لأن

الأغيار البشرية تتناوب الناس أجمعين .. فأنت في فترة ضعفي رقيب عليّ، فتوصيني.. وأنا في فترة ضعفك رقيب عليك، فأوصيك.

ولذلك جاء قول الحق: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. إنه سبحانه لم يوجه الخطاب للنساء، ولكن خاطب به المؤمنين ولم يخص بالخطاب أولياء أمور النساء فحسب وإنما ترك الحكم للجميع حتى لا يقول أحد: لا علاقة لي بالمرأة التي توفى عنها زوجها ولتفعل ما تشاء.

إن لها أن تتزين بالمتعارف عليه إسلاميًّا في الزينة، ولها أن تتجمل في حدود ما أذن الله لها فيه.

ويختتم الحق هذه الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي والله أعلم بما في نفسها وبما في نيتها.. وهب أنها فعلت أي فعل على غير مرأى من أحد فلا تعتقد أن المجتمع وإن لم يشهد منها ذلك أن المسألة انتهت، لا، إن الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس». ا.هـ.

وفي نفس السورة، قال الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة: ٢٤٠].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«في آية سابقة قال الحق:

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤].

إذن نحن أمام حكمين للذين يتوفون ويذرون أزواجًا، حكم أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا، وحكم آخر بأن للزوج حين تحضره الوفاة أو أسبابها أو مقدماتها أن ينصح ويوصي بأن تظل الزوجة في بيته حولاً كاملاً لا تُهاج، وتكون الأربعة الأشهر والعشر فريضة وبقية الحول والعام وصية، إن شاءت أخذتها وإن شاءت عدلت عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً﴾ هذه وصية من الزوج عندما تحضره الوفاة. إذن فالمتوفى عنها زوجها بين حكمين:

حكم لازم وهو فرض عليها بأن تظل أربعة أشهر وعشرا، وحكم بأن يوصي الزوج بأن تظل حولا كاملا لا تهاج إلا أن تخرج من نفسها.

و﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي لا يخرجها أحد. ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

إن لها الخيار أن تظل عامًا حسب وصية زوجها، ولها الخيار في أن تخرج بعد الأربعة الأشهر والعشر.



[١٠] النهي عن إذاعة

أسرار الاستمتاع بين الزوجين

لحديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« **إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: الرَّجُل يفضي إلى امرأته، وتُفضى إليه، ثم ينشر سرها** »[١].

قال الإمام النووي رحمه الله[٢]: « في هذا الحديث تحريم إفشاء الرَّجُل ما يجرى بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع، ووصف تفاصيل ذلك، وما يجرى من المرأة فيه من قول أو فعل، ونحوه » .ا.هـ.

❁❁❁❁

[١١] نهي المرأة عن صوم التطوع

وزوجها حاضر إلا بإذنه

لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« **لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه** »[٣].

قال الإمام النووي رحمه الله:

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) **صحيح**: مسلم « بشرح النووي » (٣/٦١٠).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

«هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذي ليس له زمن معين، وهذا النهي للتحريم صرح به أصحابنا، وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها في كل الأيام، وحقه فيه واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخي، فإن قيل: فينبغي أن يجوّز لها الصوم بغير إذنه، فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها، فالجواب أن صومها يمنعه من الاستمتاع في العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالافساد».

وقوله ﷺ: «**وزوجها شاهد**»، أي مقيم في البلد، أما إذا كان مسافرًا فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه»[1]. ا.هـ.

* * * *

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/٦٥).

[١٢] النهي عن اللطم

وشق الثياب عند المصيبة

عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»(١).

وعن أبي بردة بن أبي موسى قال: وجع أبو موسى وجعًا فغشي عليه، ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بريءٌ مما بَرِئَ منه رسول الله ﷺ. فإن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة(٢).

والصالقة: هي التي ترفع صوتها عند المصيبة.

والحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة.

والشاقة: هي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

فاصبري يا أختاه ولا تفعلي شيئًا يغضب الله، واعلمي أن الله تعالى قد وعد الصابرين ثلاث خصال كل خصلة أفضل من الدنيا وما فيها. واقرئي:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآيات:

«نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرًّا، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان، ولم يقل أحد: إن الامتحانات شر، إنها تصير شرًّا من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول، فالامتحانات خير بالنسبة له، إذن فقوله الحق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أي سنصنع لكم امتحانًا يصفي البطولة للعقيدة الجديدة.

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات؛ وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد في سبيل الله، وذكر ثواب الشهيد، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل، فقمة الابتلاء - في حدود إدراكنا - هي فقد الحياة، وأراد الحق أن يعطي المؤمنين مناعة فيما دون الحياة، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفي بالنسبة لفقد الحياة نفسها، فمن لم يفقد حياته، فستأتي له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال، ونقص في عدد الإخوة المؤمنين، وكذلك نقص في الثمرات، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان، ويأتي التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضًا مما يحب، وتلك الابتلاءات تدخل في نطاق بقاء التكليف.

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار، فالنفس لها ملكات متعددة، وعندما يصيبها الخوف، فهي تعاني من عدم الانسجام، والخوف خَورٌ لا ضرورة له، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمِّن نفسك من أمر يُخيفك، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذي يُخيفك، أما إن استسلمت للانزعاج، فلن تستطيع مواجهة

الأمر المخيف بكل ملكاتك، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف، أما إن زاد انزعاجك عن الحد، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك، ولا بجميع تفكيرك.

إذن: فالذي يخاف من الخوف؛ نقول له: أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع، فلا تعش في فزعه قبل أن يأتيك، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب.

إن المصيبة قد تأتي – مثلاً – بعد شهر، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع؛ تكون قد قصرت مسافتها، ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتي المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطف، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع، فأنت تعيش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها، لكن لو ظللت صابرًا محتسبًا قادرًا على مواجهة أي أمر صعب، فأنت لن تعيش في المصيبة بدون اللطف.

لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام مازالت وليدة، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعدادًا قويًا، وكان الخوف متوقعًا، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبيتون، وهذا هو الابتلاء.

وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف، فإن صنع ذلك يكون

قد نجح في هذا الابتلاء.

ونأتي إلى الابتلاء الثاني في هذه الآية الكريمة، وهو الجوع.

إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام، وهو ضروري لاستبقاء الحياة، ومن رحـ
الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدخره من وقت رخا
لينفعه وقت شدته، فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحـ
وحين يجوع ولا يجد طعامًا، فهو يأخذ من هذا الشحم، فإذا انتهى الشحم، فه
يأخذ من اللحم، وإذا انتهى اللحم، يأخذ الجسم غذاءه من العظم، من أجل أ
يستبقى الإنسان الحياة.

والإنسان مكون من أجهزة متعددة، وسيد هذه الأجهزة المخ، ومادامـ
الحياة موجودة في خلايا المخ فإن كل شيء فيك جاهز للعمل، لكن إذا ماتـ
هذه الخلايا، انتهى كل شيء، وذلك هو السبب في أن يقال: إن فلانًا مات
أعطوه دواء معينًا فعادت إليه الحياة، إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة، وهي
أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل، ولذلك فهناك إنسا
قد يتوقف قلبه فيعالجه الأطباء بصدمة كهربائية تعيد تشغيل القلب، أو يشقو
الصدر لتدليك القلب، لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت، فأجهز
الجسم كلها في خدمة ذلك السيد وهو المخ.

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان - وهو المخ - في قمته، والحيواناتـ
كذلك مخها في قمتها، أما النبات فسيده في جذوره، فالورق يذبل أولاً، ثم تجفـ
الأغصان الرفيعة، ثم الجذع، ويجف الجذر في النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء
وعندما يأتي بعض الماء إلى الجذور في الوقت المناسب فهي تعود إلى الاخضرار

وتنمو وتعود إليها الحياة، وكذلك المخ في الإنسان، فساعة ينهي الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام، فإنقاذه يأتي من إيصال الغذاء إلى المخ، ولذلك قالت المرأة العربية التي لم تكن تعرف التشريح: «نحن مرت علينا سنون، سنة أذابت الشحم، وسنة مَحَقَتْ اللحم، وسنة محت العظم».

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسِّن لنا كل رزق في الحياة، فإنك إن كنت جوعًان صار كل طعام شهيًّا، والذي يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة؛ إنما هو عدم الجوع؛ فالإنسان يريد أن يُشهِّي لنفسه ليأكل، لكنه لو كان جوعان لكفاه أي طعام، ولذلك قالوا: «طعام الجائع هنيء وفراش المتعب وطيء». فساعة يكون الإنسان متعبًا فهو ينام على أرض خشنة؛ ويستغرق في النوم، وإن لم يكن الإنسان متعبًا، فهو يظل يتقلب في الفراش حتى ولو كان من الديباج.

إذن فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضروري من الطعام الذي يقيم لك الحياة، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة، ولا تأكله التذاذًا، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأي طعام يكفيه، ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادًا كافيًا كاملاً، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

ولذلك تجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف، ولكن بعض

المجتمعات لا تستطيع ذلك، فتجد الناس في تلك المجتمعات لا تتقشف، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف: أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن.

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم:

وإذا غـــلا شـــيء عـــليَّ تركــته فـــيكون أرخــص مــا يكون إذا غلا

إن أي شيء إذا غلا سعره لا يشتريه ويتركه، فيكون أرخص شيء، لأنه لن يدفع فيه مالاً ليشتريه.

وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال: فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التي تنتج المال ولذلك تنقص الأموال، لأن حركتهم في الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله، وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين؛ وقد يستشهد منهم عدد، وأخيرًا يواجهون نقص الثمرات، والثمرات هي الغاية من كل عمل.

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقص الأنفس، وصبر على نقص الثمرات.

إذن: فالمهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات؛ حتى يواجه الحياة صلبًا؛ ويواجه الحياة قويًّا، ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعبر عن الغاية؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾.

والمصيبة: هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين في بعض المعارك، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

أي قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين: إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله.

وعندما نتأمل قوله الحق: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي أن المسألة ستكون لحسابنا، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله، ولم يقل الحق: كتب الله علينا، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله.

وأي أمر يصيب الإنسان، إما أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها، وحدثت له من غيره مثلاً، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أعدلاً أم ظلمًا؟ إن كانت عدلاً فهي قد جبرت الذنب، وإن كانت ظلمًا فسوف يقتص الله له ممن ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعًا أن يأتي له منها خير، وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقييمًا حقيقيًّا: «هل لي على الله حق؟ أنا مملوك لله وليس لي حق عنده، فما يجريه عليّ فهو يجريه في ملكه هو».

ومن لا يعجبه ذلك فليتأب على أي مصيبة؛ ويقول لها: «لا تصيبيني»،ولن

تستطيع درء أي مصيبة - ومادمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث، فلنقبلها - كمؤمنين - لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا، إنه يدعونا أن نقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا، ولابد لنا هنا أن نأتي بمثال - ولله المثل الأعلى - هل رأيت إنسانًا يفسد ملكه؟ أبدًا.

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدي إلى الصلاح في ملكه، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن ملك له، وهو سبحانه لا يُعرّض ملكه أبدًا للضرر، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح.

«إنا لله وإنا إليه راجعون» أي نحن مملوكون لله، ونحن راجعون إليه، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله.

إذن فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله نهاية في المرجع؛ وهو سبحانه ملك القوسين؛ الابتداء والانتهاء، ولذلك علمنا رسول الله ﷺ عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع؛ أي: أن يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وزادنا أيضًا أن نقول: «اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها» إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتي بعدها خيرًا منها، وحتى إن نسي الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها، كأنه قالها ساعة المصيبة.

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها؛ حين مات أبو سلمة زوجها - وكان ملء السمع والبصر - وجزعت عليه أم سلمة، فقيل لها قولي: ما علمنا رسول الله ﷺ ، قالت: وما علمكم؟ قالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم

أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها»، فقالت: ما قيل لها، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي خاطبًا، فقيل لها: أَوُجِدَ خيرٌ من أبي سلمة أم لم يوجد؟ قالت: ما كنت لأتسامى - أي أتوقع - مثل هذا الموقف.

فإذن كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجُرْني في مُصيبتي واخْلف لي خَيْرًا منها»[(١)].

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء؟ ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾.

فلننظر إلى غاية الغايات التي يدربنا الله عليها لنحمل الدعوة، ولنحمي منهج الحق، ولنهدم دولة المبطلين، هذه غاية؛ لكنها ليست الغاية النهائية، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لنأخذ رحمات الله وبركاته في الآخرة.

إذن: فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته، ونحن نعرف أن الصلاة في اللغة هي الدعاء، للناس صلاة، وللملائكة صلاة، ولله صلاة، فهو القائل:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وكلنا نعيش برحمات الله، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله، والنعم والخبرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان، والاطمئنان نعمة كبرى، فمن يعش في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل

---

(١) أخرجه مسلم.

من هذه الحياة، فهذا لون عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء.

والدعاء حين تدعوه لمحمد ﷺ بالخير وبالرحمة وبالبركة هو دعاء لك، لماذا؟ لأن كل منزلة ينالها رسول الله ﷺ عائدة لأمته وللعالم أجمع.

فمن الذي يشفع عند الله في يوم الحشر ليعجل الله بالفصل بين الخلائق؟ إنه رسول الله ﷺ .

إذن فكل خير يناله رسول الله ﷺ هو خير لأمته، فإذا دعوت له فكأنك تدعو لنفسك إنك عندما تصلي عليه مرة يصلي الله عليك عشرًا.

أليس في ذلك خير لك؟!

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

والمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل للغاية، والغاية هي صلوات من ربهم ورحمة، وأنت الآن متمتع بنعم الله بأسباب الله، وعند الله في الآخرة سوف تتمتع بإذن الله بنعم الله وبلقاء الله.

❁ ❁ ❁ ❁

[١٣] نهي المرأة عن كفران العشير

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ:

«أُريتُ النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن».

قيل: أيكفرن بالله؟ قال: **«يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»**(١).

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: مر بنا رسول الله ﷺ ونحن في نسوة، فسلم علينا، وقال: **«إياكن وكفر المنعمين»**.

فقلنا: يا رسول الله، وما كفر المنعمين؟ قال: **«لعل إحداكن تطول أيمتها بين أبويها، وتعنس، فيرزقها الله ﷻ زوجا، ويرزقها منه مالاً وولدا، فتغضب الغضبة، فراحت تقول: ما رأيت منه يومًا خيرًا قط»**(٢).



[١٤] نهي النساء عن النّوح

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) حسن: أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٦/٥٢).
(٣) أخرجه مسلم.

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»[١].

* * * *

[١٥] نهي المرأة أن تصف المرأة لزوجها

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[٢].

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله[٣]:

«نُهى عن هذا لأن الرَّجُل إذا سمع وصف المرأة تحركت همته، واشتغل قلبه، والنفس مولعة بطلب الموصوف بالحسن، فربما كانت الصفة داعية إلى تطلب الموصوف بالحسن، وربما وقع من اللهج بالطلب لذلك ما يقارب العشق». ا.هـ.

* * * *

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) «أحكام النساء» (ص ٦٣).

[١٦] النهي عن إيتان العرافين والكهان

روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن صفية بنت أبي عبيد، عن بعض أزواج النبي ﷺ قال:

«من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه، لم تُقْبَل له صلاة أربعين يومًا».

هذا بالإضافة إلى أضرار أخرى، منها:

- هتك الأعراض.
- إضاعة المال.
- تصديق الشيطان.
- قطع الأرحام.
- إلقاء العداوة والبغضاء بين المسلمين.

لذا نهى الإسلام عن إيتان هؤلاء الكهان، وحذر من اتباعهم، وبين لنا أن من يقوم بهذا العمل كافر.

قال الحق سبحانه:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال الإمام **الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية والتي تليها – ما مختصره –:

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين. لأن النبذ يقابله الاتباع. واتبعوا يعني اقتدوا وجعلوا طريقهم في الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان. وكان السياق يقتضي أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان. ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين.

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين على ملك سليمان، ونظرًا لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا.

الحق سبحانه يقول: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ ولكن الشياطين تلت وانتهت. واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه. الشياطين هم العصاة من الجن. والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون. واقرأ قوله تعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

وقوله سبحانه عن الجن:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤].

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر. والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي. والشياطين هم مردةُ الجن المتمردون على منهج الله. وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانًا. سواء كان من الجن أو من الإنس. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله. قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ يعني ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان.

ولكن ما هي قصة مُلك سليمان والشياطين؟

الشياطين كانوا قبل مجيء رسول الله ﷺ كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلى أوامر السماء وهي نازلة إلى الأرض. وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات. فبعضها يكون على حق والأكثر على باطل. ولذلك قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع، ولكن عند بعث رسول الله ﷺ امتنع ذلك كله، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم في منهج رسول الله ﷺ أو في القرآن. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

أي أن الشياطين كانت لها مقاعد في السماء تقعد فيها لتستمع إلى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه. ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب - وهي النجوم المحترقة - فعندما تحاول الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم. ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابًا يحترق في السماء بسرعة يقولون: سهم الله في عدو الدين. كأن المسألة في أذهان

الناس جعلتهم يقولون: سهم الله في عدو الدين. الذي هو الشيطان.

واقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن: ٨].

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

أي أن الأمر اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع. ولذلك لم يعرفوا هل الذي ينزل من السماء خير أم شر؟ انظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها. فالله تبارك وتعالى في هذه الحالة – وهي اتباع اليهود لما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويذ والأشياء التي تضر ولا تفيد – أراد أن يبرئ سليمان من هذا كله. فقال جل جلاله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾.

وكان المنطق يقتضي أن يخص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرئ سليمان من الكفر الذي أرادوا أن ينشروه. ولكن الله أراد أن ينفي تهمة الكفر عن سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر. وكيف كفر الشياطينُ وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر؟ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ما هي قصة كل هذا؟ اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين أيام سليمان، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين. والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرئ سليمان من هذه الكذبة. سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكًا لا يعطيه لأحد من بعده . واقرأ قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٥- ٣٨].

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك . حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفرًا بالسحر و كتبه.

فأخذ سليمان كل كتب السحر، وقيل أنه دفنها تحت عرشه . وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مخبأ كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس . وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن، وأنها كانت منهجه، وأشاعوها بين الناس. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبرئ سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر الكفر. قال جل جلاله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ .

ما هو السحر؟ الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار. حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح.

والسحر يؤدي لاختلال التوازن في الكون. لأن الساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك. الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن. يدعي أنه يفعل ذلك لينشر الخير في الكون، ولكنها ليست حقيقة. لأن هذا يغريه على الطغيان. والذي يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس. إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله اختل التوازن في المجتمع. والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون. ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشياطين في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون.

ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته . ولا يحسب أنه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض. ولقد كانت معصية إبليس في أنه رفض أن يسجد لآدم. إنه قال:

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصي، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين، ما يجعل هذا الأعلى في العنصر - وهو الشيطان - يخضع للأدنى وهو الإنسان، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم. ولكنه بمشيئة الله سبحانه وتعالى. فأرسل الملكين ببابل هاروت وماروت ليعلما الناس السحر الذي يخضع الأعلى عنصرًا للأدنى.

واقرأ قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فالله تبارك وتعالى أرسل الملكين

هاروت وماروت ليعلما الناس السحر. ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة. ولكن ما دام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر. فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين. وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان؟ فاختاروا هاروت وماروت. وعندما نزلا إلى الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر. هذه القصة رغم وجودها في بعض كتب التفسير فهي ليست صحيحة. لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله. ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما كُلِّف به من الله جل جلاله. وهذان الملكان كلفا بأن يعلما الناس السحر. وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدي إلى الكفر وقد فعلا ذلك.

والفتنة هي الامتحان. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

إذن: فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنة تؤدي إلى الكفر. وإنها لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق بين الزوج وزوجه. وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله. فليس هناك أي قوى في هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى.

ثم يأتي قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع فهو لا يجلب نفعًا أبدًا حتى لمن يشتغل به. فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه على غيره من البشر فهم أفضل منه. وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يغريه بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالاً، وتجد شكله غير طبيعي وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين. وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرًا لا يملك شيئًا وتصيبه الأمراض المستعصية، ويصبح عبرة في آخر حياته.

إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله في آخر حياة الساحر. والذي يشتغل بالسحر يموت كافرًا ولا يكون له في الآخرة إلا النار. ولذلك لقد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك. لأهم لم يأخذوا شيئًا إلا الضر. ولم يفعلوا شيئًا إلا التفريق بين الناس. وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدًا إلا بإذن الله.

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاهما. فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر. ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه. لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه في الشر. كما أن الشياطين التي يستعين بها الساحر غالبًا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرًّا عليه وعلى أولاده. واقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

[الجن: ٦].

أي أن الذي يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانًا من العذاب.

ويتابع الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة. لقد بين لهم أن السحر كفر، وأن من يقوم به يبعث كافرًا يوم القيامة ويخلد في النار. وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم امتيازًا في الضرر والإيذاء. لكان ذلك خيرًا لهم عند الله تبارك وتعالى. لأن الملكين اللذين نزلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

إذن فممارسة السحر كفر. فلو أنهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون في الكفر، واتقوا الله لكان ذلك ثوابًا لهم عند الله وخيرًا في الدنيا والآخرة. ولكن ما هي المثوبة؟ هي الثواب على العمل الصالح. يقابلها العقوبة وهي العقاب على العمل السيئ. وهي مشتقة من ثاب أي رجع. ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام في الصلاة المثوب. لأن الإمام يقول الله أكبر فيرددها المُبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام. وهذا اسمه التثويب. أي إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام. وكما قلنا فهي مأخوذة من ثاب أي رجع. لأن الإنسان عندما يعمل صالحًا يرجع عليه عمله الصالح بالخير. فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود. ولكنه لابد أن يعود عليك بالخير». ا.هـ.

❁ ❁ ❁ ❁

فتوى للعلامة ابن باز - رحمه الله -

في حكم سؤال السحرة والعرافين

سؤال:

الأخ صالح علوي بشر من - الرياض - يقول في سؤاله: «يوجد في بعض جهات اليمن أناس يسمون (السادة) وهؤلاء يأتون بأشياء منافية للدين مثل الشعوذة وغيرها. ويدعون أنهم يقدرون على شفاء الناس من الأمراض المستعصية ويبرهنون على ذلك بطعن أنفسهم بالخناجر أو قطع ألسنتهم ثم إعادتها دون ضرر يلحق بهم. وهؤلاء منهم من يصلي ومنهم من لا يصلي. وكذلك يحلون لأنفسهم الزواج من غير فصيلتهم ولا يحلون لأحد الزواج من فصيلتهم، وعند دعائهم على المرضى يقولون: (يا الله يا فلان) أحد أجداداهم. وفي القديم كان الناس يكبروهم ويعتبروهم أناسًا غير عاديين وأنهم مقربون إلى الله بل يسموهم رجال الله والآن انقسم الناس فمنهم من يعارضهم وهم فئة الشباب وبعض المتعلمين ومنهم من لا يزال متمسكًا بهم وهم كبار السن وغير المتعلمين. نرجو من فضيلتكم بيان الحقيقة في هذا الموضوع؟».

الجواب:

هؤلاء وأشباههم من جملة الذين لهم أعمال منكرة وتصرفات باطلة وهم أيضًا من جملة العرافين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**». وذلك بدعواهم علم الغيب وخدمتهم للجن فلا يجوز إتيانهم ولا سؤالهم بهذا الحديث الشريف ولقوله ﷺ: «**من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

وفي لفظ آخر: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ**». وأما دعاؤهم غير الله واستغاثتهم بغير الله أو زعمهم أن آباءهم وأسلافهم يتصرفون في الكون أو يشفون المرضى أو يجيبون الدعاء مع موتهم أو غيبتهم فهذا كله من الكفر بالله عز وجل وكله من أعمال المشركين فالواجب الإنكار عليهم وعدم إتيانهم وعدم سؤالهم وعدم تصديقهم، لأنهم قد جمعوا في هذه الأعمال بين عمل الكهنة والعرافين وبين عمل المشركين عباد غير الله والمستغيثين بغير الله والمستعينين بغير الله من الجن والأموات وغيرهم ممن ينتسبون إليهم ويزعمون أنهم أباؤهم وأسلافهم أو من أناس آخرين يزعمون أن لهم ولاية أو لهم كرامة بل كل هذا من أعمال الشعوذة ومن أعمال الكهانة والعرافة المنكرة في الشرع المطهر.

وأما ما يقع منهم من التصرفات المنكرة من طعنهم أنفسهم بالخناجر أو قطعهم ألسنتهم فكل هذا تمويه على الناس وكله من أنواع السحر المحرم الذي جاءت النصوص من الكتاب والسنة بتحريمه والتحذير منه. فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بذلك وهذا من جنس ما قال الله سبحانه وتعالى عن سحرة فرعون:

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه: ٦٦].

فهؤلاء قد جمعوا بين السحر وبين الشعوذة والكهانة، والعرافة وبين الشرك الأكبر والاستعانة بغير الله والاستعانة بغير الله وبين دعوى علم الغيب والتصرف في علم الكون وهذه أنواع كثيرة من الشرك الأكبر والكفر البواح ومن أعمال الشعوذة التي حرمها الله ﷻ ومن دعوى علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله كما قال سبحانه:

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥].

فالواجب على جميع المسلمين العارفين بحالهم الإنكار عليهم وبيان سوء تصرفهم وأنه منكر وأن أعمالهم شركية وكفرية وفيها من الشعوذة والكهانة والعرافة ما فيها من دعوى علم الغيب ما فيها وهذه أنواع كلها أنواع ضلال وأنواع كفر وباطل، يجب الحذر منه والحذر من أهله. وأما كونهم لا يزوجون بناتهم لغيرهم ويستحلون الزواج من غيرهم فهذا أيضًا جهل وضلالة لا وجه له ولا أصل له في الشرع. وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

ولو كانوا من السادة أو من بني هاشم فليس لهم أن يحرموا بناتهم على غيرهم بل هذا منكر يخالف ما صح عن رسول الله ﷺ، فقد زوج عليه الصلاة والسلام زينب ابنة عمته زيد بن حارثة وهي أسدية وزوَّج فاطمة بنت قيس أسامة بن زيد وهي قرشية وزوَّج علي رضي الله عنه أم كلثوم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ليس من بني هاشم بل هو من بني عدي.

والوقائع في هذا كثيرة تدل على بطلان ما عليه هؤلاء وأنهم مخالفون لما عليه سلفهم، فالواجب نصيحتهم وتحذيرهم من مخالفة أمر الله وأمرهم بالتوبة إلى الله سبحانه من جميع ما خالفوا فيه الشرع المطهر نسأل لنا ولهم الهداية». ا.هـ.

* * * *

العلاج الشرعي للسحر

قال الشيخ/ **ابن باز** - رحمه الله -[١]:

نظرًا لكثرة المشعوذين في الآونة الأخيرة ممن يدعون معرفة الطب ويعالجون عن طريق السحر أو الكهانة وانتشارهم في بعض البلاد واستغلالهم للسذج من الناس ممن يغلب عليهم الجهل. رأيت من باب النصيحة لله ولعباده أن أبين ما في ذلك من خطر عظيم على الإسلام والمسلمين لما فيه من التعلق بغير الله تعالى ومخالفة أمره وأمر رسوله ﷺ فأقول مستعينًا بالله تعالى: يجوز التداوي اتفاقًا وللمسلم أن يذهب إلى دكتور أمراض باطنية أو جراحية أو عصبية أو نحو ذلك ليشخص له مرضه ويعالجه بما يناسبه من الأدوية المباحة شرعًا حسبما يعرفه في علم الطب لأن ذلك من باب الأخذ بالأسباب العادية ولا ينافي التوكل على الله.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى الداء وأنزل معه الدواء عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله ولكنه سبحانه لم يجعل شفاء عباده فيما حرمه عليهم.

فلا يجوز للمريض أن يذهب إلى الكهنة الذين يدعون معرفة المغيبات ليعرف منهم مرضه. كما لا يجوز له أن يصدقهم فيما يخبرونه به فإنهم يتكلمون رجمًا بالغيب أو يستحضرون الجن ليستعينوا بهم على ما يريدون وهؤلاء شأنهم الكفر والضلال لكونهم يدعون أمور الغيب.

وقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**».

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد**

---

(١) نقلا عن جريدة «المسلمون»، العدد السابع - رجب ١٤٠٥هـ.

كفر بما أنزل على محمد ﷺ». رواه أبو داود وأخرجه أهل السنن الأربع وصححه الحاكم عن النبي ﷺ بلفظ: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ**».

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد**». رواه البزار بإسناد جيد.

ففي هذه الأحاديث الشريفة النهي عن إتيان العرافين وأمثالهم وسؤالهم وتصديقهم والوعيد على ذلك فالواجب على ولاة الأمور وأهل الحسبة وغيرهم ممن لهم قدرة وسلطان إنكار إتيان الكهان والعرافين ونحوهم ومنع من يتعاطى شيئًا من ذلك في الأسواق وغيرها والإنكار عليهم أشد الإنكار. والإنكار على من يجيء إليهم.

ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يأتي إليهم ممن ينتسب إلى العلم فإنهم غير راسخين في العلم بل من الجهال لما في إتيانهم من المحذور لأن الرسول ﷺ قد نهى عن إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم لما في ذلك من المنكر العظيم والخطر الجسيم والعواقب الوخيمة ولأنهم كذبة فجرة.

كما أن في هذه الأحاديث دليلاً على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ولأنهما لا يتوصلان إلى مقصدهما إلا بخدمة الجن وعبادتهم من دون الله وذلك كفر بالله وشرك به سبحانه والمصدق لهم بدعواهم علم الغيب ويعتقد بذلك يكون مثلهم. وكل من تلقى هذه الأمور عمن يتعاطاها فقد بريء منه رسول الله ﷺ.

ولا يجوز للمسلم أن يخضع لما يزعمونه علاجًا كنمنمتهم بالطلاسم أو

صب الرصاص ونحو ذلك من الخرافات التي يعملونها فإن هذا من الكهانة والتلبيس على الناس ومن رضى بذلك فقد ساعدهم على باطلهم وكفرهم.

كما لا يجوز أيضًا لأحد من المسلمين أن يذهب إلى من يسأله من الكهان ونحوهم عمن سيتزوج ابنه أو قريبه أو عما يكون بين الزوجين وأسرتيهما من المحبة والوفاء أو العداوة والفراق ونحو ذلك لأن هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

والسحر من المحرمات الكفرية؛ كما قال الله ﷻ في شأن الملكين في سورة (البقرة):

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فدلت هذه الآية الكريمة على أن السحر كفر وأن السحرة يُفرقون بين المرء وزوجه كما دلت على أن السحر ليس بمؤثر لذاته نفعًا ولا ضرًّا وإنما يؤثر بإذن الله الكوني القدري لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخير والشر.

ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ولبسوا بها على الضعفاء العقول فإنا لله وإنا إليه راجعون وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كما دلت الآية الكريمة على أن الذين يتعلمون السحر إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم وأنه ليس لهم عند الله من خلاق. أي: من حظ ونصيب. وهذا وعيد عظيم يدل على شدة خسارتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم باعوا

أنفسهم بأبخس الأثمان. ولهذا ذمهم الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله:

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والشراء هنا بمعنى البيع. نسأل الله العافية والسلامة من شر السحرة والكهنة وسائر المشعوذين كما نسأله سبحانه أن يقي المسلمين شرهم وأن يوفق المسلمين للحذر منهم وتنفيذ حكم الله فيهم حتى يستريح العباد من ضررهم وأعمالهم الخبيثة إنه جواد كريم.

وقد شرع الله سبحانه لعباده ما يتقون به شر السحر قبل وقوعه وأوضح لهم سبحانه ما يعالجونه به بعد وقوعه رحمة منه لهم وإحسانًا منه إليهم وإتمامًا لنعمته عليهم. وفيما يلي بيان للأشياء التي يتقي بها خطر السحر قبل وقوعه والأشياء التي يعالج بها بعد وقوعه من الأمور المباحة شرعًا.

أما النوع الأول: وهو الذي يتقى به خطر السحر قبل وقوعه فأهم ذلك وأنفعه هو التحصن بالأذكار الشرعية والدعوات والتعوذات المأثورة ومن ذلك قراءة آية الكرسي خلف كل صلاة مكتوبة بعد الأذكار المشروعة بعد السلام، ومن ذلك قراءتها عند النوم، وآية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم وهي قوله سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن ذلك قراءة قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، خلف كل صلاة مكتوبة وقراءة السور الثلاث ثلاث مرات في أول

النهار بعد صلاة الفجر وفي أول الليل بعد صلاة المغرب.

ومن ذلك قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة في أول الليل وهما قوله تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح**».

وصح عنه أيضًا ﷺ أنه قال: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**». والمعنى والله أعلم كفتاه من كل سوء ومن ذلك الإكثار من التعوذ (بكلمات الله التامات من شر ما خلق) في الليل والنهار وعند نزول أي منزل في البناء أو الصحراء أو الجو أو البحر لقول النبي ﷺ: «**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**».

ومن ذلك أن يقول المسلم في أول النهار وأول الليل ثلاث مرات «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم». لصحة الترغيب في ذلك عن رسول الله ﷺ وأن ذلك سبب للسلامة من كل سوء.

وهذه الأذكار والتعوذات من أعظم الأسباب في اتقاء شر السحر وغيره من الشرور لمن حافظ عليها بصدق وإيمان وثقة بالله واعتماد عليه وانشراح صدر لما

دلت عليه وهي أيضًا من أعظم الأسلحة لإزالة السحر بعد وقوعه مع الإكثار من الضراعة إلى الله وسؤاله سبحانه أن يكشف الضرر ويزيل البأس.

ومن الأدعية الثابتة عنه ﷺ في علاج الأمراض من السحر وغيره وكان ﷺ يرقى به أصحابه «**اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا**». ومن ذلك الرقية التي رقى بها جبرائيل النبي ﷺ وهي قوله: «**بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك**». وليكرر ذلك ثلاث مرات ومن علاج السحر بعد وقوعه أيضًا وهو علاج نافع للرجل إذا حبس من جماع أهله أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر فيدقها بحجر أو نحوه ويجعلها في إناء ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل ويقرأ فيها (آية الكرسي، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس)، وآيات السحر التي في سورة (الأعراف) وهي قوله سبحانه:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١١٩].

والآيات التي في سورة يونس وهي قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس: ٧٩ - ٨٢].

والآيات في سورة (طه):

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٥ - ٦٩].

وبعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب بعض الشيء ويغتسل بالباقي وبذلك يزول الداء إن شاء الله تعالى وإن دعت الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء ومن علاج السحر أيضًا - وهو من أنفع علاجه - بذل المجهود في معرفة موضع السحر في أرض أو جبل أو غير ذلك فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر هذا ما تيسر بيانه من الأمور التي يتقي بها السحر ويعالج بها والله ولي التوفيق.

وأما علاجه بعمل السحرة الذي هو التقرب إلى الجن بالذبح أو غيره من القربات فهذا لا يجوز لأنه من عمل الشيطان بل من الشرك الأكبر؛ فالواجب الحذر من ذلك كما لا يجوز علاجه بسؤال الكهنة والعرافين والمشعوذين واستعمال ما يقولون لأنهم لا يؤمنون ولأنهم كذبة فجرة يدعون علم الغيب ويلبسون على الناس. وقد حذر الرسول ﷺ من إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم، كما سبق بيان ذلك في أول هذه الرسالة والله المسئول أن يوفق المسلمين للعافية من كل سوء وأن يحفظ عليهم دينهم ويرزقهم الفقه فيه والعافية من كل ما يخالف شرعه وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

* * * *

دعاء الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -

للوقاية من السِّحر

قال رحمه الله في معرض حديثه عن حديث سحّر لبيد بن الأعصم – اليهودي – للنبي ﷺ :

«إذا كنا سنتحدث عن رسول الله ﷺ والسحر، فلابد قبل أن نبدأ الحديث بأن نقول: إن رسل الله جميعًا من البشر وماداموا من البشر فإنه تحكمهم قوانين البشر، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر عجز خلقه أمام قوته وقدرته فإنه يمكنهم من رسوله ثم يعجزون أن ينالوا من الرسول.

فمثلاً حين قرر قوم إبراهيم عليه السلام أن يحرقوه في النار، كان هذا محاولة لحرق رسول من رسل الله، وكان من الممكن أن ينجو إبراهيم عليه السلام بعدة طرق: أولها أن يخفيه الله عن أعين الكفار فلا يرونه، أو يوحي إليه بمكان مخبأ أمين لا يصلون إليه ولا يخطر على بالهم، أو أن يأتي به الكفار فينزل المطر فيطفئ النار وينجو إبراهيم عليه السلام، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل الكفار يعثرون على إبراهيم، وجعلهم يمسكون به ويلقونه في النار، وجعل النار مستعرة، لا ينزل عليها مطر ليطفئها، ثم تمت المعجزة، وقال الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

حدث هذا ليعرف الناس، كل الناس، أن إبراهيم عليه السلام وضعه الكفار في النار، وأن النار لم تحرقه؛ ولأن إبراهيم بشر يخضع لقوانين البشر، فهو إذا ألقى به في النار فلابد أن يحترق، ولو كان مثلا إبراهيم ملكًا، فقد كان من الممكن

ألا تحرقه النار، فخزنة جهنم من الملائكة. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾

[المدثر: ٢٩ - ٣١].

وهكذا نعرف أن الملائكة لا يحترقون بالنار؛ ولذلك لو كان إبراهيم ملكًا، لما كانت هناك معجزة، في أن يلقى في النار ولا يحترق.

ونأتي إلى رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري في «صحيحه» (١٠/١٩٢)، ومسلم في «صحيحه» (٤/١٧١٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت:

سَحَرَ رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا، ثم قال:

«يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه: جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رِجْلَيَّ أو الذي عند رِجلَيَّ للذي عند رأسي: ما وجعُ الرجل؟ قال: مطبوبٌ، أي مسحور، قال: مَن طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مُشط ومُشَاطَة، وجُفِّ طلعة ذكر، قال: فأين هُو؟ قال: في بئر ذي أروان» قالت: فأتاها رسولُ الله ﷺ في أُناس من أصحابه، ثم قال: **«يا عائشة والله لكأنَّ ماءها نُقَاعَةُ الحِنَّاء، ولكأنَّ نَخلَهَا رُءوسُ الشياطين»** قالت: فقلتُ: يا رسول الله أفلا أحرقتَهُ؟ قال: **«لا أمَّا أنا فقد عافاني الله وكَرِهتُ أن أُثيرَ على الناس شرًا، فأمرتُ بها فَدُفِنَت»**.

إلى هنا وينتهي الحديث الذي ورد في البخاري ومسلم، عما حدث لرسول الله ﷺ، وقد أثار هذا الحديث جدلاً كبيرًا بين العلماء.

ونحن نقول: المهم هو توثيق الحديث .. أما كونهم سحروا رسول الله ﷺ فلا

شيء في ذلك: الله تبارك وتعالى تحدى الإنس والجن في القرآن الكريم، فقال ﷻ:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

إذن فالتحدي في القرآن الكريم هو للإنس والجن، ماذا فعل الإنس؟ وماذا فعل الجن؟

الإنس قاوموا رسول الله وآذوه وعادوه، وعذبوا المؤمنين وجاهروا بالعداء للدين، وحاولوا منع الناس من الإيمان، وتآمروا على قتل الرسول ﷺ وأحبط الله أعمالهم في كل هذا.

إذن الإنس فشل سواء في مجاهرته بالعداء والأذى، أو في تبييته وتآمره في الخفاء.

بقى أن يستخدم الإنس قوة أخرى يستعين بها، بشرط أن تكون أقوى من الإنس وأكثر قدرة، أي أن هذه القوة التي يستعان بها لابد أن تكون من جنس آخر غير الإنسان، لأن قوى الإنسان فشلت أمام مواجهة الدعوة لدين الله، والتآمر على رسوله ﷺ.

وكانت هذه القوة هي قوة الجن، فأراد الله ﷻ أن يتحداهم بفشل قوة الجن أيضًا، ليعرف الناس جميعًا، أن قوة الإنس لن تنال من رسول الله ﷺ وأن قوة الجن لن تنال أيضًا من رسول الله ﷺ ماذا فعلوا؟

استعانوا بالسحر، فدله الحق سبحانه وتعالى على أنهم سحروه، وأرشده جل

جلاله إلى مكان السحر، وأبلغه عمن قام بسحره، لتعرف الدنيا كلها أنهم لن يقدروا على محمد ﷺ سواء جاهروه بالعداء أو أخفوا هذا العداء وتآمروا عليه لقتله، أو استعانوا بجنس آخر هو الجن، لأن الله سبحانه وتعالى الذي أرسله يكشف له ما يحدث ويبطل كيد الذين يتآمرون، سواء كانوا إنسًا أو جنًّا.

إذن كون محمد ﷺ سحره اليهود، هذا ليس اتهامًا ضده، ولكنه تحد للإنس والجان بأن يفعلوا أقصى ما يستطيعون ضد رسول الله ﷺ والله جل جلاله سينصره عليهم، والله سبحانه وتعالى قد أدخل الجن في التحدي بالنسبة للقرآن ومنهج الإسلام.

وكان لابد تحقيقًا لهذه الآيات الكريمة، التي تحدت الإنس والجن، أن يتم تحد حقيقي لقوى الجان، فيحاولون النيل من رسول الله ﷺ ويفشلون.. وأن يكون هذا معروفًا.. ليس للجن وحدهم.. ولكن للإنس والجن. لأن رسول الله ﷺ مرسل للاثنين، الإنس والجن، فلابد أن يعرفوا أن كيد الإنس والجن مجتمعين لن ينالوا منه شيئًا.

ولو أن هذا السحر حدث خفية، وليس علنًا بحيث عرف به الناس، لقالوا إن القرآن قد تحدى الإنس والجن، والإنس دخلوا في التحدي وفشلوا، ولكن الجن لم يدخلوا، وربما لو كانوا قد دخلوا في التحدي لنجحوا، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يُثبتَ لهم أن الجن لو دخلوا في التحدي لفشلوا.

على أننا يجب أن نلتفت إلى أن الإنس والجن تآمروا على رسول الله ﷺ مرات، وأن المؤامرة لقتل رسول الله ﷺ في ليلة الهجرة شاركت في اجتماعات تدبيرها الشياطين من الإنس والجن، والله سبحانه وتعالى شاء أن يتحدى كل ما دبروه لرسول الله ﷺ في الخفاء.

وكان الأسلوب لابد أن يكون ظاهرًا فيه القدرة الإلهية.. التي تحفظ رسول

الله ﷺ فلم يشأ الحق تبارك وتعالى أن يخفي رسوله ﷺ في مكان أمين لا يصل إليه الكفار. فأبقاه في بيته وعرف الكفار أنه في بيته.

ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يجعل رسوله ﷺ يخرج من البيت قبل أن يصل إليه الرجال الأشداء. الذين اختيروا لتنفيذ مؤامرة قتل رسول الله ﷺ بل وصل هؤلاء الرجال. وأحاطوا ببيت رسول الله ﷺ والرسول موجود في البيت.. وهكذا اكتملت كل أركان المؤامرة.

رسول الله ﷺ نائم في بيته. والرجال الذين جاءوا لقتله يحاصرون البيت. ثم ماذا حدث؟ حين خرج رسول الله ﷺ من بيته. سلب الله الأبصار من عيون الرجال الذين جاءوا لقتل رسول الله ﷺ وألقى عليهم النوم، وأمسك رسول الله ﷺ بحفنة من التراب وقذف بها وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**»، ولم يتحرك أحد منهم. ولم يحس بأن رسول الله ﷺ يمر بينهم في طريقه إلى الغار.

وكان هذا الإعجاز الإلهي.. هو التحدي الحقيقي للكفار.. فلو أن رسول الله ﷺ اختفى في مكان لا يعرفونه. لقالوا: لو وجدناه لقتلناه. ولو أنه ﷺ خرج من بيته قبل أن يصل الكفار الذين أعدوا لقتله. لقالوا: لو وصلنا وهو في بيته لقتلناه.. لقد عرفوا مكانه وهو نائم في فراشه. ولكنهم عجزوا عن قتله. وخرج ﷺ سالما.

كذلك قصة السحر. فلو أنهم لم يستعينوا بالسحر والجان. لقالوا لو استعنا بالسحر لكانت لنا الغلبة عليه. ولو أن الحق سبحانه وتعالى أبطل السحر قبل أن يقع.. لقالوا: لو أن السحر لم يبطل لكان لنا معه شأن آخر.

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يستعان عليه بالسحر والجان. وأن تسحر عينا رسول الله ﷺ. كما سُحِرَت عينا موسى من قبل. ثم يدله الله جل

جلاله على مكان السحر ليبطله. وعلى من قام بالسحر ليعرفه المسلمون جميعًا.

إذن: هذه مسألة ليست على رسول الله ﷺ وإنما هي له. وهي تثبت لنا أن الجن قد دخلوا في التحدي ضد الرسول الكريم. وأن الله جل جلاله نصره عليهم.

على أن السحر الذي تعرض له رسولنا الكريم ﷺ كان من نفس نوع السحر الذي تعرض له موسى الطَّيْلا. وهو سحر التخيل.. الذي يؤثر على العين وحدها ولا يؤثر على العقل أو القلب ولا باقي أعضاء الجسم. أي أن التخيل بالبصر فقط.

ولعلنا بذلك نكون قد أوضحنا خواطرنا حول ما فهمناه من قصة سحر رسول الله ﷺ.

نأتي بعد ذلك إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى كان رحيما بعباده، فإنه وإن كان قد أعطى بعض خلقه القدرة على الاستعانة بالشياطين في إيذاء البشر، فإنه قد احتفظ لنفسه سبحانه وتعالى بإذن الضر، وطلب منا أن نستعيذ به من السحر. وقد أخذنا دعاء من نص الآية السابق ذكرها للوقاية من السحر والحسد.

«اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر، ولكنك احتفظت لذاتك بإذن الضر. فأعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه بحق قولك:

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]».

وقد يتساءل الناس، كيف يمكن أن يخيب السحر؟ نقول: إن هذا يحدث في حياتنا المادية؛ لنفرض أن إنسانًا يريد أن يقتلني، أعطاه الله القدرة على أن

يشتري المسدس الذي سيقتلني به، وأعطاه القدرة أن يتعلم كيفية إطلاق النار، وأقدره الله أن يواجهني في مكان خال ليس فيه أحد. إذن: فقد أعطاه الله كل الأسباب، ولكن هل معنى إعطاؤه هذه الأسباب أنه قادر على أن يقتلني؟

نقول لا، لأنه قد تهتز يده لحظة إطلاق النار فلا تصيبني الرصاصة، وقد أتحرك أنا بإلهام من الله يمينًا أو يسارًا، فتطيش الرصاصة وقد أنحني فجأة، أو أقفز فجأة، أو يعوي كلب فجأة بصوت مخيف، فيدخل الرعب في قلبه وفي قلبي فلا يتم شيء.

وهناك أمثلة كثيرة في الحياة. ألا نسمع عن قاتل ذهب ليقتل شخصا فأخطأه في الظلام وقتل إنسانا آخر. أو حاول أن يضرب شخصًا ما، فجاء شخص آخر متدخلا لتحدث المشاجرة بينهما ولا يحدث للمقصود بالضرب شيء.

ولذلك لابُدَّ أن نلتفت إلى أنه إذا تكاملت الأسباب وحدها، فليس معنى هذا ضرورة وقوع الشيء؛ لأنه فوق كل الأسباب إرادة المسبب، وهي التي تجعل الشيء يقع أو لا يقع، مهما تكاملت الأسباب.

فقد تغرق سفينة في البحر، وتكون الأسباب متكاملة ليغرق كل ركابها، ولكن إرادة الحق تشاء أن يمسك شخص أو شخصان ببرميل طافٍ يأخذهما إلى الشاطئ.

وقد يتهدم بيت ويُقتل كل من فيه، ولكن عرقا من الخشب يحمي حياة رَجُلٌ نائم تحته، فهذا العرق يكون السبب في وصول الهواء، ومنع الأنقاض من أن تهشم رأس الرَّجُل.

وقد ينهار بيت على مجموعة من السكان ويأتي رجال الإنقاذ ليخرجوا

بعضهم أحياء وبعضهم أموات، مع أنهم كانوا يعيشون في بيت واحد، وتعرضوا لنفس الظروف. وآلاف الأمثلة الأخرى تؤكد أن إذن الله هو الفاعل مع اكتمال الأسباب المادية. وإذن الله هو الفاعل أيضًا مع اختفاء الأسباب المادية.

فقد يكون الإنسان في مكان هو أبعد فيه ما يكون عن الخطر، ثم تأتي رصاصة طائشة لا تعرف من أين فتقتله. وقد يدخل إلى مكان ليحتمي فيه من خطر محتمل، كأن يدخل مغارة أو كهفًا أو بدرومًا ليحتمي من شخص يطارده ويريد إيذاءه، فيجد في هذه المغارة ثعبانا أو وحشًا يقتله. أو يظن صاحب البدروم أنه لص يريد إيذاءه فيطلق عليه الرصاص.

إذن: هو نجا من خطر متوقع أو محتمل، ليواجه خطرًا واقعًا. إن على الإنسان المؤمن دائمًا أن يتذكر قدرته المحدودة، وقدرة الله التي هي بلا حدود، فلا يستسلم لوهم أن هناك إنسانًا أو شيطانا قادر على يصيبه بالأذى أو يضره، بعيدًا عن قدرة الله سبحانه وتعالى.

إن الحق جل جلاله يلفتنا إلى أن السحر أو غير السحر، لن يضر أحدًا إلا بإذن الله، وأن الضر لا يقع إلا إذا أراده الله.

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولقد تحدثنا عن أن السحر يضر الساحر والمسحور. وبينا كيف أن الساحر يصاب بالكوارث ويموت ذليلاً. تملأه المرارة والحزن والتشرد والفقر والخيبة الكاملة. لقد قال الملكان اللذان علما الناس السحر، لكل من رغب في تعلمه:

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

ولكن الإنسان الظلوم الجهول، قد أقبل على تعلم السحر ظنًا منه أنه اشترى شيئًا يكسب منه المال، وهو لا يدري أنه قد باع نفسه بَشرٍّ ثمن، وأنه أخذ الضر، وخسر الدنيا والآخرة.

إن السحر لا يزيد فرصة الإنسان في الحياة، بل يؤدي إلى الكفر، ويؤدي إلى فقدان الدنيا والآخرة؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن الذين يمارسون السحر، قد اشتروا أسوأ ما في الدنيا، وباعوا أنفسهم ليأخذوا الكفر والفقر وعذاب الآخرة.

إلى هنا نكون قد تحدثنا، عن واقعة السحر التي تعرض لها رسول الله ﷺ وبينا أن موسى عليه السلام سحر أثناء مواجهته لسحرة فرعون، وأن الله سبحانه وتعالى ثبته، وأن مسألة تعرض رسولنا ﷺ للسحر كانت من تمام تحدي هذا الدين للجان، وأن الله دل رسوله على من قام بالسحر ومكان السحر، وأن هذا للرسول ﷺ وليس عليه.

ثم أوضحنا أن الحق سبحانه وتعالى احتفظ بإذن الضر من السحر لنفسه فلا يقع الضر من ساحر على مسحور إلا بإذن الله.

* * * *

[١٧] نهي المرأة عن النظر إلى عورة المرأة

أو مباشرتها في الثوب الواحد

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله قال:

« **لا ينظر الرَّجُل إلى عورة الرَّجُل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرَّجُل إلى الرَّجُل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد** »[١].

قال الإمام النووي – رحمه الله – :

«فيه تحريم نظر الرَّجُل إلى عورة الرَّجُل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه».

وقال: وأما قوله ﷺ : «**ولا يفضي الرَّجُل إلى الرَّجُل في ثوب واحد**»، وكذلك المرأة مع المرأة، فهو نهي تحريم إذا لم يكن بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه، وهذا مما تعم به البلوى، ويتساهل فيه كثير من الناس باجتماع الناس في الحمام، فيجب على الحاضر فيه أن يصون بصره ويده وغيرها من عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره، ويد غيره من قيِّم وغيره، ويجب عليه إذا رأى من يخل بشيء من هذا أن ينكر عليه»[٢].أ.هـ.

❀❀❀❀

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) «صحيح مسلم» بشرح النووي (٦٤١/١، ٦٤٢).

[١٨] نهى المرأة عن الخروج من بيتها

لغير ضرورة

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ :

«إنه قد أُذِنَ لكن أن تخرجن لحاجتكن»[١].

وقد ورد إلى الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - سؤال يقول فيه السائل:

«ما رأي فضيلتكم في خروج المرأة للعمل؟ وهل يُبيح لها الإسلام أن تترك منزلها وأولادها وتمارس أحد الأعمال في الخارج؟».

الجواب:

«المرأة عندما تخرج من البيت للعمل، تعود مرهقة وتستقبل في المنزل زوجًا مرهقًا وأطفالاً مشتتين فتعاني من عذابات كثيرة، عذابات الاغتراب، وعدم الانسجام مع الزوج وعدم القدرة على تربية الأبناء بالقدر الكافي من الحنان.

إن ثبات الحقيقة العلمية التي أوردها القرآن الكريم رضاعة الطفل من أمه هي تنمية له واستثمار في صحة المجتمع نفسه بتنشئة أطفال مشبعين بالحنان وبالمواد التي تبنى أجسامهم بصحة وعافية. هذه الحقيقة العلمية التي اكتشفوها أخيرًا هي التي دعت الحكومات إلى منح النساء إجازات رعاية الأبناء.

وثبات الحقيقة العلمية التي تؤكد زيادة نسبة اضطراب المرأة عصبيًّا عندما لا تجد من يرعى ابنها في حضانة تمنحه مثلما تمنحه الأم. ثبات تلك الحقيقة يؤكد أن رعاية الأم تفوق بالتأكيد أي رعاية أخرى. وهذه الرعاية ليست أمرًا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

مفروضًا على الأم، بل هو أمر غرزي ترتوي به الأم عطاء لأبنائها كما يرتوي الأبناء أخذًا.

وثبات الحقيقة العلمية أن حنان الأم يُعطى ثقة بالنفس وصحبة الآباء تجعل الأبناء ينشأون على محبة الأسرة. تلك الحقيقة ثبتت في النظام الأسرى للإسلام وافتقدها الغرب في هذه الأيام عندما رأى زيادة في أعداد المنحرفين بين شبابه.

وليس معنى ذلك أن الإسلام يُحرِّم عمل المرأة؛ ولكن الإسلام يضع الأسس التي تسير عليها حياة الأفراد بانسجام واطمئنان.

فإذا كانت المرأة هي عائلة لأسرها أو أن ظروف الحياة تفرض عليها العمل مشاركة للزوج فلتعلم أن ذلك - رغم أنه قد يفيد الأسرة في عاجل الأمر - يجعل الأسرة تدفع ثمنه انقاصًا من راحتها واطمئنانها».ا.هـ.

وسئل - رحمه الله -:

هل خروج المرأة للعمل يتعارض مع وظيفتها الأساسية وهي أن تكون ربة بيت، وما رأي فضيلتكم في ذلك؟

فأجاب:

إن قيام الرجل بأنواع مطلوبة لحركة الحياة لا يقلل من قيمة المرأة التي عليها مهام كبيرة في أن يكون البيت منسجمًا وهادئًا يسكن فيه الرجل وينشأ فيه الأبناء.

وليس قيام المرأة بتربية الأبناء أو إدارة أمور المنزل بما يجعله سكنًا للزوج، ليس هذا العمل هينًا، لأن ذلك العمل تكريم للمرأة كوعاء للحياة، إنَّها تحمل الطفل وترضعه وتربيه وتغذيه بالحنان والطعام، وتدير أمور البيت ليكون مكانًا صالحًا لحياة الأسرة كلها.

وإذا كانت المرأة قد خرجت إلى العمل في العصر الحديث فلنا أن نلحظ أن طاقتها على إدارة بيتها تقل، وأن رعايتها لأبنائها تقل وأن توترها يزداد وإحساسها بالذنب تجاه الأسرة يتغلب على مشاعرها، ثم متاعب العمل مع متاعب البيت في آن واحد، مما يجعلها تشكو من الإرهاق وتبدد سعادتها مع الانسجام المفروض أن تحققه مع أسرتها، فهي في العمل مشغولة بالأسرة، ومع الأسرة مشغولة بالعمل، مما يفقد المرأة استقرارها النفسي.

إنَّ العلم المعاصر قد عام مرة أخرى للحديث عن ضرورة أن تكون المرأة ربة بيت ومتعلمة، ولا يعني أن وظيفتها كربَّة بيت لا تحتاج إلى علم، لا .. إنها تحتاج إلى علم كامل يشتمل الآن على تخصصات كثيرة في فروع العلم المعاصر، وتكفي مهمة واحدة تنقسم الآن إلى علوم عديدة وهي التربية.

وإذا كان خروج المرأة إلى العمل لحاجة في المجتمع، فعلينا أن نعرف أن مثل هذا الخروج للعمل يبدد الكثير من طاقة المرأة في إدارة أمور البيت، ويفقد البيت معنى السكن، ولنا أن نُقدر تضحية المرأة بخروجها إلى العمل لمساعدة المجتمع في اجتياز أزماته، مع ضرورة الالتفات إلى أن المرأة التي حباها الله بزوج قادر على أن يجعلها تختص بمسئوليات تربية الأبناء، هذه المرأة عليها أن تقبل على ذلك الأمر براحة وليس ذلك تقليلاً من شأن المرأة، ولكنه تكريم لمهمة أساسية في المجتمع وهي تنشئة الأبناء بعيدًا عن ويلات افتقاد الأم في زحام العمل.ا.هـ.

وسئل - رحمه الله -:

هل نص في شريعة الإسلام على تنظيم لعمل المرأة في المجتمع العام؟ وما هي الوظائف التي سمح الإسلام لها بالعمل فيها؟

فأجاب:

ينبغي أن نعلم أنه لو اتحدت مهمة الجنسين ما كان هناك ضرورة في أن

ينقسم الجنسان إلى نوعين: ذكر، وأنثى.

ولنضرب لذلك مثلاً بآية كونية موجودة في الوجود هي الزمن، فالزمن هو وعاء الأحداث، تحدث فيه الأحداث وهو قسمان: ليل ونهار. الزمن كجنس وعاء للأحداث وكنوع فالنهار له مهمة والليل له مهمة إن حاولت أن أقول: أسوي مهمة الليل بمهمة النهار أو العكس، أكون قد أفسدت نظام الكون، لأن الليل خلق لمهمة، والنهار خلق لمهمة، حينما نرى جنسًا انقسم إلى نوعين، خذ خصائص مشتركة في الجنس ثم خذ خصائص مختصة بكل نوع وحينما أراد الله أن يبرز تلك القضية، قال انظروا إلى قضية في الكون غير مختلف فيها، وهي حينما نسأل مثلاً علماء النبات يقولون: ضوء الشمس له عمله بالنسبة للنبات والليل له مهمة بالنسبة للنبات، النبات يخرج ثاني أكسيد الكربون المطلوب في الوجود إذن الليل له مهمة وجودية حياتية والنهار له مهمة وجودية حياتية لو أنك حاولت أن تقول: إنهما متعاندان! أقول: لا، هما متكاملان ولا يتعاندان، وضرب الله المثل حين قال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي حياتنا كلها ليل، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ثم قال في آية بعدها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧٢].

إذن: لكل منهما مهمة ولا يصح أن أكلف نوعًا بمهمة الآخر وإلا اختلت قضية الوجود، فالله بيّن أن المقدمة المقطوع بها من كونية حياتنا هي وجود الناس، ثم أتى عليها بقضية الرجل والمرأة كيف؟ قال: إنهما مثل الليل والنهار،

هما جنس واحد هو الإنسان ولكنهما نوعان: ذكر وأنثى، إذن لهما كإنسا
خصائص مشتركة لا يختلفان فيها ولكنهما كنوعين لكل نوع منهما مهمة. اق
قول الله :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝ ﴾. [الليل: ١ - ٤].

أي كل واحد له مهمة في الوجود، إذا حاولت أن تأخذ مهمة الرج
للمرأة أو العكس تكون قد أخللت في قضية الوجود، وإلا ما كان هناك ضرور
لأن يكونا نوعين والخصائص المشتركة للجنس، ربنا قال: الرجل والمرأة م
جنس واحد، من مادة واحدة: ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وليس كما قالت المذاهب أو الأديان الأخرى إن الشيطان خلق المرأة أو إ
الشر والرجل خلقه إله الخير، لا.. الإسلام قال: إنهما من جنس واحد، هذا ه
التكوين في الأصل ثم قال الإسلام بعد ذلك: إنهما واحد في المسئولية، كإنسا
المرأة مسئولة عن عملها، والرجل مسئول عن عمله، ثم يوضح ذلك رسول ا
ﷺ فيقول: «**الرجل راعٍ ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية ومسئولة عن رعيتها**»(١)

ومسئولون أمام الله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ [النحل: ٩٧].

وقلنا أيضًا: إن المرأة لها حرية في العقيدة تعتقد ما تشاء لكن إذا اعتقد
لابد أن تلتزم، لها حرية في الدخول في الإيمان أو لا تدخل، لا تدخل الإيمان تب
لزوجها أو لأبويها، والله ضرب مثلاً بامرأة نوح وامرأة لوط.. فنوح ولوط كا
رسولين وبالرغم من ذلك لم يستطيعا إدخال زوجتيهما في دينهما:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

ثم جاء من الناحية المقابلة، للإيمان:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١].

الذي ادعى الألوهية ما استطاع أن يرغم امرأته أبدًا أن تعتقد فيه أنه إله:

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

إذن للمرأة حرية في العقيدة، ولقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقًا مدنية كاملة يست في أي دين آخر، المرأة اليهودية كانت قبل الزواج تابعة الولاية لأبيها لا تصرف في أي شيء وبعد الزواج تتبع زوجها، وجاءت القوانين الوضعية حتى لقانون الفرنسي في المادة (٢٠٧) في القرن الثامن عشر، تنص على أن المرأة وإن شترطت على الرجل أن تكون لها ذمة مالية مستقلة عنه يلغى هذا الشرط ولو ظرنا لوجدنا أن الحضارة الغربية تفقد المرأة خواصها، ما هي الخواص الأولى لإنسان؟ شكله وسمته ثم اسمه، فحينما تتزوج المرأة في أوروبا تنسب إلى زوجها يقولون: مدام فلان. وليس من حقها أن تحتفظ حتى باسمها واسم والدها.. أو مها وعندما جاء المقلدون في مصر في أوائل عصر النهضة الحديثة ووجدوا هذا، نز عليهن أن يُنسَى اسمهن، وقبلن نسيان أسماء آبائهن وأسماء عائلاتهن، واستمرت تحتفظ باسمها.

«هدى شعراوي» أخذت اسمها «هدى» ونسبته إلى اسم عائلة زوجها «علي اشا شعراوي» لم يهن عليها أن تترك اسمها.. ولكن في أوروبا وأمريكا تترك

اسمها واسم أبيها واسم أسرتها، وتتسمى باسم زوجها. فأي حق.. وأي مساو للمرأة بعد أن تسلب اسمها؟!

ولكن في الإسلام زوجات الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق، وتتشرف كل واحدة منهن، لم يقولوا «مدام محمد بن عبد الله» لم يقولوا زوجة محمد ولكنهم قالوا: عائشة بنت أبي بكر. حفصة بنت عمر. زينب بنت جحش.

احتفظن بأسمائهن وأسماء آبائهن وأسرهن. وبعد ذلك يأتي المفتونو ويقولون نريد أن نكون مثل الغرب. والغرب لم يعطِ حرية للمرأة في اسمها و في مالها. ولكن الحرية التي أخذتها المرأة كانت بسبب الحرب. عندما جند الذكور للحرب، فاحتاجوا للمرأة لتحل محلهم في العمل المدني، فأعطوها بعض الحقوق ليحصلوا على إنتاج من عملها.

سقراط مثلاً يقول: إن المرأة ليست معدة إعدادًا طبيعيًّا لكي تفهم شيئًا العلم ولكنها معدة للمطبخ وتربية الأولاد، أفلاطون جاء ليعطيها قسطًا م التعليم فقامت عليه الدنيا وقام الفيلسوف الساخر أريستوفان بتأليف روا اسمها: النساء المتحذلقات، وتندر فيها على المرأة التي نالت قسطًا من التعلي جاء بعده موليير الفرنسي وألَّف رواية اسمها: برلمان النساء أيضًا. ولكن الإسلا لم يقف منها ذلك الموقف بل قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على ك مسلم ومسلمة**»[1].

إذن نحن فرضنا التعليم على المرأة. وحينما تزوج رسول الله ﷺ من حفص بنت عمر، كان عمر قد جاء لها بامرأة من بني عدي تعلمها القراءة والكتا وبعدما تعلمت وتزوجها رسول الله ﷺ، طلب الرسول ﷺ من عمر أ

(١) **حديث حسن**: رواه ابن ماجه (٢٢٤)، وكلمة «مسلم» تدلّ على الجنس فيدخل فيها ك جنس المسلم رجالا ونساء.

يستمر مجيء العدوية إلى بيته، لتعلم حفصة بقية العلم.. فقال عمر ﷺ: لقد تعلمت. فقال رسول الله ﷺ: «لتجوده ولتحسنه».

فلتتعلم المرأة، ولكن تتعلم التعليم النوعي إذا كنا نحن نقسم الرجال منذ بدء التعليم الإعدادي إلى تعليم نوعي مثل: صناعي - زراعة - تجارة - فني.. إلـــخ، إذن: وجب تعلم المرأة تعليمًا نوعيًّا يناسب المهمة التي ستؤهل لها.

إن المرأة يجب أن تشكر نعمة الله عليها لأن الرجل يتعامل مع الأجناس الدنيا من الوجود فإنه إما زارع يتعامل مع التربة والمواشي والحيوانات وإما صانع يتعامل مع المادة الصماء، ولكن المرأة تتعامل مع أشرف شيء في الوجود وهو الإنسان، المرأة التي لا تريد الاقتناع بهذه المهمة تكون امرأة فاشلة، فالمرأة التي تريد أن تؤدي مهمتها كَرَبَّة بيت وزوجة وأم ومربية.. إلخ لا تجد من الوقت ما يسمح لها أن تعمل، فلتتعلم وتغنينا عن مدرس خصوصي أو تتعلم حياكة الملابس لأولادها وتطريزها فلو نظرت إليها في نشاطاتها في الحياة لوفرت على البيت أضعاف ما تأخذ من راتب وتوفر علينا تكاليف زينتها ومتطلباتها في الحياة، ثم ننظر بعد ذلك إلى الواقع، هل المرأة في سلم العمل كلما ارتقت تمنت مزيدًا من عمل أو كلما ارتقت وتقدم بها السن تمنت لو أنها ربة بيت حتى النساء الغربيات مارلين مونرو قالت: إياكن أن تخدعن بالأضواء التي تُسلط عليكن وأنا لو استأنفت حياتي كنت أُفضِّل أن أكون ربة بيت فقط، وعندما عملوا الإحصائية بين السيدات والبنات ما هي نسبة السيدات اللاتي طلبن أن يعدن إلى بيوتهن كربات بيوت؟ إذن المسألة أن هناك في الغرب شيئًا غير الذي عندنا، لا نحكم بشيء من هناك لنسيره على حياتنا، لأن الرجل في الغرب بمجرد أن يكبر ابنه يتركه يضرب في الحياة وبمجرد البنت ما تكبر يقول لها: شوفي لك شغلة بقى.

ليس عندنا مثل ذلك من الضرورات التي تجعل المرأة تتشابك في حياته مع المجتمع لكي تعيش وعندما اخترع الغرب عيد الأم قلدناهم في ذلك تقليدًا أعمى ولم نفكر في الأسباب التي جعلت الغرب يبتكر عيد الأم. فالمفكرون الأوربيون وجدوا الأبناء ينسون أمهاتهم ولا يؤدون الرعاية الكاملة لهن فأرادوا أن يجعلوا يومًا في السنة ليذكروا الأبناء بأمهاتهم ولكن عندنا عيد للأم في كل لحظة من لحظاتها في بيتها؛ فالإنسان منا ساعة خروجه من البيت يقبل يد أمه ويطلب دعواتها يزورها بالهدايا دائمًا. إذن: ليس هناك ضرورة لهذا العيد عندنا، ولكننا أخذنا ذلك على أنه منقبة من مناقب الغرب في حين أنه مثلبة، في أوربا يترك الولد أمه تعيش في ملجأ وأباه يعيش في مكان لا يدري عنه شيئًا، وليس في حياتنا مثل ذلك فالإسلام أعطانا تكاتفًا وعلى قدر حاجة الأبوين رتب الإسلام الحقوق (أمك . ثم أمك . ثم أمك . ثم أبوك)[1]؛ لأن أباك رَجُلٌ حتى لو تعرض للسؤال فلا حرج وإنما الأم لا.

وعندما نستعرض القضية القرآنية في هذا الخصوص:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

طيب هو بيوصي بالوالدين ولكن إذا نظرت للآية القرآنية، نجد أن الحيثيات في الآية للأم كلها وفي البداية أتى بحيثية مشتركة ثم قال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف: ١٥]. يعني لم يذكر سيرة للأب!!



(١) أخرجه البخاري ومسلم.

[١٩] إياك والخضوع بالقول

سئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

هل صوت المرأة عورة؟

فأجاب:

«صوت المرأة ليس بعورة، إلا إذا حاولت ترخيمه وترقيقه لافتتان الناس به أو أن صوتها رقيق يفتن الرجال وهي تبالغ في ذلك. ودليلنا قوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وجاء في الفقه على المذاهب الأربعة: «صوت المرأة ليس بعورة لأن نساء النبي ﷺ كُن يكلمن الصحابة وكانوا يستمعون منهن أحكام الدين».

ولكن يحرم سماع صوتها إن خِيفَتْ الفتنة ولو بتلاوة القرآن. والمرأة التي ردت على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما أراد أن يحدد المهور فتلت عليه قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٢٠].

* * * *

[٢٠] لا تستمعي إلى الغناء[١]

سُئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

ما حكم الشرع في استماع الأغاني؟

الجواب:

«إنه يلهيك عن طاعة الله، ويخرج الإنسان عن وقاره الاتزاني، ولابد من مقارنة المقدمات بالنتائج» .ا.هـ.

مزيد بيان

قال العلامة/ **محمد الحامد** - رحمه الله تعالى[٢] - في رسالته الموسومة بـ (حكم الإسلام في الغناء) ردًّا على سؤال نشرته المجلات - وأباحت فيه الغناء[٣] -:

«قد كان حسنًا أن يكون السؤال في كتاب خاص من حيث أن الزمن زاخر بالفتنة، والأهواء تقود ذويها إلى العطب وتحكمهم كما تشاء وهم متابعوها في اجتراح الآثام التي حرمها الإسلام غير عابئين بأوامره وزواجره فكيف بها إذا لحت بالباطل تكأة تدعو إلى الرخصة، في غلط من الداعي إليها لعدم وقوفه على الحقيقة الدينية.

وكثير ممن يطالعون السؤال لا تقع أبصارهم على جوابه وما أكثر الصوارف

---

(١) المقصود بالغناء المحرم - هذا - الغناء الذي يجر إلى الرذيلة، يثيركوا من الشهوات، ويدعو إلى محرم.

(٢) من كبار علماء حلب بسوريا.

(٣) نقلنا ما كتب باختصار.

عن المعرفة الصحيحة، وقد تبقى أذهانهم ملتاثة بخطأ ديني له جسامته وله خطره. على أن الجواب الحق قد لا يروق لبعض الناظرين لمكان الفتنة من قلوبهم وقد كان سببها هذا الإعلان بسؤال يزيدها فيها تمكنًا وتوطنًا.

وقد رأيت أن أقدم بين يدي الموضوع ما جاء من الأحاديث الشريفة ناهيًا عن الغناء الآثم، ثم أتبعه بما يحل منه عموما وما يحرم، ثم أعمد إلى مناقشة السؤال مقطعًا مقطعًا، إيضاحًا للأخطاء الكامنة فيه، وإبرازًا للضمائر السيئة المستترة بكلماته والله عليم بذات الصدور.

الأحاديث الشريفة الناهية عن الغناء الآثم:

١- روى البزار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه حرم الميتة والميسر والكوبة - يعني الطبل - وقال: «**كل مسكر حرام**».

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله قال: «**يسمخ قوم من أمتي في آخر الزمان قردة وخنازير**». قالوا: يا رسول الله أمسلمون هم؟ قال: «**نعم، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويصومون**». قالوا: فما بالهم يا رسول الله؟ قال: «**اتخذوا المعازف والقينات - المغنيات - والدفوف وشربوا الأشربة فباتوا على شرابهم ولهوهم فأصبحوا وقد مسخوا**». رواه مسدد وابن حبان ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون**».

٣- وروى البخاري والإسماعيلي وأحمد وابن ماجه وأبو نعيم وأبو داود أنه ﷺ قال: «**ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف**». الحر: الفرج. والمراد استحلال الزنا والحرير والمسكرات وآلات اللهو المطربة.

٤- وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: الغناء ينبت النفاق في القلب كما

ينبت الماء البقل[١]. وهذا منه له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ إذ مثله لا يقال من جهة الرأي.

٥- وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما رفع أحد صوته بغناء، إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان باعقابهما على صدره حتى يمسك**».

٦- وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر والكوبة وأشياء عددها**». رواه أحمد وأبو داود وابن حبان زاد البيهقي وهو، أي: الكوبة طبل طويل متسع الطرفين ضيق الوسط ورواه أبو داود من حديث ابن عمر، وزاد (والغبيراء)، وزاد أحمد (والمزر)، ورواه أحمد أيضًا من حديث قيس بن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنهما. والغبيراء: اختلف في تفسيرها. فقيل: الطنبور. وقيل: العود. وقيل: البربط. وقيل غير ذلك.

٧- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة قال الله ﷻ: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم، فيميزونهم في كتب المسك والعنبر، ثم يقول لملائكته: أسمعوهم تسبيحي وتمجيدي فيسمعون بأصوات لم يسمع السامعون مثلها**». أخرجه الديلمي.

٨- وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يستمع إلى صوت الروحانيين في الجنة**». رواه الحكيم الترمذي.

---

(١) **صحيح**: إلى ابن مسعود رضي الله عنه.

٩- وعن أنس وعائشة رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة، مزمار عند نغمة، وزنة عند مصيبة**». رواه البزار وابن مردوية والبيهقي.

١٠- وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ «**نهى عن الغناء والاستماع إلى الغناء، وعن الغيبة والاستماع إلى الغيبة والنميمة والاستماع إلى النميمة**». رواه الطبراني والخطابي.

١١- وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]. فقال: الغناء والذي لا إله غيره. رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي وغيره.



ما يحل وما يحرم من الغناء

وهناك روايات أخرى لم أوردها لئلا تكون إطالة، وأن في بعض هذه الأحاديث لذكرى لقوم يعقلون. إن بعضها يكفي لبيان حكم الغناء الفاسق في الإسلام، ويهدي ذا القلب السليم إلى طريق السلامة من هذا الإثم الذي يدهده إلى الأسوأ ويجعل الهوى حاكمًا، وعلى أصحابه قائمًا.

أما ما يحل وما يحرم من الغناء فإليك خلاصة مما قاله الفقهاء فيه:

«يباح الغناء إن كان لبعث الهمة على العمل الثقيل أو لترويح النفس أثناء قطع المفاوز كالارتجاز. فقد ارتجز النبي ﷺ وأصحابه في بناء المسجد وحفر الخندق، وكالحداء الذي يحدو به الأعراب إبلهم، وكالشعر السالم من الفحش ووصف الخمر وحاناها والتشبيب بامرأة حية معينة، والخالي أيضًا من هجاء مسلم أو ذمي، فإن الغناء بهذه المحترزات حرام.

فإن كان التشبيب بغير معين جاز فقد أنشد كعب بن زهيرة بحضرة النبي ﷺ:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وقد سمع ﷺ أيضًا قصيدة حسان التي أولها:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقى الضجيج ببارد بسام

ومن هذا النوع المباح غناء النساء لينام الصغار. ومنه الغزل البريء مما ذكرنا كالذي يقوله النساء في الأعراس ولا رجال يسمعوهن. فقد أذن النبي

ﷺ أن يقلن:

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم

ومنه الزهديات المجردة مما فيه وصف الرياض والرياحين والأزهار والأنهار المطردة. فهذا كله جائز إن لم يقل على آلة لهو محرمة، فإن قيل عليها كان محظورًا ولو وعظًا وحكمًا لمكان الآلة لا لذات التغني بالمباح.

وإذا كان غناء المتغني في خلوته لدفع الوحشة عن نفسه ففيه اختلاف الفقهاء: أجازه فريق بغير كراهة لأنه ليس على سبيل اللهو احتجاجًا بما روى أنس بن مالك: أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من زهاد الصحابة فوجده يتغنى، وكره آخرون وحملوا تغنيه على إنشاد الشعر المباح الذي فيه حكم ومواعظ وليس بمعناه المشهور، فهو كالذي في قوله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**».

وقد قسم الغزالي السماع إلى محبوب كما إذا غلب على السامع حب الله تعالى ولقائه ليستخرج به أحوالاً من المكاشفات والملاطفات. وإلى مباح كأن كان عنده عشق مباح لزوجته أو لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى، وإلى محرم بأن غلب عليه هوى محرم.

وخالفه سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيمن لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى فحكم بكراهة السماع في حقه.

وهذا التفصيل كله فيما إذا لم يكن الغناء لرجل من امرأة أجنبية إذ يحرم عليه سماعه منها لأن صوتها عورة، وقال بعض الفقهاء، ليس بعورة لكن لا أثر لهذا الخلاف هنا لاتفاق الكل على وجوب غضه، نعم بحث بعضهم في أنه قد يكون له أثر في الصلاة إذا رفعت صوتها فقد تفسد صلاتها في قول القائلين أنه

عورة. لكن نقل الرافعي في تقريراته على رد المحتار عن السندي أنه ليس بعور على الصحيح وإلا لفسدت صلاتها بالجهر ولا قائل به. ا.هـ.

وقد اتفق العلماء على منعها من الأذان لأنها إذا أخفت صوتها أخلت بالإعلام الذي هو الغاية من الأذان، وأن أظهرته فتنت الناس به فلذا لا تُؤَذِّن المرأة. أما الآلات المطربة حرام ولو بلا غناء كالمزمار والطنبور والعود.

ويباح الدف في النكاح وما في معناه من الحوادث السارة ويكره في غيره فقد كان عمر رضي الله تعالى عنه إذا سمع صوت الدف ينظر فإن كان في وليمة سكت وإن كان في غيرها عمد بالدرة. أي: ضربهم بها. وأكر ما تقال الوليمة على العرس.

وإباحة الدف مقيدة بما إذا كان بغير جلاجل أما بها فلا يباح ولا سيما الصنوج اللطاف الموضوعة على جوانبه في خروق. فهي في الإطراب والتهييج أشد من كثير مما اتفق على تحريمه من آلات اللهو. ا.هـ.



[٢١] التحذير من الخلوة والاختلاط

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

مسألة الاختلاط بين الفتاة والشاب لا منطقية ولا طبيعية، وقد سبق لي أن عالجت هذا الأمر حينما تكلمت عن قصة موسى مع شعيب، وقلت: إن خروج الفتاة إلى عمل في غير مجال أسرتها أمر تحدده الضرورة المحضة، وقلت: اسمعوا قول الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣].

وكلمة أبونا شيخ كبير حددت الضرورة، والضرورة التي أخرجت الفتاة إلى مجال الاحتكاك والاختلاط تؤخذ بقدرها، ﴿ لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ ليس مجرد الضرورة التي أخرجتهما حتى يحتكا بالناس، في حجاب إن كانت في مجتمع ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ثم تكلم عن دور المجتمع ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ يعني حين يرى الرجل امرأة خرجت لتكافح في الحياة عن ضرورة اقتضت ذلك فيجب عليه أن يقضي لها ضرورتها، حتى تذهب إلى حال سبيلها ويجب على الفتاة أو المرأة التي تضطرها هذه الضرورة أن تلتمس الخروج من هذه الضرورة، قالت بنت شعيب:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

هي التي بحثت عن حل واحد يقوم بهذه المهمة، نحن لا نمنع أن تخرج المرأة إلى العمل، ولكن تخرج إلى العمل إن كان في محيط أسرتها، فإن اضطرها الظروف إلى

أن تخرج، فلتخرج في حشمتها وفي وقارها، وفي اتزانها ولا تجعل هذه الضرو
تبيح لها أن تختلط بالشباب ما شاء لها الاختلاط، هبوا أن الضرورة اقتضت
تخرج المرأة إلى المجتمع للعمل؛ فإن المجتمع ليس فيه رجولة حين يرى امرأة خرجـ
إلى العمل ولا يُمَكِّنُها من إنهاء طلبها لترجع إلى حال سبيلها، لا رجولة خاصة
مجال القوى ولا رجولة عامة في المجتمع وتركت المرأة لحال سبيلها تكافح في الحيا
ما هو الرابط بين أن تتبرج لتخرج على أبهى زينتها وأكمل حليتها؟ وما هي العلا
بين هذا وهذا؟

الفتاة التي تخرج لتتعلم قلنا إنها ضرورة اضطرتها إلى الاختلاط، فما ضرو
أن يكون ميدان الجامعة ميدان تبرج، تلبس أحسن الأزياء، ولقد قلت سابقً
هل العلم لا يسمع إلا من بين الصدور؟ فالثدي يكون ظاهرًا، هل العلم
يستقبل إلا بالسيقان المكشوفة؟ هل العلم لا يؤتى إلا باللباس الكاشف؟

والفتاة في تبرجها خارج منزلها تعبر عن إلحاح في عرض نفسها على الرَّجُ
لأن مبالغة المرأة في تبرجها خارج منزلها معناه إلحاح في عرض نفسها علىٰ
الرَّجُل تمامًا ومعنى ذلك أنها تقول له: انظر أنا هنا.

والشباب ليس في حاجة من يجلد غرائزه، الشباب الآن يحتاج إلى مبردا
وليس إلى مهيجات، فرقوا يا قوم بين حركة العمل في الحياة وبين إغراءات هذ
الحياة». ا.هـــ.

وسئل - رحمه الله -:

ما حُكم اختلاط الفتيات بالشباب؟

فأجاب:

«ما حرص الفتاة على أن تختلط بشاب؟ لماذا؟ مسألة لا منطقية ولا طبيعية
وقد سبق لي أن عالجت هذا الأمر حينما تكلمت عن قصة موسى مع شعيب

وقلت: إن خروج الفتاة إلى عمل في غير مجال أسرها أمر تحدده الضرورة المحضة، وقلت: اسمعوا قول الله:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣].

وكلمة أبونا شيخ كبير حددت الضرورة، والصورة التي أخرجت الفتاة إلى مجال الاحتكاك والاختلاط تؤخذ بقدرها، ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ليس مجرد الضرورة التي أخرجتها حتى تحتك بالناس، في حجاب إن كانت في مجتمع ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ثم تكلم عن دور المجتمع ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ يعني حين يرى الرجل امرأة خرجت لتكافح في الحياة عن ضرورة يجب عليه أن يقضي لها ضرورها، حتى تذهب إلى حال سبيلها ويجب على الفتاة أو المرأة التي تضطرها هذه الضرورة أن تلتمس الخروج من هذه الضرورة، بنت شعيب قالت:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

هي التي بحثت عن حل، واحد يقوم بهذه المهمة، نحن لا نمنع أن تخرج المرأة إلى العمل، ولكن تخرج إلى العمل إن كان في محيط أسرها، فما أكثر ما تقدم المرأة الأمية الجاهلة في ريفنا من عمل لكن مع من؟ مع أبيها مع أخيها في محيطها ليس في هذا شيء، فإن اضطرها الظروف إلى أن تخرج، فلتخرج في حشمتها وفي وقارها، وفي اتزانها ولا تجعل هذه الضرورة تبيح لها أن تختلط بالشباب ماشاء لها الاختلاط، هبوا أن ضرورة دعت المرأة وضرورة ملحة لأن المجتمع، مجتمع ليس فيه رجولة حين يرى امرأة خرجت إلى العمل لا يمكنها من إنهاء طلبها لترجع إلى حال سبيلها، لا رجولة خاصة في محيط القوى ولا رجولة عامة في المجتمع وتركت المرأة لحال سبيلها تكافح في الحياة، ما هو الرابط بين أن

تتبرج لتخرج على أبهى زينتها وأكمل حلتها؟ ما هي العلاقة بين هذا وهذا؟ الفتاة التي تخرج لتتعلم قلنا أنها ضرورة اضطرتها إلى الاختلاط، فما ضرورة أن يكون ميدان الجامعة ميدان تبرج، تلبس أحسن الأزياء، أنا قلت سابقًا هل العلم لا يسمع إلا من بين الصدور؟ الثدي يكون ظاهرًا هل العلم لا يستقبل إلا بالسيقان المكشوفة؟ هل العلم لا يؤتى إلا باللباس الكاشف؟ تعقلوا يا قوم هناك فرق بين ضرورات تدعو لها الحياة بكمالها وجلالها وشرفها، الفتاة حين تخرج كما نشاهد الآن تلح في عرض نفسها على الرجل لأن مبالغة المرأة في تبرجها خارج منزلها إلحاح في عرض نفسها على الرجل يعني (بص يا بحم) الشباب ليس في حاجة إلى من يجلد غرائزه، حسبه شعار غريزته في سنه فلا تلهب غرائزه فوق ذلك، يحتاج إلى مبردات لا إلى مهيجات، فرقوا يا قوم بين حركة العمل في الحياة وبين إغراءات هذه الحياة، أظن أن فتاة تخرج للعمل محتشمة في زيها الوقور الجميل، لا توحي لواحد أن يتقبلها بكلمة جارحة، ولأن الله يقول: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

يعرفن يعني يعرف أن هذه محتشمة ليس قصدها أن تعرض جمالها على الناس من أجل أن تستميلهم فما دام عرف عنها هذا فلا يقدر أحد أن يقول لها كلمة ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ .

يعني أنهن متبرجات من أجل أن يسترعين النظرات إليهن ولا إلى الكلام ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ ، كل ذلك تظن الفتاة أن الإسلام قد قسا عليها، والإسلام في ذلك إنما يؤمن حياتها الجمالية، اسمعوا هذا التعبير الجديد، فيه تأمين ضد الحياة المالية، يأخذ مني وأنا غني من أجل أن يعطيني وأنا

محتاج، هذا التأمين المالي فيه تأمين جمال، ما هو التأمين الجمالي هذا، الفتاة حين يريد الله منها أن تكف شر جمالها عن الشباب، لا يريد أن يقيد حريتها، إنما يريد أن يؤمن حياتها حين تكون شيخة كهلة شائبة مغبشة، إن الذي تزوج استقر له الأمر وأصبح له أولاد، لاشك أن امرأته فقدت النضرة التي من أجلها تزوجها، فإذا لم ير غيرها مهيجًا ظن أنها هكذا لأن الشيء لا يتغير عن مديم النظر إليه، يعني الإنسان عندما يتزوج زوجته غدًا كاليوم وبعد غد كاليوم لا يمكن أن يعرف الفارق أبدًا، يفضل الفارق هكذا، كما أنك لو نظرت إلى طفلك الوليد طول حياتك لا تراه يكبر أبدًا، إنما هو يكبر خلسة منك، إن غبت عنه شهرين تراه كبر، كذلك إذا تزوج اليوم، غدا المرأة لا تتغير كثيرًا عن الأمس وهكذا تأخذها تلتفت تلاقي الشيب دب إليها بدون أن يشعر، فتظل الحياة مربوطة رباطًا عقليًّا وإن لم ترتبط رباطًا عاطفيًّا، فحين لا يرى الرجل مهيجًا في الشارع يظن أن امرأته ليس هناك غيرها في الدنيا.

لكن عندما تبلغ المرأة سن الأربعين وخمسة وأربعين وهو ما شاء الله زي ما بيقولوا متعطش ويرى بنتًا في سن السادسة عشرة يبقى كتر الله خيره إذا ذهب إلى البيت ولم يتف (يبصق) إنما لو أن هذه محتشمة ولا تبدي زينتها إلا ما ظهر منها:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

كان لازم هي زوجته الموجودة في الكون، إنما قولوا للفتاة التي تحاول أن تصنع هكذا ليعربد رجال متزوجون على نسائهم حين يرون فارق المقاييس قولوا إن عدالة السماء ستقفها هي هذا الموقف وحين تصير في سن الأربعين سيرزقها الله واحدة في سن السادسة عشرة لتفسد عليها حياتها مع زوجها ومع أولادها فهو حين يأمر بحجابها في سن الجمال المخيف إنما أراد أن يحجب عنها الجمال المخيف حينما تفقد هي هذا الجمال لتظل إدامة الأسرة مبنية على مقاييس العاطفة أولاً، وعلى مقاييس العاطفة والعقل ثانيًا، وعلى مستوى الروابط الجديدة التي تربط الرجل بامرأته أسريًّا فالإسلام إذن حين يشق على الفتاة بأنها تفعل كذا وكذا هو يفعل لها أيضًا، لا تظن أن الإسلام قد أخذ قطاعًا من الحياة فاضطهده وإنما هو قد أخذ قطاعًا من الحياة لينصلح به كل قطاعات الحياة، والله مأمون على ما شرع لنا من قيم. ا.هـ.



مزيد بيان

فتوى للعلامة ابن باز رحمه الله بشأن الاختلاط[1]

قال – رحمه الله –:

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد اطلعت على ما نشرته جريدة السياسة الصادرة يوم (١٤٠٤/٧/٢٤هـ) بعددها (٥٦٤٤) منسوبًا إلى مدير جامعة صنعاء عبد العزيز المقالح. الذي زعم فيه أن المطالبة بعزل الطالبات عن الطلاب مخالفة للشريعة. وقد استدل على جواز الاختلاط بأن المسلمين من عهد الرسول ﷺ كانوا يؤدون الصلاة في مسجد واحد. الرَّجُل والمرأة وقال: «ولذلك فإن التعليم لابُدَّ أن يكون في مكان واحد»، وقد استغربت صدور هذا الكلام من مدير لجامعة إسلامية في بلد إسلامي يطلب منه أن يوجه شعبه من الرجال والنساء إلى ما فيه السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا شك أن هذا الكلام فيه جناية عظيمة على الشريعة الإسلامية؛ لأن الشريعة لم تدع إلى الاختلاط حتى تكون المطالبة بمنعه مخالفة لها، بل هي تمنعه وتشدد في ذلك كما قال الله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] الآية.

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن

---

(١) مجلة الرابطة، العدد (٢٦٢، جمادى الأولى، ١٤٠٧هـ).

جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

إلى أن قال سبحانه:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية.

وفي هذه الآيات الكريمات الدلالة الظاهرة على شرعية لزوم النساء لبيوهن حذار من الفتنة هن، إلا من حاجة تدعو إلى الخروج، ثم حذرهن سبحانه من التبرج تبرج الجاهلية، وهو إظهار محاسنهن ومفاتنهن بين الرجال.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**». متفق عليه من حديث أسامة بن زيد ﷺ وخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - رضي الله عنهم جميعًا -.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن**

الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

ولقد صدق رسول الله ﷺ، فإن الفتنة بهن عظيمة ولا سيما في هذا العصر الذي خلع فيه أكثرهن الحجاب، وتبرجن فيه تبرج الجاهلية، وكثرت بسبب ذلك الفواحش والمنكرات وعزوف الكثير من الشباب والفتيات عما شرع الله من الزواج في كثير من البلاد.

وقد بين الله سبحانه أن الحجاب أطهر لقلوب الجميع فدل ذلك على أن زواله أقرب إلى نجاسة قلوب الجميع وانحرافهم عن طريق الحق، ومعلوم أن جلوس الطالبة مع الطالب في كرسي الدراسة من أعظم أسباب الفتنة.

ومن أسباب ترك الحجاب الذي شرعه الله للمؤمنات ونهاهن عن أن يبدين زينتهن لغير من بينهم الله سبحانه في الآية السابقة من سورة (النور). ومن زعم أن الأمر بالحجاب خاص بأمهات المؤمنين فقد أبعد النجعة وخالف الأدلة الكثيرة الدالة على التعميم وخالف قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فإنه لا يجوز أن يقال: إن الحجاب أطهر لقلوب أمهات المؤمنين ورجال الصحابة دون من بعدهم ولا شك أن من بعدهم أحوج إلى الحجاب من أمهات المؤمنين ورجال الصحابة - رضي الله عنهم - لما بينهم من الفرق العظيم في قوة الإيمان والبصيرة بالحق فإن الصحابة - رضي الله عنهم - رجالاً ونساء ومنهم أمهات المؤمنين هم خير النساء بعد الأنبياء وأفضل القرون بنص الرسول ﷺ المخرج في الصحيحين.

فإذا كان الحجاب أطهر لقلوبهم فمن بعدهم أحوج إلى هذه الطهارة وأشد

افتقارًا إليها ممن قبلهم؛ ولأن النصوص الواردة في الكتاب والسنة لا يجوز أن يخص بها أحد من الأمة إلا بدليل صحيح يدل على التخصيص فهي عامة لجميع الأمة في عهده ﷺ وبعده إلى يوم القيامة، لأنه سبحانه بعث رسوله ﷺ إلى الثقلين في عصره وبعده إلى يوم القيامة كما قال ﷻ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وهكذا القرآن الكريم لم ينزل لأهل عصر النبي ﷺ وإنما أنزل لهم ولمن بعدهم ممن يبلغه كتاب الله كما قال تعالى:

﴿هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال ﷻ:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وكان النساء في عهد النبي ﷺ لا يختلطن بالرجال لا في المساجد ولا في الأسواق الاختلاط الذي ينهى عنه المصلحون اليوم ويرشد القرآن والسنة وعلماء الأمة إلى التحذير منه حذرًا من فتنتة بل كان النساء في مسجده ﷺ يصلين خلف الرجال في صفوف متأخرة عن الرجال وكان يقول ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها. وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**». حذرا من افتتان آخر صفوف الرجال بأول صفوف النساء.

وكان الرجال في عهده ﷺ يؤمرون بالتريث في الانصراف حتى يمضي النساء ويخرجن من المسجد لئلا يختلط بهن الرجال في أبواب المساجد مع ما هم

عليه جميعًا رجالاً ونساء من الإيمان والتقوى، فكيف بحال من بعدهم.

وكانت النساء ينهين أن يتحققن الطريق ويؤمرن بلزوم حافات الطريق حذرًا من الاحتكاك بالرجال والفتنة بمماسة بعضهم بعضًا عند السير في الطريق.

وأمر الله سبحانه نساء المؤمنين أن يدنين عليهم من جلابيبهن حتى يغطين بها زينتهن حذرًا من الفتنة بهن، ونهاهن سبحانه عن إبداء زينتهن لغير من سمى الله سبحانه في كتابه العظيم حسمًا لأسباب الفتنة وترغيبًا في أسباب العفة والبعد عن مظاهر الفساد والاختلاط.

فكيف يسوغ لمدير جامعة صنعاء هداه الله وألهمه رشده بعد هذا كله أن يدعو إلى الاختلاط ويزعم أن الإسلام دعا إليه وأن الحرم الجامعي كالمسجد وأن ساعات الدراسة كساعات الصلاة.

ومعلوم أن الفرق عظيم، والبون شاسع، لمن عقل عن الله أمره ونهيه، وعرف حكمته سبحانه في تشريعه لعباده، وما بين في كتابه العظيم من الأحكام في شأن الرجال والنساء.

وكيف يجوز لمؤمن أن يقول إن جلوس الطالبة بحذاء الطالب في كرسي الدراسة مثل جلوسها مع إخواتها في صفوفهن خلف الرجال، هذا لا يقوله من له أدنى مسكة من إيمان وبصيرة يعقل ما يقول، هذا لو سلمنا وجود الحجاب الشرعي، فكيف إذا كان جلوسها مع الطالب في كرسي الدراسة، مع التبرج وإظهار المحاسن والنظرات الفاتنة والأحاديث التي تجر إلى الفتنة، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الله ﷻ:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

وأما قوله: «والواقع أن المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ كانوا يؤدون الصلاة في مسجد واحد، الرَّجُل والمرأة، ولذلك فإن التعليم لابُدَّ أن يكون في مكان واحد». فالجواب عن ذلك أن يقال هذا صحيح؛ لكن كان النساء في مؤخرة المساجد مع الحجاب والعناية والتحفظ مما يسبب الفتنة، والرجال في مقدم المسجد، فيسمعن المواعظ والخطب ويشاركن في الصلاة ويتعلمن أحكام دينهن مما يسمعن ويشاهدن. وكان النبي ﷺ في يوم العيد يذهب إليهن بعد ما يعظ الرجال فيعظهن ويذكرهن لبعدهن عن سماع خطبته، وهذا كله لا إشكال فيه ولا حرج فيه وإنما الإشكال في قول مدير جامعة صنعاء هداه الله وأصلح قلبه وفقهه في دينه «ولذلك فإن التعليم لابُدَّ أن يكون في مكان واحد».

فكيف يجوز له أن يشبه التعليم في عصرنا بصلاة النساء خلف الرجال في مسجد واحد، مع أن الفرق شاسع بين واقع التعليم المعروف اليوم وبين واقع صلاة النساء خلف الرجال في عهده ﷺ، ولهذا دعا المصلحون إلى إفراد النساء عن الرجال في دور التعليم، وأن يكن على حدة والشباب على حدة، حتى يتمكنَّ من تلقي العلم من المدرسات بكل راحة من غير حجاب ولا مشقة؛ لأن زمن التعليم يطول بخلاف زمن الصلاة؛ ولأن تلقي العلوم من المدرسات في محل خاص أصون للجميع وأبعد لهن من أسباب الفتنة، وأسلم للشباب من الفتنة بهن؛ ولأن انفراد الشباب في دور التعليم عن الفتيات مع كونه أسلم لهم من الفتنة فهو أقرب إلى عنايتهم بدروسهم وشغلهم بها وحسن الاستماع إلى الأساتذة وتلقي العلم عنهم بعيدين عن ملاحظة الفتيات والانشغال بهن، وتبادل النظرات المسمومة والكلمات الداعية إلى الفجور.

وأما زعمه أصلحه الله أن الدعوة إلى عزل الطالبات عن الطلبة تزمت مخالف

للشريعة، فهي دعوى غير مسلمة، بل ذلك هو عين النصح لله ولعباده والحيطة لدينه والعمل بما سبق من الآيات القرآنية والحديثين الشريفين.

ونصيحتي لمدير جامعة صنعاء أن يتقي الله ﷻ وأن يتوب إليه سبحانه مما صدر منه. وأن يرجع إلى الصواب والحق، فإن الرجوع إلى ذلك هو عين الفضيلة والدليل على تحري طالب العلم للحق والإنصاف، والله المسئول سبحانه أن يهدينا جميعًا سبيل الرشاد وأن يعيذنا وسائر المسلمين من القول عليه بغير علم، ومن مضلات الفتن ونزغات الشيطان كما أسأله سبحانه أن يوفق علماء المسلمين وقادهم في كل مكان لما فيه صلاح البلاد والعباد في المعاش والمعاد وأن يهدي الجميع صراطه المستقيم، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة

والإرشاد بالمملكة العربية السعودية

ورئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة



[٢٢] احذري الخلع لغير سبب شرعي

عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« **إن المختلعات والمنتزعات، هن: المنافقات** »[1].

وهذا الترهيب لمن خلعت نفسها لغير سبب شرعي، وذلك لما يترتب على الخلع من أضرار، منها:

- خراب البيوت.
- تشريد الأطفال.
- قطيعة الرحم العامة أو الخاصة.
- الخصام والشحناء.

أما إذا خلعت المرأة نفسها خشية فتنة ماحِقة، أو ضرر بالغ، أو كراهية فوق القدرة، فلا بأس.

قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قال الإمام **الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

هنا يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق بعد أن تحدث عن المطلقة في

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٣٨).

عدها وكيفية ردها ومراجعتها، إنه سبحانه يتحدث عن الطلاق في حد ذاته.

والطلاق مأخوذ من الانطلاق والتحرر،فكأنه عقدة كانت موجودة وهي عقدة النكاح، وعقدة النكاح هي العقدة التي جعلها الله عقدًا مغلظًا وهي الميثاق الغليظ، فقال تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١].

إنه ميثاق غليظ لأنه أباح للزوجين عورات الآخر، في حين أنه لم يقل عن الإيمان إنه ميثاق غليظ، قال عنه : « ميثاق » فقط، فكأن ميثاق الزواج أغلظ من ميثاق الإيمان. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في الناس حل المشكلات بأيسر الطرق. لذلك شرع لنا أن نحل عقدة النكاح، ونهاية العقدة ليست كبدايتها، ليست جذرية، فبداية النكاح كانت أمرا جذريًا، أخذناه بإيجاب وقبول وشهود، وأنت حين تدخل في الأمر تدخله وأنت دارس لتبعاته وظروفه، لكن الأمر في عملية الطلاق يختلف؛ فالرجل لا يملك أغيار نفسه، فربما يكون السبب فيها هينًا أو لشيء كان يمكن أن يمر بغير طلاق؛ فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للناس أناة وروية في حل العقدة فقال: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ ، يعني مرة ومرة، ولقائل أن يقول: كيف يكون مرتين، ونحن نقول ثلاثة؟ وقد سأل رجلٌ رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله قال الله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ فلم صار ثلاثا؟

فقال ﷺ مبتسمًا:

﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ .

فكأن معنى ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ أي: أن لك في مجال اختيارك طلقتين للمرأة. إنما الثالثة ليست لك، لماذا؟ لأنها من بعد ذلك ستكون هناك بينونة كبرى ولن تصبح مسألة عودتها إليك من حقك، وإنما هذه المرأة قد أصبحت

من حق رجل آخر.

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

أما قول الرجل لزوجته أنت (طالق ثلاثًا) يعتبر ثلاث طلقات أم لا؟ نقول: إن الزمن شرط أساسي في وقوع الطلاق، يطلق الرجل زوجته مرة، ثم تمضي فترة من الزمن، ويطلقها مرة أخرى فتصبح طلقة ثانية، وتمضي أيضا فترة من الزمن وبعد ذلك نصل لقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، ولذلك فالآية نصها واضح وصريح في أن الطلاق بالثلاث في لفظ واحد لا يوقع ثلاث طلقات، وإنما هي طلقة واحدة، صحيح أن عمر ﷺ جعلها ثلاث طلقات، لأن الناس استسهلوا المسألة، فرأى أن يشدد عليهم ليكفوا، لكنهم لم يكفوا، وبذلك نعود لأصل التشريع كما جاء في القرآن وهو:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

وحكمة توزيع الطلاق على المرات الثلاث لا في العبارة الواحدة، أن الحق سبحانه يعطي فرصة للتراجع، وإعطاء الفرصة لا يأتي في نفس واحد وفي جلسة واحدة.

إن الرجل الذي يقول لزوجته: أنت طالق ثلاثًا لم يأخذ الفرصة ليراجع نفسه ولو اعتبرنا قولته هذه ثلاث طلقات لتهدمت الحياة الزوجية بكلمة. ولكن عظمة التشريع في أن الحق سبحانه وزع الطلاق على مرات حتى يراجع الإنسان نفسه، فربما أخطأ في المرة الأولى، فيمسك في المرة الثانية ويندم. وساعة تجد التشريع يوزع أمرًا يجوز أن يحدث ويجوز أن لا يحدث، فلابد من وجود فاصل زمني بين كل مرة.

وبعض المتشدقين يريدون أن يبرروا للناس هجمهم على منهج الله فيقولون: إن الله حكم بأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يتم فقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن

تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

ويقولون: إن الله اشترط في التعدد العدل، ثم حكم بأننا لن نستطيع أن نعدل بين الزوجات مهما حرصنا، فكأنه رجع في التشريع، هذا منطقهم، ونقول لهم: أكملوا قراءة الآية تفهموا المعنى، وإن الحق يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، ثم فرع على النفي فقال: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾.

وما دام النفي قد فُرِّع عليه فقد انتفى، فالأمر كما يقولون: نفي النفي إثبات أن الاستطاعة ثابتة وباقية وكان قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾. إشارة إليها وكذلك الأمر هنا: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فما دام قد قال: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي أن لكل فعل زمنًا، فلذلك يتناسب مع حلقات التأديب والتهذيب، وإلا فالطلاق الثلاث بكلمة واحدة في زمن واحد، يكون عملية قسرية واحدة، وليس فيها تأديب أو إصلاح أو تهذيب، وفي هذه المسألة يقول الحق:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾.

لأن المفروض في الزوج أن يدفع المهر نظير استمتاعه بالبضع، فإذا ما حدث الطلاق لا يحل للمطلق أن يأخذ من مهره شيئًا، لكن الحق استثنى في المسألة فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجًا إن أريد بها الضرر وهي لا تقبل هذا الضرر. فيأتي الحق ويشرع: ما دام قد خافا ألا يقيما حدود الله، فقد أذن لها أن افتدي نفسك أيتها المرأة بشيء من مال، ويكره أن يزيد

على المهر إلا إذا كان ذلك ناشئا عن نشوز منها ومخالفة للزوج فلا كراهة إذن في الزيادة على المهر.

وقد جاء الواقع مطابقًا لما شرع الله عندما وقعت حادثة (جميلة) رضي الله عنها أخت (عبد الله بن أُبَيّ) حينما كانت زوجة لعبد الله بن قيس، فقد ذهبت إلى رسول الله ﷺ وقالت: «أنا لا أتهمه في دينه ولا خُلُقه ولكن لا أُحِبّ الكُفْر في الإسلام»، وهي تقصد أنها عاشت معه وهي تبغضه، لذلك لن تؤدي حقه وذلك هو كفر العشير أي إنكار حق الزوج وترك طاعته.

وهي قد قالت: إنها لا تتهمه لا في دينه ولا في خلقه لتعبر بذلك عن معان عاطفية أخرى، فأراد رسول الله ﷺ أن يعلم منها ذلك، فقالت: «لقد رفعت الخباء فوجدته في عدة رجال فرأيته أشدهم سوادًا وأقصرهم قامة وأقبحهم وَجْهًا».

فقال لها رسول الله ﷺ: «**أتردين حديقته؟**»

فقالت: «وإن شاء زدته».

فقال ﷺ: «**لا حاجة لنا بالزيادة، ولكن ردي عليه حديقته**».

ويُسمى هذا الأمر بالخلع، أي أن تخلع المرأة نفسها من زوجها الذي تخاف ألا تؤدي له حقًّا من حقوق الزوجية، إنها تخلع نفسها منه بمال حتى لا يصيبه ضرر، فقد يريد أن يتزوج بأخرى وهو محتاج إلى ما قدم من مهر لمن تريد أن تخلع نفسها منه.

ويتابع الحق سبحانه:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾.

وهذا الشيء هو الذي قال عنه الله في مكان آخر:

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠].

ويتابع الحق الآية بقوله:

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

والمقصود هنا هما الزوجان، ومن بعد ذلك تأتي مسئولية أولياء أمر الزوجين والمجتمع الذي يهمه أمرهما في قوله:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وحدود الله هي ما شرعه الله لعباده حدًّا مانعًا بين الحل والحرمة. وحدود الله إما أن تَرِدَ بعد المناهي، وإما أن تَرِدَ بعد الأوامر، فإن وردت بعد الأوامر فإنه يقول:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي آخر غايتكم هنا، ولا تتعدوا الحد، ولكن إن جاءت بعد النواهي يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لأن الحق يريد أن يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس، فتلح عليها أن تفعل، فإن كنت بعيدًا عنها فالأفضل أن تظل بعيدًا. وانظر جيدًا فيما قال رسول الله ﷺ: «**إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه**»(١).

وما دامت الحدود تشمل مناهي الله وتشمل أوامر الله فكل شيء مأمور به وكل شيء منهي عنه يجب أن يظل في مجاله من الفعل في (افعل) ومن النهي في (لا تفعل).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) وانتقل ما يدخل في دائرة (لا تفعل) إلى دائرة (افعل)، هنا يختل نظام الكون، وما دام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث الظلم؛ فالظلم هو أن تنقل حق إنسان وتعطيه لإنسان آخر، وتشريع الطلاق حد من حدود الله، فإن حاولت أن تأتي بأمر لا يناسب ما أمر الله به في تنظيم اجتماعي فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهى عنه، وبذلك تُحدث ظلمًا.

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجًا يمنع وقوع المجتمع في الأمراض والآفات، والبشر إن أحسنَّا الظن بهم في أنهم يشرعون للخير وللمصلحة، فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء، لكننا لا نأمن أن يجهلوا شيئًا يحدث ولا يعرفوه، فهم شرَّعوا لما عرفوا، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها ماذا يكون الموقف؟ إن كانوا مخلصين بحق داسوا على كبرياء غرورهم التشريعي وقالوا: نعدِّل ما شرعنا، وإن ظلوا في غلوائهم فمن الذي يشقى؟ إن المجتمع هو الذي يشقى بعنادهم.

والحق سبحانه وتعالى لا يتهم الناس جميعًا في أن منهم من لا يريد الخير، ولكن هناك فرق بين أن تريد خيرًا وألا تقدر على الخير. أنت شرعت على قدر قدرتك وعلمك. ونعرف جميعًا أن شقاء التجارب في القوانين الاجتماعية النظرية تقع على المجتمع.

ونعرف جيدًا أن هناك فرقًا بين العلم التجريبي المعملي والكلام النظري الأهوائي؛ فالعلم التجريبي يشقى به صاحب التجربة، إن العالم يكد ويتعب في معمله وهو الذي يشقى ويضحي بوقته وبماله وبصحته ويعيش في ذهول عن كل شيء إلا تجربته التي هو بصددها، فإذا ما انتهى إلى قضية اكتشافية فالذي يسعد باكتشافه هو المجتمع.

لكن الأمر يختلف في الأشياء النظرية؛ لأن الذي يشقى بأخطاء المقننين من

البشر هو المجتمع، إلى أن يجيء مقنن يعطف على المجتمع ويعدِّل خطأ من سبقه.

أما الحق سبحانه وتعالى فقد جاءنا بتشريع يحمي البشر من الشقاء، فالله - سبحانه - يتركنا في العالم المادي التجريبي أحرارًا. ادخلوا المعمل وستنتهون إلى أشياء قد تتفقون عليها، لكن إياكم واختلافات الأهواء؛ لذلك تولى الله ﷻ تشريع ما تختلف فيه الأهواء، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بالخطأ من المشرعين، لفترة من الزمن إلى أن يجيء مشرع آخر ويعدل للناس ما أخطأ فيه غيره.

لذلك نجد في عالمنا المعاصر الكثير من القضايا النابعة من الهوى، ويتمسك الناس فيها بأهوائهم، ثم تضغط عليهم الأحداث ضغطًا لا يستطيعون بعدها أن يضعوا رءوسهم في الرمال، بل لابد أن يواجهوها، فإذا ما واجهوها فإنهم لا يجدون حلاً لها إلا بما شرعه الإسلام، ونجد أنهم التقوا مع تشريعات الإسلام.

إن بعضًا من الكارهين للإسلام يقولون: أنتم تقولون عن دينكم: إنه جاء ليظهر على كل الأديان، مرة يقول القرآن: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

ومرة يقول القرآن: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨، ٩].

ويستمر هؤلاء الكارهون للإسلام في قولهم ويضيفون: إن إسلامكم لم يظهر على الدين كله حتى الآن بدليل أن هناك الملايين لم يدخلوا الإسلام!!

ونقول لهم: أو يظهر على الدين كله بأن يؤمن الناس بالإسلام جميعًا، لا لو فطنوا إلى قول الله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لعلموا أن إظهار الإسلام على الدين

لابد أن يلازمه وجود كافرين كارهين، ومادام الإسلام موجودًا مع كافرين كارهين، فهو لن يظهر كدين، ولكنه يظهر عليهم - أي يغلبهم كنظام يضطرون إليه ليحلوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة، فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون، ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الإجتماعية من تعاليم الإسلام.

ولو كانوا سيأخذونه كدين لما قال الحق: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ أو ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ لأنهم عندما يعتنقونه كدين فلن يبقى كاره أو مشرك. لكن حين يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ و﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ فذلك يعني: أن اطمئنوا يا من آمنتم بمحمد ﷺ وأخذتم الإسلام دينًا، إن تجارب الحياة ستأتي لتثبت لدى الجاحدين صدق دينكم، وصدق الله في تقنينه لكم، وسيضطر الكافرون والمشركون إلى كثير من قضايا إسلامكم ليأخذوها كنظام يحلون به مشاكلهم رغم عنادهم وإصرارهم على أن يكونوا ضد الإسلام.

وضربنا على ذلك مثلاً بما حدث في إيطاليا التي بها الفاتيكان قبلة الكاثوليك الروحية؛ فلقد اضطروا لأن يشرعوا قوانين تبيح الطلاق، وحدث مثل ذلك في أسبانيا وغيرها من الدول، انظر كيف تراجعوا في مبادئ كانوا يعيبونها على الإسلام! لقد اضطرتهم ظروف الحياة لأن يقننوا إباحة الطلاق تقنينًا بشريًا لا بتقنين إلهي.

ومثل هذه الأحداث تبين لنا مدى ثقتنا في ديننا، وأن مشكلات البشرية في بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام، فإن لم يأخذوه كدين فسيضطرون إلى أخذه كنظام.

ومن شرف الإسلام ألا يأخذوه كدين؛ لأنهم لو آمنوا به لكانت أفعالهم

وقوانينهم تطبيقًا للإسلام من قوم مسلمين، ولكن أن يظلوا كارهين للإسلام ثم يأخذوا من مبادئ الدين الذي يكرهونه ما يصلح مجتمعاتهم الفاسدة فذلك الفخر الأكبر للإسلام.

إن هذا هو مفهوم قول الحق: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ وإذا ما جاء لك أحد في هذه المسألة فقل له:

من شرف الإسلام أن يظل في الدنيا مشرك، وأن يظل في الدنيا هؤلاء الكفار ثم يرغموا ليحلوا مسائل مجتمعاتهم بقضايا الإسلام، والإسلام يفخر بأنه سبقهم منذ أربعة عشر قرنًا إلى ما يلهثون وراءه الآن بعد مضي كل هذا الزمن.

* * * *

[٢٣] احذري آفات اللسان[1]

اللسان: من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير حجمه، عظيم طاعته وجُرْمه. فمن أطلق للسانه العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع.

وفي هذا العصر لا يكاد يسلم مجلس من مجالسنا من الغيبة والنميمة، والكذب، والسخرية، والاستهزاء، والسب، واللعن. وأصبحت تحية كثير من الناس بينهم التلاعن وسب الوالدين، مع كمٍّ هائل من فحش القول وبذاء اللسان!! ويحسبون الأمر سهلا كما قال تعالى:

﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥].

وعلى السطور القادمة نبين إن شاء الله تعالى عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت، وآفات اللسان.

أ- بيان عظيم خطر اللسان، وفضيلة الصمت:

اعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.

قال ﷺ : «**من صمت نجا**». رواه الطبراني بإسناد جيد.

وقال ﷺ : «**إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تُذكّر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنك إن استقمت وإن اعوججت اعوججنا**». رواه الترمذي.

ووقف ابن مسعود ﷺ على جبل (الصفا) يلبى ويقول: «يا لسان قل خيرً

---

(١) جمعتُ مادة هذه الآفة من: «إحياء علوم الدين» و«آفات اللسان» للشيخ/ سعيد بن وهب القحطاني، و«تحريم آلات الطرب» للشيخ الألباني، و«إغاثة اللهفان» للإمام ابن القيم.

تغنم، واسكت عن شر من قبل أن تندم».

فقيل له: يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟

فقال: لا بل سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»[١].

وقال ﷺ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت**».

وفي رواية: «**أو ليصمت**». متفق عليه.

وقال عقبة بن عامر رضي الله عنه: يا رسول الله ما النجاة؟

فقال: «**أمسك عيك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فَقَمْعٌ والعين مَقَرَّة بما يُوعِى القلب، وقد أفلح من جعل قلبه واعيًا**»[٣].

ولله در القائل:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

ب - آفات اللسان:

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك:

ينبغي على العاقل أن لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولو سبح ربه وذكره سبحانه

(١) رواه البيهقي بسند حسن.

(٢) صحيح: رواه الترمذي.

(٣) حسن: رواه أحمد، وغيره، وحسَّن الهيثمي إسناده «المجمع» (١٠/٢٣٢).

لكان خيرًا له، فكم من كلمة يبنى بها قصرًا في الجنة! فالكلمة إما أن تبنى منارًا وإما أن تُسعِّر نارًا.

قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(١).

الآفة الثانية: فضول الكلام:

فضول الكلام هو: الكلام الزائد على قدر الحاجة.

قال تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله**»(٢).

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل:

هو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، والتفكه بأعراض الناس. فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام.

عن بلال بن الحارث، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرَّجُل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرَّجُل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة**»(٣).

وكان علقمة يقول: «كم من كلام منعنيه حديثُ بلال بن الحارث».

---

(١) **صحيح:** رواه الترمذي.

(٢) رواه البيهقي وإسناده حسن.

(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

فانظر رحمك الله إلى مدى سرعة استجابتهم لتوجيهات رسولهم!

وقال ابن مسعود : «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل»[(١)].

وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر: ٤٥].

الآفة الرابعة: المراء والجدال:

آفة المجالس في عصرنا، الجدال والمراء في الدين وفي الدنيا!! مما أدى إلى إيغار الصدور وجلب الشرور. وهذه ظاهرة مَرَضِيّة، يجب على أولي الألباب أن يجتنبوها، ويجب أن تستأصل من حياتنا.

قال ﷺ: «**ما ضل قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل**»[(٢)].

والمراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ، وإما في المعنى.

والجدال: هو قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه.

قال بلال بن سعد: «إذا رأيت الرَّجُل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته».

وقال مسلم بن يسار: «إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته».

الآفة الخامسة: الخصومة:

الخصومة توغر الصدور، وتهيج الغضب، وتورث العداوة، وتشوش الخاطر،

---

(١) رواه الطبراني بسند صحيح.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

ومنها ينشأ الحقد، والغل، والحسد، وهي مبدأ كل شر. فهي سبب الغيبة والنميمة، وتلمس العثرات، وكشف العورات، بل وقطع الأرحام، وأحيانًا تؤدي إلى سفك الدماء.

قال ﷺ: «**إن أبعض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم**». رواه البخاري.

وقال بعضهم: «إياك والخصومة فإنها تمحق الدين».

فكم من أرحام قطعت، وحقوق هضمت، وبيوت خربت بسبب الخصومة، فلا شيء أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة، ولذلك رغَّب الإسلام في الإصلاح بين الناس، وعد ذلك أفضل درجة من صلاة التطوع، وصيام التطوع!!

وقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟**».

قالوا: بلى.

قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد البين هي الحالقة**»[1].

وفي رواية: «**لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين!!**».

الآفة السادسة: التشدق في الكلام، وتكلف الفصاحة:

وهذا من التصنع المذموم.

قال ﷺ: «**إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا الثرثارون، والمتفيهقون، المتشدقون في الكلام**»[2].

وقال ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة**

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

الكلأ بلسانها». رواه أحمد.

ولا يدخل في هذه الآفة تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منه تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير. أما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال بذلك من التكلف المذموم ولا باعث عليه إلا الرياء.

الآفة السابعة: الفُحش، والسب، وبذاءة اللسان.

الفحش: هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجرى في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون بها.

قال ﷺ: «**إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش**»[1].

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إن الله حييٌ كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع».

وقال إبراهيم بن ميسرة: «يقال: يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب».

قلت: فهل يتعظ الفاحشون بهذا. إن العبارات النابية ملأت حياتنا وشب عليها الصغار، وهرم عليها الكبار، وسقط قناع الحياء.

قال الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى: «ألا أخبركم بأدوأ الداء؟: اللسان البذيء، والخُلق الدنيء».

أما السب: فألعنه وأخبثه (سب الدين) وهو كفر بإجماع المسلمين، فيه يحبط العمل الصالح، وتطبق على قائله أحكام الردة المقررة في كتب الفقه.

---

(١) رواه الحاكم بإسناد صحيح.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧]. ثم «سب المسلم».

قال ﷺ: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**». متفق عليه.

ومن أكبر الكبائر: «سب الوالدين» أو التسبب في سبهما.

قال ﷺ: «**من أكبر الكبائر أن يسب الرَّجُل والديه**».

قالوا: يا رسول الله كيف يسب الرَّجُل والديه؟

قال: «**يسب الرَّجُل فيسب الآخر أباه**». متفق عليه.

الآفة الثامنة: اللعن:

إما لحيوان، أو لجماد، أو لإنسان، وكل ذلك مذموم، والدليل:

قوله ﷺ: «**لعن المؤمن كقتله**». متفق عليه.

وقال ﷺ: «**إن اللعانين لا يكونوا شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»[(١)].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رَجُلٌ يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ: «**يا عبد الله لا تَسِر معنا على بعير ملعون**»[(٢)].

واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله وهو الكفر والظلم بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وكل شخص ثبتت لعنته شرعًا كقولك: فرعون لعنه الله، أبو جهل لعنه الله، لأنه ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعُرف ذلك شرعًا، وأما شخص بعينه في زماننا كقولك: زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلاً فيه خطر ربما

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

يسلم فيموت مقربًا عند الله، فكيف يحكم بكونه ملعونًا؟ ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق.

قال ﷺ: «**لا يرمى رَجُلٌ رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**». رواه البخاري.

الآفة التاسعة: الغناء والشِّعر:.

والمقصود هنا: المذموم منهما؛ فالغناء كالشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح.

فالشعر نوعان:

محمود: وهو المعنيُّ بقول رسول الله ﷺ: «**إن من الشِّعر لحكمة**».

والمذموم: هو المعنيُّ بقول رسول الله ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه خيرٌ له من أن يمتلئ شعرًا**»(١).

والمقصود هنا: هو الشعر الذي يحتوي على غزل فاجر، أو تشبب بنساء المسلمين، أو يدعو إلى خنا وزنا، أو يحتوي على كلمات شركية أو بدعية، أو يدعو إلى عصبية.

قال تعالى:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

كذلك (الغناء) منه المحمود: وهو الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويدعو إلى شحذ العزائم لمقاتلة الأعداء، أو يدعو إلى العودة والرجوع إلى القرآن والسنة شريطة أن يخلو من اختلاط الرجال بالنساء، ويخلو من العرى والمنكر، ولا يصدر من صوت مثير كصوت المرأة.

---

(١) رواه مسلم.

وكذلك لا يشغل عن واجب، فهذا لا بأس به. أما إذا دعا إلى رذيلة، وأثار الغرائز الكامنة، واحتوى على فسق وفجور - كما هو الحال في معظم أغاني هذا الزمان - فالحرمة هنا لا يختلف عليها اثنان، وقائله آثم، والمستمع شريكه.

قال رسول الله ﷺ: «**نهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين: صوتٌ عند نغمة لهو، ولعب، ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة**»[١].

وقال ﷺ: «**إن في أمتي خسفًا ومسخًا وقذفًا**».

قالوا: يا رسول الله وهم يشهدون أن لا إله إلا الله؟

فقال: «**نعم، إذا ظهرت المعازف، والخمور، ولبس الحرير**»[٢].

وقد وصف النبي ﷺ القينة - أي المغنية - بأنها «**قد نفخ الشيطان في منخريها**»[٣].

ومرّ ابن عمر رضي الله عنه بجارية تغني، فقال: «لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه»[٤].

ومرّت عائشة - رضي الله عنها - بمُغنٍ يتغنى ويُحرك رأسه طربًا في البيت وكان ذو شعر كثير فقالت: «أُف شيطان، أخرجوه أخرجوه، فأخرجوه»[٥].

وقال الإمام الشعبي رحمه الله تعالى: «لعن الله المُغني، والمُغنىَّ له»[٦].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك فأقل ما فيه أنه من شعار الفساق وشاربي الخمور».ا.هـ.

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.
(٢) **صحيح**: رواه ابن أبي شيبة، وانظر: «صحيح الجامع» (٢١٢٨).
(٣) رواه أحمد، وقال في «المجمع»: رجال أحمد رجال صحيح.
(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والبيهقي وغيرهما، وهو صحيح عنه رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» أيضًا وهو صحيح عنها - رضي الله عنها -.
(٦) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

وكما حرم الإسلام هذا النوع من الغناء فقد حرم الأجر عليه.

قال ﷺ: «**لا تبيعوا القينات - أي المغنيات - ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام**»[1].

هذا، وقد عرف أعداء الإسلام ما للأغاني والأناشيد من تأثير على نفوس الجماهير فأسرعوا للسيطرة على المغنين والمغنيات وواضعي الألحان وعملوا على تجنيدهم بالمغريات المختلفة لتوجيه ما يقدمونه من الأغاني والأناشيد توجيهًا يخدم أهداف الغزو الفكري والنفسي والسلوكي الذي يقومون به ضد الإسلام والمسلمين وتم لهم ما أرادوا.

فها هو الرَّجُل يفتتن بالمغنية فيقفز نحوها ليمرغ وجهه على قدميها!!

وها هو الأداء يُغري ويوقع في الفحشاء والمنكر لكثرة التكسر في القول وتعمد الإثارة.

وها هي الكلمات تخالف تعاليم الإسلام فسمعنا من يمجد الغرام، وصاحبة العيون الجريئة، وسب القدر!!! والدعوة إلى العشق وإثارة كوامن الشهوة.

وها هو الوقت يضيع كله أو جله في اللهو والصخب، وانشغل الناس عن الصلوات وأداء الواجبات، وانتشرت على ألسنة الأطفال والشباب والنساء والرجال العبارات البذيئة، والقفشات الدنيئة، ووهنت العزائم، وتميعت النفوس، وتعطلت الطاقات، وانتشر التخنث، ويا ليت قومي يسمعون. وقد أمر الله تعالى في شريعته المحكمة بإغلاق الأبواب المفضية إلى الفساد، وقطع الأسباب المؤدية إليه، كمن يهيج عند سماع الأبيات ولا يتأثر بسماع الآيات.

---

(١) صحيح: انظر: «صحيح سنن الترمذي» (١٠٣١). تنبيه: للشيخ الألباني - رحمه الله تعالى - رسالة بعنوان «تحريم آلات الطرب» من أراد المزيد فليرجع إليها.

ينوح ويبكي عند سماع الرغيد، ولا يبالي عند سماع الوعد والوعيد!! فمن كانت هذه صفته فليس هو على الطريقة الصحيحة بل هو من الذين إن لم يتوبوا، ويقلعوا نودى عليهم يوم القيامة بالخزي والفضيحة. نسأل الله تعالى السلامة.

الآفة العاشرة: المزاح:

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدرًا يسيرًا يستثنى منه.

فالمذموم: الإكثار منه والإفراد فيه، أو يكون بكلام مكروه ومذموم شرعًا.

أما المزاح المباح: فهو المزاح بكلام لا يخدش الحياء ولا يتعدى الأدب.

وقال رسول الله ﷺ: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا**».

كما أن الإفراط فيه يُسقط المهابة والوقار.

قال عمر رضي الله عنه: «من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استُخف به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبُه».

ومن وصايا بعض الدعاة: «لا تكثر الضحك فإن القلب المتصل بالله ساكن وقور».

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء:

قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة - التقليد - في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء.

قالت عائشة - رضي الله عنها -: حكيتُ إنسانًا فقال لي النبي ﷺ : «**والله ما أُحب أني حاكيتُ إنسانًا ولي كذا وكذا**»[1].

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر:

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء.

وقال ﷺ : «**المجالس بالأمانة**». حديث حسن.

وقال الإمام الحسن - رحمه الله تعالى -: «إن من الخيانة أن تُحدث بسر أخيك».

ومن أشر ذلك: «إفشاء سر الزوجة أو العكس».

قال ﷺ : «**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرَّجُل يُفضى إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها**». رواه مسلم.

ومعنى يفضي إلى امرأته: أي يصل إليها بالمجامعة.

قلت: والحديث عن هذه الأمور شاع في أوساط الناس ولا يصدر إلا من قوم فقدوا الحياء، وتعروا من الأخلاق.

الآفة الثالثة عشر: الوعد الكاذب:

الوعد الكاذب من أمرات النفاق.

قال ﷺ : «**أربعة من كن فيه كان منافقًا، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه**

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». متفق عليه.

وفي رواية:

«**خصلة**». بدلاً من «**خلة**».

وهذا يتنزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعرض له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقًا وإن جرى عليه صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضًا كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورًا من غير ضرورة حاجزة.

قصة:

لما حضرت الوفاة عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: «إنه كان خطب إلى ابنتي رَجُلٌ من قريش، وقد كان إليه مني شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق!! أشهدكم أني قد زوجته ابنتي!».

الآفة الرابعة عشر: الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

قال أوسط بن إسماعيل: سمعت أبا بكر الصديق ﷺ يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول - ثم بكى - وقال: «**إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار**»[1].

قال الحسن: «كان يقال: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بنى عليه النفاق الكذب».

---

(١) حسن: أخرجه النسائي.

وقال ﷺ: «**كبُرَتَ خيانة أن تحدِّث أخاك حديثًا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب**»[(١)].

وقال ﷺ: «**إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به**»[(٢)].

وأعظم الكذب الكذب على الله:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

ثم الكذب على رسل الله:

قال ﷺ: «**من حدَّث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبَيْن**». رواه مسلم.

ثم الكذب على الناس:

قال ﷺ: «**من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله** ﷻ **وهو عليه غضبان**». متفق عليه.

وفي بعض الآثار:

قال موسى عليه السلام: «**يا رب، أي عبادك خير لك عملاً؟**».

قال: «**من لا يكذب لسانه، ولا يفجر قلبه، ولا يزني فرجه**».

ما يباح فيه الكذب:

اعلم أن الكذب ليس حرامًا لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه

---

(١) رواه الطبراني بسند جيد.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

فيكون جاهلاً، وقد يكون الكذب مأذونًا فيه، وربما كان واجبًا.

قال ميمون بن مهران: «الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارًا فانتهى إليك فقال: أرأيت فلانًا؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تَصْدُق به. وهذا الكذب الواجب».

وعن أم كلثوم - رضي الله عنها - قالت: «ما سمعت رسول الله ﷺ رخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرَّجُل يقول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها». رواه مسلم. قلت: وقوله: «**والرجل يحدِّث امرأته**». أي: من أجل أن يرضيها، ومن أجل أن ترضيه ويؤذن له في إضفاء بعض الأوصاف الجميلة التي ليست فيها تأليفًا لقلبها وتطييبًا لخاطرها، وليس المقصود الكذب في كل حال.

الآفة الخامسة عشر: الغيبة:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

والغيبة هي: ذكرك أخاك بما يكره.

قال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**». رواه مسلم.

وقال ﷺ: «**مررتُ ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم**». رواه أبو داود.

وقال الحسن: «والله للغيبة أسرع في دين الرَّجُل المؤمن من الأكلة - السوسة - في الجسد».

وقال بعضهم: «أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة - أي وفقط - ولكن في الكف عن أعراض الناس».

وعن شفيّ بن ماتع الأصبحي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أربعة **يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم، يدعون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض:**

ما بالُ هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى؟

قال: فرجل مغلق عليه تابوت من جمر، ورجل يجر أمعاءه، ورجل يسيل فوه قيحًا ودمًا، ورجل يأكل لحمه.

قال: فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟

فيقول: إن الأبعد مات وفي عنقه أموال الناس ما يجد لها قضاءً أو وفاءً. ثم يقال للذي يجر أمعاءه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟

فيقول: إن الأبعد كان لا يُبالي أين أصاب البول منه لا يغسله.

ثم يقال للذي يسيل فوه قيحًا ودمًا: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟

فيقول: إن الأبعد كان ينظر إلى كلمة فيستلذها كما يستلذ الرفث ثم يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟

فيقول: إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة والنميمة»[1].

واعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه، أو نسبه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت»، والطبراني في «الكبير»، وقال الهيثمي: «هو هكذا في الأصل المسموع، ورجاله موثقون». «مجمع الزوائد» (١/٢٠٨، ٢٠٩).

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت: إنها قصيرة.

فقال ﷺ لها: «**اغتبتها**». رواه أحمد

هذا، والواجب على المكلفين من المسلمين دفع الغيبة، وصدر المغتابين، وتحذيرهم، وترك الإنصات لهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠]. كما يجب عليهم دفع الأذى عن إخوانهم.

قال ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقًّا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة**». رواه ابن أبي الدنيا.

كما يجب على المسلم كف أذاه عن أخيه.

قال ﷺ: «**من كف لسانه ستر الله عورته**».

وطوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس.

الأعذار المرخصة في الغيبة:

رخص الإسلام الغيبة في أمور منها:

١- **التظلم**: فللمظلوم أن يظهر عيوب الظالم وذلك لرد الحقوق وإقامة العدل، فإن لصاحب الحق مقالاً.

قال الله تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

وفي الحديث الشريف: «**لَيُّ الواجد يَحُل عقوبته وعرضه**»[١].

ومعنى «**لَيَّ الواجد**»: أي مراوغة الغني عن سداد ما عليه.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

٢- **الاستفتاء**: كما يقول السائل للمفتي: ظلمني أبي، أو تقول السائلة: ظلمني زوجي . وهكذا.

فلقد ثبت أن (هند بنت عتبة) - رضي الله عنها - قالت للنبي ﷺ: «إن أبا سفيان رَجُلٌ شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه؟».

فقال ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**». متفق عليه.

٣- **تحذير المسلم من الشر**: فإذا رأيت فاسقًا مجاهرًا، أو مبتدعًا داعيًا لبدعته، كان من الواجب عليك - شرعًا - تحذير الناس منه.

وكانوا يقولون: «ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه».

كفارة الغيبة:

الواجب على صاحب الغيبة الندم، والتوبة، والإقلاع وترك الإصرار، واختلفوا: هل من الواجب طلب الصفح ممن اغتابه أم لا؟

فقال الحسن - رحمه الله تعالى -: «يكفيه الاستغفار دون الاستحلال».

وقيل: بل عليه أن يستحل من اغتابه.

فقد سُئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة، فقال: «أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبْتُ فيما قلتُ وظلمتُك وأسأتُ فإن شئت أخذْتَ بحقك وإن شئتَ عفوْتَ».

قال الغزالي: «وهذا هو الأصح».

قلت: وعلى أخيه أن يقبل عذره.

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢].

وعن جودان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اعتذر إلى أخيه المسلم، فلم**

يقبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مَكْسٍ»[(١)].

قال أبو الزبير: و**المكَّاس**: العشار.

فإن كانت المصارحة ستؤدي إلى ضرر أشد، أو تعذر اللقاء لأسباب فالتوبة تكفي - إن شاء الله - مع ذكر محاسن من اغتابه، وكثرة الثناء ع و﴿ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

فإن لم توجد ثمة عوائق فالواجب المصارحة وطلب العفو.

قال ﷺ : «**من كانت لأخيه مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته**». متفق عليه.

الآفة السادسة عشر: النميمة.

النميمة: نقل الكلام بين الناس على سبيل الإفساد.

قال الله تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: ١١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١].

قيل: الهمزة: النمام.

وقال ﷺ : «**لا يدخل الجنة نمام**». متفق عليه.

وقال: «**أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة، المفرِّقون بين الأخوان، الملتمسون للبرء العثرات**». رواه الطبراني.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ مر بقبرين يعذبا

---

(١) قال المنذري: «رواه ابن ماجه بإسنادين جيدين». «الترغيب» (٤١٣٨).

فقال: «**إنهما يعذَّبان، وما يعذَّبان في كبير بلى إنه كبير: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمةن وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**». رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا نمشي مع رسول الله ﷺ فمررنا على قبرين فقام فقمنا معه، فجعل لونه يتغير حتى رَعَدَكُمُّ قميصه فقلنا: ما لك يا رسول الله؟

فقال: «**أما تسمعون ما أسمع؟**».

فقلنا: ما ذاك يا نبي الله؟

قال: «**هذان رجلان يعذبان في قبورهما عذابًا شديدًا في ذنب هين**».

قلنا: فيم ذاك؟

قال: «**كان أحدهما لا يستنزه من البول، وكان الآخر يؤذي الناس بلسانه، ويمشي بينهم بالنميمة**». فدعا بجريدتين من جرائد النخل، فجعل في كل قبر واحدة.

قلنا: وهل ينفعهم ذلك؟

قال: «**نعم يخفف عنهما ما دامتا رطبتين**»[1]. رواه ابن حبان في صحيحه.

---

(١) هذا خاص بالنبي ﷺ دون غيره. قال الشيخ الألباني: «فإنه خاص به ﷺ بدليل أنه لم يجر العمل به عند السلف». «أحكام الجنائز» (٢٠٠).
وقال الخطابي في «معالم السنن» (٢٧/١): «إنه من التبرك بأثر النبي ﷺ ودعائه بالتخفيف عنهما. والعامة في كثير من البلدان تغرس الخوص في قبور موتاهم، وأراهم ذهبوا إلى هذا، وليس لما تعاطوه من ذلك وجه».ا.هـ. بتصرف.
قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على الترمذي (١٠٣/١) عقب هذا: «وصدق الخطابي، وقد ازداد العامة إصرارًا على هذا العمل الذي لا أصل له، و غلوا فيه، خصوصًا في بلاد مصر، حتى صاروا يضعون الزهور على القبور. وحتى صارت عادة شبيهة بالرسمية في المجاملات الدولية. وبعضهم يضع الزهور الصناعية التي لا نداوة فيها تقليدًا للإفرنج، واتباعًا لسنن من قبلهم، ولا ينكر ذلك عليهم العلماء».ا.هـ. بتصرف.

قوله «**في ذنب هين**»: أي هين عندهما، وفي ظنهما، لا أنه هين في نفس الأمر، فقد تقدم قوله ﷺ: «**بلى إنه كبير**». وقد أجمعت الأمة على تحريم النميمة، وأنها من أعظم الذنوب عند الله تعالى.

هذا، وعلى العاقل إذا نقلت إليه نميمة أن يتبع الآتي:

١- أن لا يصدق النمام، لأن النمام فاسق، والفاسق مردود الشهادة.

٢- أن ينهاه عن ذلك، ويبغضه في الله تعالى. قال الحسن: «من نَمَّ إليك نَمَّ عليك».

٣- أن لا يظن بأخيه المنقول عنه السوء، لأن حسن الظن واجب.

٤- أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث والتحقيق.

٥- أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكى نميمته فتكون قد آتيت ما عنه نهيت.

قال رَجُلٌ لعمرو بن عبيد: «أن السواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر!».

فقال له عمرو: «يا هذا، ما رعيت حق مجالسة الرَّجُل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين».

حكاية:

«روى أن رجلاً رأى غلامًا[١] يباع، وهو ينادي عليه ليس به عيب إلا أنه نمام فقط، فاستخف بالعيب واشتراه، فمكث عنده أيامًا ثم قال لزوجة سيده: إن سيدي يريد أن يتزوج عليك أو يتسرى[٢].

(١) أي: غلامًا رقيقًا (عبدًا).

(٢) يعاشر جاريته الرقيقة معاشرة زوجته.

وقال: إنه لا يحبك إن أردت أن يعطف عليك ويترك ما عزم عليه فإذا نام فخذي الموسى واحلقي شعرات من تحت لحيته واتركي الشعرات معك. فقالت في نفسها: نعم.

واشتغل قلب المرأة، وعزمت على ذلك إذا نام زوجها، ثم جاء إلى زوجها. وقال: سيدي: إن سيدتي قد اتخذت لها صديقًا ومحبًّا غيرك ومالت إليه، وتريد أن تتخلص منك، وقد عزمت على ذبحك الليلة، وإن لم تصدقني فتناوم لها الليلة وانظر كيف تجيء إليك وفي يدها شيء تريد أن تذبحك به!!

وصدق سيده. فلما كان الليل جاءت المرأة بالموسى لتحلق الشعرات من تحت لحيته والرجل يتناوم لها فقال في نفسه: والله صدق الغلام بما قال. فلما وضعت المرأة الموسى وأهوت إلى حلقه قام وأخذ الموسى منها وذبحها به، فجاء أهلها فرأوها مقتولة فقتلوه. فوقع القتال بين الفريقين بشؤم ذلك العبد المشئوم».

فلذلك سمى الله النمام فاسقًا في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝﴾ [الحجرات: ٦][1].

الآفة السابعة عشر: كلام ذي اللسانين والوجهين.

هو الذي يتردد بين المتعادين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه.

قال رسول الله ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة**».

وقال ﷺ: «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث**». متفق عليه.

---

(١) «الكبائر» للذهبي (١٨٣، ١٨٤).

وقال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى -: «قرأت في التوراة: بطلت الأما والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتي مختلفتين».

الآفة الثامنة عشر: المدح:

وقد نهى الشرع عنه في بعض المواضع. والمدح يدخله ست آفات: أربع المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب.

قال خالد بن معدان - رحمه الله تعالى -: «من مدح إمامًا أو أحدًا بما ليس فيه على رءوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر لسانه».

والثانية: أنه قد يدخله الرياء.

والثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه.

وثبت أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال له: «**ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح**». ثم قال: «**إن كان أحدكم لابُدَّ مادحًا أخاه فليقل أحسب فلانًا ولا أزكي على الله أحدًا حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك**». متفق عليه بنحوه.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز.

قال الحسن: «من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يُعْصى الله تعالى في أرضه».

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إ

يكُ سيدًا، فقد أسخطتم ربكم ﷻ »[١].

فالظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح.

وأما الممدوح: فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبرًا وإعجابًا هما مهلكان.

الثاني: هو أنه إذا أُثنى عليه بالخير فرح به ورضى عن نفسه.

قال عمر: «المدح هو الذبح».

فإن سلم المدح من هذه في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبًا إليه. ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال: «**لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب!!**»[٢].

وأي ثناء يزيد على هذا؟ ولكنه ﷺ قال عن صدق . وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرًا وعجبًا وفتورًا.

الآفة التاسعة عشر: سب الدهر:

يخطئ كثير من الناس حين يسبون الزمان، أو الليل، أو النهار، أو الريح!

قال تعالى في الحديث القدسي الجليل:

«**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**». متفق عليه.

الآفة العشرون: قول ما شاء الله وشاء فلان، أو لولا الله وفلان:

أو قول بعض العامة من الناس: «البركة في ربنا وفيك». أو «سأعتمد على الله وعليك!!».

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح. «الترغيب» (٤٢٩٧).

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

قال رسول الله ﷺ : «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**». رواه أحمد.

الآفة الحادية والعشرون: إفشاء الأسرار الزوجية:

نسمع كثيرًا من بعض الأزواج يحكى ما تم بينه وبين زوجته على سبيل الفكاهة، أو الافتخار، ولا يدري أنه بذلك من شر عباد الله، وشبهه النبي ﷺ بالشيطان!

قال ﷺ : «**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرَّجُل يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها**». رواه مسلم.

وقوله «**يفضى إلى امرأته**»: أي يصل إليها بالمباشرة أو المجامعة.

وقال عمن يفعل ذلك: «**كمثل شيطان أتى شيطانة على قارعة الطريق والناس ينظرون!!**».

الآفة الثانية والعشرون: من حلف على ملة غير الإسلام:

كمن يحلف قائلاً: «أكون على غير الملة لو فعلت كذا». أو قول بعض الناس: «أكون يهوديًا لو فعلت كذا!!». والعياذ بالله وهذا خطر عظيم.

قال ﷺ : «**من حلف على ملة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال**». رواه البخاري.

الآفة الثالثة والعشرون: شهادة الزور:

قال رسول الله ﷺ : «**عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله** ﷻ». ثم تلا هذه الآية:

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]. رواه أحمد.

وشاهد الزور لا يقبل الله تعالى له عملاً!!

قال ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**». رواه البخاري.

هذا، ويترتب على شهادة الزور عدة عظائم وجرائم منها:

١- تضليل الحاكم أو القاضي، والتسبب في الحكم بالباطل.

٢- الظلم لمن شهد له، لأنه ساق إليه ما ليس من حقه.

٣- الظلم لمن شهد عليه، حيث أخذ منه ما له بشهادة كاذبة.

٤- إنقاذ المجرم من العقاب.

٥- وهذه أخطرها: محاربة عدالة الله في الأرض!!

نسأل الله تعالى السلامة.



[٢٤] نهي المرأة عن إجهاض طفلها

إجهاض الجنين - لغير عذر شرعي - جريمة أخلاقية، وجناية إنسانية، لذا حرم الإسلام الإجهاض ونهى عنه.

وحول هذا الموضوع يحدثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول:

«أراد سبحانه أن يحدثنا عن الحياة في أصلها، فأمر باستبقاء النسل، ونهى عن قتله فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

الخالق سبحانه يُحذِّرنا: إياكم أنْ تُدخِلوا مسألة الرزق في حسابكم، لأنكم لم تخلقوا أنفسكم، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم.

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود، وما دام هو سبحانه الذي خلق، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع، فإياك أنْ تتعدَّى اختصاصك، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾..

القتل: إزهاق الحياة، وكذلك الموت. ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته.

فالقتل: إزهاق الحياة بنَقْض البِنية: لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى، وهي أجهزة الجسم، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة.

فإذا ضرب إنسانٌ إنسانًا آخر على رأسه مثلاً، فقد يتلف مُخّه فتنتهي حياته، لكن تنتهي بنقض البنية التي بها الحياة، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له

مواصفات خاصة، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح.

أما الموت: فيبدأ بمفارقة الروح للجسد، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك. وتتلَفُ أعضاؤه، فالموت يتم في سلامة الأعضاء.

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي لا تُضيء، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة: من مُولِّد أو مصدر للكهرباء، وسلك مُوصِّل ولمبة كهرباء، فإذا كُسِرَتْ هذه اللمبة يذهب النور، لماذا؟

لأنك نقضتَ شيئًا أساسيًّا في عملية الإنارة هذه. وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح، لأنك نقضْتَ عنصرًا أساسيًّا من بنية الإنسان، ولا تستمر الروح في جسده بدونها.

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت- ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد- لكن توجد عقوبة على القتل.

لأن حياة كل منّا هي بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى، وهو مِلْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه، و إلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار، وجعله كفرًا بالله؟!.

إذن: المنهي عنه في الآية القتل، لأنه من عمل البشر، وليس الموت. وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

فالقتل غير الموت، القتل اعتداء على بِنية إنسان آخر وهَدْم لها.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْلَـٰدَكُم ﴾.

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى، ولكن المشهور في استقصاء التاريخ أنهم

كانوا يَئدون البنات دون الذكور، وفي القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝﴾ [التكوير:٨، ٩].

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْنًا وعُدّةً في مُعْترك الحياة، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض، كما يَروْن فيهم العِزْوة والامتداد. في حين يعتبرون البنات مصدرًا للعار، خاصة في ظِلّ الفقر والعَوَزِ والحاجة، فلربما يستميل البنت ذو غِنى إلى شيء من المكروه في عِرْضها، وبهذا الفهم يئول المعنى إلى الرزق أيضًا.

وقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

أي: خَوْفًا من الفقر، والإملاق: مأخوذة من مَلَق وتملّق، وكلها تعود إلى الافتقار، لأن الإنسان لا يتملَّق إنسانًا إلا إذا كان فقيرًا لما عنده محتاجًا إليه، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته.

وقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وفي هذه الآية مَلْمح لطيف يجب التنّبه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض.

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

أي: خَوْفًا من الفقر، فالفقر- إذن - لم يَأْتِ بعد، بل هو مُحْتمل الحدوث في مستقبل الأيام، فالرزق موجود وميسور، فالذي يقتل أولاده في هذه الحالة غير مشغول برزقه، بل مشغول برزق أولاده في المستقبل، لذلك جاء الترتيب هكذا:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾.

أولاً: لأن المولود يُولدَ ويولد معه رزقه، فلا تنشغلوا بهذه المسألة، لأنها ليستْ من اختصاصكم.

ثم: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾.

أي: أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم. ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنه: لا تقتلوا أولادكم خَوْفًا من الفقر، فنحن نرزقكم من خلالهم، ومن أجلهم.

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة، لأن أعداء الدين الذين يُنقِّبون في القرآن عن مَأْخذ يروْنَ تعارضًا أو تكرارًا بين هذه الآية التي معنا وبين آية أخرى تقول:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

ونقول لهؤلاء: لقد استقبلتم الأسلوب القرآني بغير المَلَكَة العربية في فَهْمه، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة، بل هو أسلوب بليغ يحتاج في فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لُغوىٍّ.

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليمًا فلن تجدوا فيه تعارضًا ولا تكرارًا، فليست الأولى أبلغَ من الثانية، ولا الثانية أبلغ من الأولى، بل كل آية بليغة في موضوعها، لأن الآيتين وإنْ تشابهتا في النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق في المعنى كبير، فآية الإسراء تقول:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب: نرزقهم وإياكم.

أما في آية الأنعام:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

فلابُدَّ أن نلاحظ أن للآية صدرًا وعَجُزًا، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر، بل لابُدَّ أن تجمع في فَهْم الآية بين صدرها وعجزها،وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أي إشكال.

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَيْ الآيتين، وأغفلوا صَدريهما، ولو كان الصدر واحدًا في الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه، ولكنْ صَدْري الآيتين مختلفان:

الأولى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

والأخرى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.

والفرْق واضح بين التعبيرين: فالأول: الفقر غير موجود، لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث، ولكنه مُتوقَّع في المستقبل، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو، بل برزق مَنْ يأتي من أولاده.

أما التعبير الثاني: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.

فالفقر موجود وحاصل فعلاً، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء في الرزق عن الأبناء.

وما دام الصَّدْر مختلفًا، فلابُدَّ أن يختلف العَجُز، فأيْنَ التعارضُ إذن؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم﴾.

فالفاعل جمع، والمفعول به جمع، وسبق أن قلنا: إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، فالمعنى: لا يقتل كل واحد منكم ولده. كما يقول المعلم للتلاميذ: أخرجوا كُتبكم. والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه.

فإنْ قال قائل: إن الآية تنهي أنْ يقتلَ الأب ولده خَوْفًا من الفقر، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له.

نقول: لا. لأن معنى الآية ألا يقتل كل الآباء كل الأولاد، فينسحب المعنى على أولادي وأولاد غيري، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع. أما لو قُلْنا: إن المعنى: تجاملني وتقتل لي ابني، وأجاملك وأقتل لك ابنك، فهذا لا يستقيم، لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع.

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ .

خِطْئًا مثل خطأ، وهو الإثم والذنب العظيم. وتأتي بالكسر وبالفتح كما نقول: خُذوا حِذْركم، وخذوا حَذَركم.

وكلمة: ﴿ خِطْئًا ﴾ .

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب، ولكنك تجاوزْتَه.

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه، ثم يُصوِّب له هذا الخطأ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التي يسير عليها،ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ.

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطأه ونُرشده، لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب.

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ، ولكنه لا يُصحِّحه، بل يُقدِّره بالدرجات التي تُحسَب على التلميذ، وتنتهي المسألة بالنجاح لِمَنْ أصاب، وبالفشل لمن أخطأ، لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزِمة، عليه أنْ يسيرَ عليها.

وكلمة «خطْئًا أو خطأ» مأخوذة من خطا خطوة، وتعني الانتقال بالحركة، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استُقِرَّ عليه وتعارف الناس عليه، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره، فهذا هو الخطأ أي: الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب.

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [البقرة:١٦٨].

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله.

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفةً له في الأرض ليعمرها، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد، وهم بذُور الحياة في المستقبل؟.

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن ﴿ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ المراد بها البنون دون البنات، وسلَّمْنا معه جدلاً أنك تُميت البنات، وتُبقي على الذكور، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى؟!

إذن: هذا فَهمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد، وهم البنون والبنات معًا.

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير، فقال: ﴿ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة:

أولها: أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله، ولا يهدم بنيان الله إلا الله.

ثانيها: أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض.

ثالثها: أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان، لأن ولدك بعض مِنْك، وقتله يُجرِّدك من كل معاني الأُبوة والرحمة، بل والإنسانية.

وهكذا وضع الحقُّ سبحانه لنا ما يضمن بقاء النَّسْل واستمرار خلافة الإنسان لله في أرضه، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد» ا.هـــ.

* * * *

فتوى للإمام الأكبر الشيخ جاد الحق عليّ جاد الحق

شيخ الأزهر - بشأن الإجهاض

قال - رحمه الله - :

« بعد أن عرض آراء الفقهاء، نستخلص من العرض السابق المبادئ الآتية:

١- فقهاء المذاهب جميعًا على أن إسقاط الجنين (دون عذر بعد نفخ الروح فيه) محظور شرعا، ومعاقب عليه قانونا.

٢- التعقيم لمنع الإنجاب نهائيا- دون مسوغ شرعي- محرم شرعا.

٣- الالتجاء إلى وقف الحمل للعيوب الوراثية جائز.

٤- يجوز إسقاط الحمل- ولو نفخت فيه الروح- في حالة إنقاذ الأم من خطر محقق وبناء على طلبها، وبعد تقرير الطبيب المختص أن بقاء الحمل في بطنها خطر على حياتها أو عند ولادتها.

هذا وقد أكد هذا مجمع البحوث الإسلامية في الجلسة رقم (٧) من الدورة رقم (٣٠) والرقم العام للمحضر ٢٢١ بتاريخ ١٩ من شوال سنة ١٤١٤ هـ

١٩٩٤/٣/٣١ م

حيث قرر: «أنه يمتنع إسقاط الحمل مطلقًا إلا إذا كان هناك سبب طبي تقتضيه المحافظة على حياة الأم، لأنها أصله وحياتها متحققة، وقد استقرت حياتها، ولها حظ مستقل في الحياة، كما أن لها وعليها حقوقا، فلا يضحى بالأم في سبيل جنين لم تستقل حياته بعد، بل هو في الجملة كعضو من أعضائها » .

وهذا القرار اختيار للراجح في مذهب الإمام مالك الذي منع الإجهاض مطلقا.

وبعد أن جرى في هذا المحضر مناقشة وضع الحمل، وأنه محترم في كل الأطوار أي منذ تمام التلقيح.

لما كان ذلك: وبهذا الاعتبار- أي متى استقر الجنين بتمام التلقيح في الرحم- امتنع إجهاضه بأية وسيلة من الوسائل المؤدية إلى إسقاطه من بطن أمه قبل تمام دورته الرحمية إلا إذا دعت الضرورة لهذا الإجهاض، حفظا لحياة الأم، ودرءًا للخطر عنها، كما إذا كانت المرأة الحامل عسرة الولادة، وقرر الأطباء المتخصصون أن بقاء الحمل ضارٌّ بها، فعندئذ يباح الإجهاض، بل إنه يصير واجبا حتما إذا كان يتوقف عليه حياة الأم عملا بقاعدة «يزال الضّرر الأشدّ بالضّرر الأخف»[1]، وبعبارة أخرى إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما، ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة أوردها الفقهاء.

ولاشك أنه إذا دار الأمر بين موت الحامل بسبب الحمل وبين هذا الحمل وإسقاطه، كان الأولى بقاء الأم، لأنها الأصل، ولا يضحى بها في سبيل إنقاذ الجنين لا سيما وحياة الأم مستقرة، ولها وعليها حقوق، وهو بعد لم تستقل حياته، بل هو في الجملة كعضو من أعضائها، وقد أباح الفقهاء قطع العضو المتآكل، أو الجزء المريض بمرض لا شفاء منه حماية لباقي الجسم..

وإذا كان ذلك، وكان الإجهاض بعد نفخ الروح قتلا للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق لم تكن العيوب التي تكتشف بالجنين مبررا- شرعا- لإجهاضه أيا كانت درجة هذه العيوب، من حيث إمكان علاجها طبيا أو جراحيًّا أو عدم إمكان ذلك لأي سبب كان متى أخذ في الاعتبار أن التطور العلمي التجريبي دل على أن بعض الأمراض والعيوب قد تبدو في وقت مستعصية على العلاج ثم

(١) «الأشباه والنظائر» لابن نجيم الحنفي المصري.

يستظهر لها العلم العلاج والإصلاح، وسبحان الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم بل يعلمه بقدر درجة استعداده ووسائله.

قال الله - تعالى- :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

وإذا كانت الأمراض والعيوب وراثية أمكن- لمنع انتشارها في الذرية- الالتجاء إلى وقف الحمل مؤقتا أو نهائيا حسب الأحوال دون حاجة للإجهاض.

أما اكتشاف العيوب - المسئول عنها في الصور المطروحة بالسؤال- بالجنين قبل نفخ الروح فيه فإنه قد تقدم بيان أقوال الفقهاء في الإجهاض في هذه المرحلة والرأي فيها، كما تقدم الرأي الذي انتهى إليه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف من اختيار مذهب الإمام مالك بمنع الإجهاض مطلقًا على نحو ما سبق تأصيله.

والله - سبحانه وتعالى- أعلم» ا.هـ(١).



(١) «بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة» لفضيلته (٥/٩٨-١٠١).

[٢٥] النهي عن الزنا والسحاق

أولاً: النهي عن الزنا:

قال الحق سبحانه:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

أراد سبحانه أن يحمي هذا النسل من الضياع، ويوفر له الحياة الكريمة، والإنسان مِنّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحًا، ويُؤثره على نفسه، ويُخرج اللقمة من فِيهِ ليضعها في فم ولده، ويسعى جاهدًا لِيُوفّر له رفاهية العيش، ويُؤمِّن له المستقبل المُرضِي، وصدق الشاعر حين قال:

إنما أولادُنا أكبادُنا تمشِي علَى الأرضِ

إنْ هَبَّتِ الريحُ على بَعضِهِم امتنعَتْ عَيْني عَنِ الغُمْضِ

لكن هذا النظام التكافليّ الذي جعله الحق سبحانه عمادًا تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه، فتتحوّل حياته إلى جحيم لا يُطَاق، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به؛ لأنه طَعْن في ذاته هو.

لذلك يُحذِّرنا الحق - تبارك وتعالى - من هذه الجريمة النكْراء؛ ليحفظ على الناس أنسابهم، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه، فيحنو عليهم ويرعاهم، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم.

فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

والمتأمل في آي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر

يُذيِّل الأمر بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والحديث هنا عن أحكام الطلاق، فقد وضع له الحق سبحانه حدودًا، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد، والممنوع أن نتعداه.

وأما في النواهي، فيُذيِّلها بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف، وكأن الحق سبحانه يريد ألا نصلَ إلى الحدِّ المنهي عنه، وأن يكون بيننا وبينه مسافة، فقال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لنظلَّ على بُعدٍ من النواهي، وهذا احتياط واجب حتى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه.

وقد قال النبي ﷺ: «**من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»(١).

فالحق سبحانه خالق الإنسان، وهو أعلم به لا يريد له أن يقتربَ من المحظور؛ لأن له بريقًا وجاذبية كثيرًا ما يضعف الإنسان أمامها؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل، فالمحرّم المحظور هنا هو الفعل نفسه، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضًا، وحذَّر منه؟

نقول: لأن الله تعالى يريد أن يرحَم عواطفك في هذه المسألة بالذات، مسألة الغريزة الجنسية، وهي أقوى غرائز الإنسان، فإن حُمْتَ حولها توشك أن تقع فيها، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك.

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل: الإدراك، ثم الوجدان، ثم النزوع.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «**من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه**». متفق عليه. أخرجه الخباري (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير.

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيتَ به وردة جميلة، فلحظة أن نظرتَ إليها هذا يُسمَّى «الإدراك»؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها.

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حُبُّها فهذا يسمى «الوجدان» أي: الانفعال الداخلي لما رأيتَ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا «نزوع» أي: عمل فعلي.

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع، ولا يمنعك من الإدراك، أو من الوجدان، إلا في هذه المسألة، «مسألة الغريزة الجنسية»، فلا يمكن فيها فَصل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، فهي مراحل ملتحمة ومتشابكة، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفَصل بينها.

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجابًا وميلاً، ثم عِشْقًا وغريزة عنيفة تدعوه أن يمتدَّ يده، ويتولد النزوع الذي نخافه، وهنا إما أن ينزعَ يُلَبِّي نداء غريزته، فيقع المحرم، وإما أن يعف ويظل يعاني مرارة الحرمان.

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر؛ لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب، بل حرَّم كل ما يؤدي إليه بداية من النظر، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ، ولو وجدتَ لنزعتَ، فإن أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس، وإن عففتَ عِشْتَ مكبوتًا تعاني عِشقًا لن تناله، وليس لك صبر عنه.

إذن: الأسلم لك وللمجتمع، والأحفظ للأعراض وللحرمات أن تغُضَّ

بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك.

لكن هذه الحقيقة كثيرًا ما تغيب عن الأذهان، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم، وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدري أنه واهم في هذا كله، وأن خالقه سبحانه أدرى به وأعلم بحاله، وما أمره بغضٍّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار، إما تعود على المجتمع، أو عليه نفسه.

لذلك قال ﷺ: «**النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس، مَنْ تركها من مخافتي أبدلتُه إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**»[1].

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

و لم يقل: لا تزنوا، لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها، فاحذر أن تجعل نفسك على مقربة منها؛ لأن مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ودَعكَ ممَّن يُنادون بالاختلاط والإباحية؛ لأن الباطل مهما عَلاَ ومهما كَثُر أتباعه فلن يكون حقًا في يوم من الأيام.

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه، وهو ابن خالها، وهما تربَّيا في بيت واحد، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تُغيِّر من وجه الحرام شيئًا، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها.

وفي الحديث النبوي: «**لا يَخْلُوَنّ رَجُلٌ بامرأةٍ إلا كان الشيطان ثالثهما**»[2].

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١٤/٤)، وصححه، ونازعه الذهبي فقال في «تلخيصه»: «إسحاق رواه، وعبد الرحمن الواسطي ضعفوه». ا.هـ.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٧١)، وغيره.

إذن: ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر، وما حرّم الخُلْوة في ذاهّا ولكن حَرَّمهما؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أبلغ في التحريم وأحوط وأسلم من: لا تزنوا.

ومثال ذلك أيضًا قوله تعالى في تحريم الخمر:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول: ليس في القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر. سبحان الله، فأيُّهما أبلغ وأشدّ في التحريم أن نقول لك: لا تشرب الخمر، أم اجتنب الخمر؟

لا تشرب الخمر: نَهي عن الشُّرب فقط، إذن يُبَاح لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها.. إلـــخ، أما الاجتناب فيعني: البعد عنها كُلية، وعدم الالتقاء بها في أي مكان، وعلى أية صورة، فالاجتناب - إذن - أشدّ من مجرد التحريم.

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم، وقد قال تعالى في مسألة هامة من مسائل العقيدة:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧].

فهل تقول في هذه: إن الاجتناب أقلّ من التحريم؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة؟!

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

الفاحشة: هي الشيء الذي اشتدّ قُبحه، وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين: الذكر والأنثى، وقدَّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها، ومظلّةَ لا يتم

الزواج إلا تحتها، و لم يترك هذه المسألة مشَاعًا يأتيها مَنْ يأتيها؛ ليحفظ للناس الأنساب، ويحمي طهارة النسل، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده.

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القِران الذي يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ.

وهَبْ أن لك بنتًا بلغت سِنَّ الزواج، وعلمتَ أن شابًا ينظر إليها، أو يحاول الاقتراب منها، أو ما شابه ذلك، ماذا سيكون موقفك؟ لاشكَّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب، وأقمْتَ الدنيا و لم تُقعِدْها.

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابَك، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحَاب وتسعد به، وتدعو الأهل، وتقيم الزينات والأفراح.

إذن: فما الذي حدث؟ وما الذي تغيَّر؟ وما الفرق بين الأولى والثانية؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام؛ لذلك قيل: « جَدَع الحلالُ أَنْفَ الغيرة ».

فالذي يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهِّز ابنته، ويُسلمها بيده إلى زوجها؛ لأنهما التقيا على كلمة الله، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب.

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة: زوجتُكَ، ويقول الزوج: وأنا قبلتُ، تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْدًا وسلامًا، وتُحدِث فيها انبساطًا وانشراحًا؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتي للإنسان، ولها أثر في انسجام ذراته، وفي كل قطرة من دمه.

ومن آثار كلمة الله التي يلتقي عليها الزوجان، أنها تُحدِث سيالاً بينهما، هو

سيَال الاستقبال الحسن، وعدم الضَّجَر، وعدم الغيرة والشراسة، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء.

ولذلك حينما يُشرِّع لنا الحق تبارك وتعالى العدَّة، نجد عدة المطلقة غير عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها، وفي هذا الاختلاف حكمة؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤثِّر فيها.

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة، إنما الأمر أبعد من ذلك، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق؛ لأن سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال.

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التي حددها الشرع بثلاثة أشهر(١)، وهي المدة التي يهدأ فيها سِيَال الحلال في نفسها ويجمد، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر.

أما في حالة المتوفّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة، والحكمة من الفارق بين العِدَّتين أن المطلقة غالبًا ما يكون بين الزوجين كُرْه، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السِّيال؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه، أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه، فرغبتها فيه أشدّ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال.

والحق سبحانه هنا يُراعِي طبيعة المرأة ومشاعرها، وعواطف الميل والرغبة في زوجها، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه

---

(١) هذه عدة اللائي يئسن من المحيض واللائي لم يحضن، أما عدة الحامل فبوضع الحمل. وما عداهن، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. أيّ: ثلاث حيضات.

العواطف لدى المرأة، وتستعد نفسيًّا للالتقاء بزوج آخر؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلي، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفي الغريزي الذي يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى.

هذا التوافق هو الذي يُولّد ذرات موجبة، وذرات سالبة، فيحدث التوافق، ويحدث الحب والعِشْق الذي يجمعهما ويمتزجان من خلاله.

وهذا - كما قلنا - أثر من آثار كلمة الله التي اجتمعا عليها وتحت ظلها.

وهكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسي، ويسكن كل منهما للآخر، لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال في وصيته بالنساء: «**إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله**»(١).

وهذه الكلمة من الله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه، ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تَمَّ هذا اللقاء فيما حَرَّم الله، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكَدٍ ومرارة لا تنتهي، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة.

لذلك سمَّاه القرآن فاحشة، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألا يُعرف، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع، وأن الذي يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ في محارمه، ويكفيها فُحْشًا أن الله تعالى سماها فاحشة، وشرع لها حدًّا يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٢١٨)، من حديث جابر من عبد الله بن حديث طويل وفيه «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء، حينما أتاه شاب يشتكي ضعفه أمام غريزته الجنسية، ويقول له: يا رسول الله ﷺ ائذن لي في الزنا.

والنبي ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه.

ويتضح لنا هذا المنهج النبوي في جواب رسول الله ﷺ، وقد سُئِلَ كثيرًا عن أفضل الأعمال، فقال لأحدهم: «**الصلاة لوقتها**»[١].

وقال لآخر: «**أنْ تَلْقى أخاك بوجه طَلْق**»[٢].

وهكذا تعددتْ الإجابات، لأن النبي ﷺ لا يصف مزيجًا عامًّا يعطيه للجميع، بل يعطي لكل سائل الجرعة التي تُصلِح خللا في إيمانه، كالطبيب الذي يهتم بعلاج مريضه فيُجرى له التحاليل والفحوصات اللازمة؛ ليقف على موضع المريض ويصِف العلاج المناسب.

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذي جاءه يقول: يا رسول الله ﷺ إنني أصلي وأصوم، وأفعل كل أوامر الدين إلا أنني لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة؟

هل نَهَره واعتبره شاذًا، وأغلق الباب في وجهه؟ لا والله، بل اعتبره مريضًا جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها». أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٢٦)، وغيره بلفظ: «لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه، وأول ظاهرة في العافية أن تعترف بمرضك، ولا تتكبر عليه، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج.

وقد اعتبر النبي ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية في إيمانه؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة، ويجد لها شيئًا في نفسه، وانظر كيف عالجه النبي ﷺ: أجلسه ثم قال له: «**يا أخا العرب أتحب هذا لأمك؟**».

فانتفض الشاب، وتغيَّر وجهه، وقال: لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك.

فقال: «**أتحبه لأختك؟ أتحبه لزوجتك؟ أتحبه لبناتك؟**».

والشاب يقول في كل مرة: لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك.

ثم قال ﷺ: «**وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزواجاتهم ولا لبناتهم**»، ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له: «**اللهم نَقِّ صدره، وحَصِّنْ فَرْجه**»(١).

وانصرف الشاب وهو يقول: لقد خرجتُ من عند رسول الله ﷺ وليس أكرَه عندي من الزنا، ووالله ما هممت بشيء من ذلك إلا وذكرت أمي وأختي وزوجتي وبناتي، وما أشبه طريق الرسول ﷺ في علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة، فعندهم مصطلح يسمونه «برشمة المر»، فإن كان الدواء مُرًّا لا يستسيغه المريض غَلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق، فلا يشعر المريض بمرارته.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٢٥٦، ٢٥٧)، والطبراني في «معجمه الكبير» (٨/١٩٠، ٢١٥)، من حديث أبي أمامة ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء، والحديث صحيح.

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق في اللسان فحسب، دون غيره من الأعضاء التي يمرُّ بها الطعام، واللسان آية من آيات الله في خَلْق الإنسان، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصُّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام: فهذه للحلو، وهذه للمر، وهذه للحرِّيف، وهكذا، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض.

وكما تحدث برشمة الدواء الحسيِّ المر، كذلك يحدث في العلاجات الأدبية المعنوية، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقى ويتأثر بها؛ لذلك قالوا: النصح ثقيل، فاستعيروا له خفَّة البيان.

وقالوا: الحقائق مُرّة، فلا ترسلوها جبلاً، ولا تجعلوها جدلاً.

وعلى الناصح أن يراعي حال المنصوح، وأنْ يرفقَ به، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما أَلِف مع قسوة النصحية، وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوي الذي يجب أن نسير عليه في قوله تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن أداب النصيحة أيضًا الذي تعلّمناه من النبي ﷺ أن تكون سِرًّا، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار؛ لأن لها أثرًا سلبيًّا في حياة المجتمع كله وفي المنصوح نفسه، فإنْ سترْتَ عليه في نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقول، وقديمًا قالوا:

مَنْ نصح أخاه سرًّا فقد ستره وَزَانَه، ومَنْ نصحه جَهْرًا فقد فضحه وشَانَهُ(١).

ثم يقول تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

(١) شانه: عابه.

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية، وغاية الحياة أننا مُستخلفون في الأرض، خلقنا الله لعمارتها والسعي فيها بما يُسعدنا جميعًا، ويعود علينا بالخير والصلاح، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عَمَّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة، وأشقى الدنيا كلها بدل أن يُسعدها.

وأعتقد أن ما نشاهده الآن في بيئات الانحلال والانحراف، وما امتدَّ منهم إلا بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلا، وساء طريقًا ومسلكًا، يقضي على سلامة المجتمع وأمنه وسعادته.

ويكفي أنك إذا خرجتَ من بيتك في مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية، وتخاف من شبح العدوى الذي يطاردك في كل مكان، في الحجرة التي تدخلها، وفي السرير الذي تنام عليه، وفي دورة المياه التي تستعملها، الجميع في رُعب وفي هلع، والإيدز ينتشر انتشار النار في الهشيم، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار.

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجة لخروج الإنسان عن منهج الله خروجًا جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدر فجورهم وعصيانهم، وماداموا لم يأتوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين.

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عِفَّة وطهارة، لا عن إيمان بشرع الله، ولكن عن خَوف وهَلَع من أمراض شتَّى لا ترحم، ولا تُفرِّق بين واحد وآخر.

إذن: الزنا فاحشة وساء سبيلا، وها هي الأحداث والوقائع تُثبت صدق هذه الآية، وتثبت أن أيّ خروج من الخَلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نَكَدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة.ا.هـ.

❁ ❁ ❁ ❁

عاقبة الزناة

عن سَمُرَة بن جُنْدُب ﷺ قال: قال: كَانَ رَسُول الله ﷺ ممَّا يُكْثرُ أَنْ يَقُولَ لأصْحَابه: «هَلْ رَأى أَحَدٌ منكُم منْ رُؤْيَا» فَيُقَصُّ عَلَيْه مَن شَاء اللّهُ أن يُقَصَّ، وَإنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاة: «إنَّهُ أتَاني اللَّيْلَةَ اثْنَان وإنَّهُمَا قَالا لي: انْطَلق: وَإني انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإنَّا أتينا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِع، وَإذَا آخَرُ قَائمٌ عَلَيْه بصَخْرَة، وَإذَا هو يَهْوي بالصَّخْرَة لرَأسه فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ فَيَتَدَهْدَهُ الْحَجَرُ ها هنا، فيتعب الحجر فَيأْخُذُهُ فَلا يَرْجعُ إليْه حَتَّى يَصحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْه فَيَفْعَلُ به مثْلَ مَا فَعَل الْمَرة الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله مَا هذان؟ قَالا لي: انْطَلقْ انْطَلقْ، فانطلقنا فأتينا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لقفاه، وَإذَا آخَرُ قَائمٌ عَلَيْه بكَلُّوبٍ منْ حَديد، وَإذَا هُوَ يَأْتي أَحَدَ شقَّيْ وَجْهِه فَيُشَرْشرُ شدْقَهُ إلى قَفَاهُ وَمَنْخرَهُ إلى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إلى قَفَاهُ.. ثُمَّ يَتَحوَّل إلى الْجَانب الآخَر، فَيَفْعَلُ به مثْلَ مَا فَعَل بالجَانب الأوَّل، فَمَا يَفْرُغُ منْ ذلك الْجانب حَتَّى يَصحَّ ذلكَ الْجَانبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْه فَيَفْعَل مثْلَ مَا فَعَلَ في الْمَرَّة الأولى.

قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَان الله، مَا هذان؟ قال: قالا لي: انْطَلقْ انْطَلقْ، فانْطَلَقْنَا فأتَيْنَا عَلَى مثْل التَّنُّور، فَأَحْسبُ أنَّهُ قال: فإذَا فيه لَغَطٌ وأصْوَاتٌ، فاطَّلَعْنَا فيه، فإذا فيه رجَالٌ وَنسَاءٌ عُرَاةٌ وَإذا هُمْ يَأْتيهمْ لَهَبٌ منْ أَسْفَلَ منْهُمْ، فإذَا أتَاهُمْ ذلكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا قُلْتُ: مَا هؤُلاء؟ قالا لي: انْطَلقْ انْطَلقْ، قال: فانْطَلَقْنَا فأتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ - حَسبْتُ أنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَحْمَر مثْل الدَّم - وَإذَا في النَّهر رَجُلٌ سَابحٌ يَسْبَحُ، وَإذا عَلَى شَطِّ النَّهر رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عنده حجَارَةَ كَثيرَة، وَإذَا ذلكَ السَّابحُ يَسْبَحُ مَا يسبح ثُمَّ يأتي ذلك الذي قَدْ جَمَعَ عنده. الْحجَارةَ، فَيَفْغَرُ له فَاهُ فَيُلْقمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلقُ فَيسْبَحُ ثُمَّ يَرْجعْ إلَيْه كُلَّمَا رَجَعَ إلَيْه فَغَرَ له فاه فَألْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هذان، قالا لي: انْطَلقْ

انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلى رَجُلٍ كَرِيه الْمِرْآة أو كَأَكْرَه مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلاً مَرْآى، فإذا هو عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا. قُلْتُ لَهُمَا: مَا هذا؟ قالا لي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنَا فأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَة مُعْتَمَّة فيهَا مِنْ كُلِّ نَورِ الرَّبِيعِ، وإذَا بَيْنَ ظَهْرَي الرَّوْضَة رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكاد أَرى رَأْسَهُ طُولا في السَّماء، وَإذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ. قط قُلْتُ: مَا هذا؟ ومَا هؤلاء؟ قالا لي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنا فأَتَيْنَا إلى دَوْحَةٍ عَظِيمةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ منها، وَلاَ أَحْسَنَ مِنْهَا. قالا لي: ارْقَ فيها فارْتقيْنَا فيها إلى مدينة مَبْنيَّة بِلَبِن ذَهَبٍ وَلَبِن فضَّة، فأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَة فاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْت رَاءٍ، وَشَطْرٌ مِنْهُم كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ. قَالا لَهُم: اذْهَبوا فَقعُوا في ذلك النَّهَر. وإذَا هو نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْري كَأَنَّ مَاءَه الْمَحْضُ في الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فيه ثُمَّ رَجَعُوا إلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذلكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا في أَحْسَنِ صُورة. قَالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهذَا مَنزِلُكَ. فَسَمَا بَصَري صُعُدًا، فَإذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَة الْبَيْضَاء. قَالا لي: مَنزِلُكَ، قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللّهُ فِيكُمَا فَذَرَاني فَأَدْخُلَه؟ قَالا: أمَّا الآنَ فَلاَ وَأَنْتَ دَاخِلُهُ. قُلْتُ لَهُمَا: فَإني رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَة عَجَبًا فَمَا هذا الذي رأيْتُ؟ قَالا لي: أما إنَّا سَنُخْبِرُكَ؛ أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الذي أَتَيْتَ عَلَيْه يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ: فإنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآن فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاة الْمَكْتُوبَة، وأَمَّا الرَّجُلُ الذي أتيت عليه يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاهُ ومِنْخَرَهُ إلى قَفَاهُ، وعَيْنُهُ إلى قَفَاهُ: فإنَّهُ الرجلُ يَغْدُو مِنْ بَيْته فَيكْذبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وأمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الذينَ هُمْ في مِثْلِ بناء التَّنُّور: فَإنَّهمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَاني، وَامَّا الرَّجُلُ الذي أَتَيْتَ عَلَيْه يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحجَارة فإنَّهُ آكلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المِرآة الذي عِنْدَ النَّار يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَها: فَإنَّهُ مَالكٌ خَازنُ جهَنَّم، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّويلُ الذي في الرَّوْضَة: فَإنَّهُ إبْراهيمُ، وأَمَّا الْوِلْدَانُ الذين حَوْلَهُ: فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ على الفِطْرَة» .

وفي رواية البرقاني: «**ولد على الفطرة**».

فَقَالَ بَعْضُ المسلمين: يا رسول الله وأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَال رَسُولُ الله ﷺ :

«**وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِين، وَأَمَّا الْقَوْمُ الذينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَر سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ**»[1].

أختي المسلمة:

ومن الوسائل المعينة على حفظ الفرج بعد تقوى الله تعالى وحسن مراقبته: الزواج.

ولذا حض الإسلام على تيسير أمور الزواج، وتسهيل الوسائل المعينة عليه كتيسير المهور ونحوها.

وعن أهمية الزواج، وفضله يحدثنا الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - فيقول:

«لأن للإنسان عمرًا محدودًا في الحياة وسينتهي؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع في غيره، كيف؟ نحن نتزوج كي يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات، وهذا استبقاء للنوع الإنساني.

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريمًا؛ لذلك يأمرنا الحق - سبحانه - أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر، فإياك أن تستبقي نوعًا من وعاءٍ خبيثٍ نجس، اختلطت فيه مياه أناس متعددين، فلا يدري أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعًا في الكون، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة.

(١) أخرجه أحمد والبخاري.

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج، فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجًا أمام أعين الناس جميعًا، ويصير معروفًا للجميع أن هذه امرأة هذا، وهذا زوجها، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت.

وما ينشأ من الذرية بعد ذلك يكون قطعًا منسوبًا إليه. ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينًا أو عاريًا أو جائعًا أو غير معترف به؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانًا مستوفيًا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين، لا يقدحه واحد فَيَسُبُّهُ وينال منه قائلا: جئت من أين؟ أو مَن أبوك؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلاً طوال عمره. فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعي.

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون، فالتي تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعي كأم ألا تلقى ابنها الوليد في البحر بل أمام مسجد؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمي الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونًا عليه. وهي لا تلقي بوليدها عند خَمَّارة أو دار سينما، ولكن دائمًا تضعه عند أبواب المساجد، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان؛ لأنها تخاف عليه، لذلك تلفه وتضعه في أحلى الملابس، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضًا من المال؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك، والحياء من الذنب هو الذي يجعلها تتخلص من هذا الطفل.

إنها - كما قلنا - تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب، يأخذه ويكون مأمونًا عليه، إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمي في دين الله؛ وهذا شيء عجيب.

والله يريد أن يبني بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد في البيوت؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجًا أمام أعين الناس. ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله. وأضرب هذا المثل: نحن نجد الرجل الذي يحيا في بيت مطل على الشارع وله ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها، ولو عرف الرجل أن شابًا يجيء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلي الرجل بالغيظ والغَيْرة. وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها، ويبارك للأم ويأتي بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران، فما الفرق بين الموقفين؟ لماذا يغضب الأب من الشاب الذي يتلصص؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله، أما الشاب الذي جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردًا وسلامًا، وبعد ذلك يتسامى الأمر، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها.

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول ﷺ: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عَوانٍ في أيديكم**[1] **أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[2].

ومادام الله هو الذي خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب: «أريد أن أتزوج ابنتك»، بردًا وسلامًا على قلب الأب، ويكون الفرح والاحتفال الكبير؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر. والله يريد أن يجعل استبقاء

---

(١) عوان: أسيرات جمع عانية.

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه.

النوع الإنساني استبقاءً نظيفًا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة، ولا يخجل منه المولود نفسه، ولا يُذَم في المجتمع أبدًا، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع.

واستبقاء النوع هو الذي تأتي من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالاً على علم الناس ويعرفها الجميع.

وقد سألني سائل وأنا في الجزائر: لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات نحو: «زوجتك موكلتي» أو تقول هي: «زَوَّجْتُك نفسي» ويقبل الرجل، وتنكسر العلاقة بكلمة «أنتِ طالق»؟ وأجبته: لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة.

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التي تأتي، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب، والإخصاب يعني أن يأتي الحيوان المنوي من الذكر لبويضة الأنثى كي ينشأ التكاثر، والتكاثر في غير الإنسان يتم بعملية قسرية. ففي الحيوانات نرى الأنثى وهي تجأر بالصوت العالي عندما تنزل البويضة في رحمها كالبقرة مثلاً، حتى يقول الناس جميعًا: إن البقرة تطلب الإخصاب، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ، ولا تمكن فحلاً آخر منها من بعد ذلك، وهكذا يتم حفظ النوع في الحيوانات. أما في النباتات، فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال. ونحن نعرف بعضًا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات، وقد يعرفها المتخصصون فقط، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة في عود واحد كالذرة مثلا؛ فالأنوثة توجد في «الشراشيب» التي توجد في «كوز» الذرة،

وعناصر الذكورة توجد في السنبلة التي يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة. وكذلك القمح. وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورهما! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال؟! إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن لابد من أن تتلاقح إخصابًا لينشأ التكاثر، فيوضح ربنا: اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات، والنبات الذي يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعًا من الحشرات غذاؤها في مكان مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها، حشرة يجذبها اللون الأحمر، وحشرة يجذبها اللون الأبيض؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة، وهذه العملية تحدث ولا ندري عنها شيئًا. من الذي يلقح؟ من الذي يعلمها؟ إنه الله القيوم الذي لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، فاستبقى لنا الأنواع غريزيًّا وقسريًّا، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئًا، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢].

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة، لكن حين كان لك اختيار، وتوجد مشقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع، فقد قرن - سبحانه - حفظ النوع بالمتعة، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل، فلابد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك. إذن فإياك أن تلقي حيوانك المنوي إلا في وعاء نظيف، محسوب لك وحدك كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك،

ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب، ولكيلا يكون مهينًا ولا مدنسًا في حياته؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها. ولذلك - فسبحانه - سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق، أو الرجل يكتفي بالرجل باللواط للمتعة، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله، فعندما تنتفع امرأة مع امرأة، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع، نقول لها: أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معًا، فيوضح سبحانه أنه لابد أن تكون المتعة في ضوء منهج الله. واسمعوا قول الله: يعني: أنا وهو أصبحنا عبيدًا لله، هذه رفعة الإيمان؛ فلا غضاضة مادامت هي وهو عبيدًا لإله واحد، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأي الحسن أيضًا ومن الأداء الجميل، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها، وكان لابُدَّ أن يلتبس عليها الأمر، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾ [النمل: ٤٢].

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة:

﴿ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ [النمل: ٤٢].

هي امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر؛ لذلك لا يصلح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر. لكن المهم أن تعلم أن لها حدودًا في إطار نوعيتها، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيها، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى في البنية يختلف الرجل عن المرأة؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستميلة، ولها عاطفة فياضة،

وفيض حنان، والرجل فيه صلابة حزم وعزم. إذن: فكل واحد معدّ لمهمة. فلا يقولن أحد: أنا ناقص في هذه، لكن انظر غيرك إنه ناقص في ماذا وهو عندك أيضًا كامل. ويأتي الدين ليوضح: يا مؤمنون. الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث. الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث. أي تدليل أكثر من هذا؟

لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء، والدين يطلب أن تكون المرأة سكنًا للرجل، فالمفروض أن الرجل هو الذي يتحرك حركة الحياة خارجًا، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه، والذي يصقل السيف ويحده، مثل الشجاع الذي يضرب به تمامًا. كل له عمل يكمل عمل الآخر، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة». ا.هـ.

ثانيًا: النهي عن السحاق:

السحاق: مساحقة المرأتين، أي تدالكهما، واستمتاع كل واحدة منهما بالأخرى.

وهو حرام بالاتفاق، لحديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الرَّجُل إلى عورة الرَّجُل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرَّجُل إلى الرَّجُل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**»[1]. وقد اختلف في عقوبته، فذهب مالك - رحمه الله - إلى أنه يجب الحدُّ، مائة جلدة على كل من المرأتين، واحتج بما يروى مرفوعًا: «**إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان**». لكنه حديث ضعيف، ولذا ذهب الجمهور إلى أن السحاق لا حد فيه، وإنما تعزر المرأة بفعله، لأنه مباشرة بلا إيلاج فلا حد فيه، كما لو باشر الرَّجُل المرأة دون إيلاج في الفرج، وهو الصحيح والله أعلم[2].

(١) أخرجه مسلم (٣٣٨)، وغيره.
(٢) «صحيح فقه السنة» للأخ/ أبي مالك كمال سالم - حفظه الله - (٤/ ٥١).

[٢٦] لا تذبحي لغير الله

سئل الشيخ/ عبد العزيز بن باز - رحمه الله تعالى -

«التقرب بذبح الخرفان في أضرحة الأولياء الصالحين ما زال موجودًا في عشيرتي . نهيت عنه لكنهم لم يزدادوا إلا عنادًا . قلت لهم: إنه شرك بالله، قالوا: نحن نعبد الله حق عبادته؛ لكن ما ذنبنا إن زرنا أولياءه وقلنا لله في تضرعاتنا بحق وليك الصالح فلان . اشفنا أو أبعد عنا الكرب الفلاني. قلت: ليس ديننا دين واسطة. قالوا: اتركنا وحالنا. ما الحل الذي تراه صالحًا لعلاج هؤلاء . ماذا أعمل تجاههم . وكيف أحارب البدعة؟ وشكرًا».

الجواب:

من المعلوم بالأدلة من الكتاب والسنة أن التقرب بالذبح لغير الله من الأولياء أو الجن أو الأصنام أو غير ذلك من المخلوقات شرك بالله ومن أعمال الجاهلية والمشركين. قال الله ﷻ:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والنسك: هوالذبح. بين سبحانه في هذه الآية أن الذبح لغير الله شرك بالله، كالصلاة لغير الله. وقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر].

أمر الله سبحانه نبيه في هذه السورة الكريمة أن يصلي لربه وينحرله خلافًا لأهل الشرك الذين يسجدون لغير الله ويذبحون لغيره. وقال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، والذبح من العبادة فيجب إخلاصه لله وحده.

وفي صحيح مسلم عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**».

وأما قول القائل أسأل الله بحق أوليائه أو بجاه أوليائه أو بحق النبي أو بجاه النبي فهذا ليس من الشرك ولكنه بدعة عند جمهور أهل العلم ومن وسائل الشرك؛ لأن الدعاء عبادة وكيفيته من الأمور التوقيفية و لم يثبت عن نبينا ﷺ ما يدل على شرعية أو إباحة التوسل بحق أو جاه أحد من الخلق فلا يجوز للمسلم أن يحدث توسلاً لم يشرعه الله سبحانه وتعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقول النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**». متفق على صحته.

وفي رواية لمسلم وعلقها البخاري في صحيحه جازمًا بها: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**».

ومعنى قوله «**فهو رد**»: أي مردود على صاحبه لا يقبل؛ فالواجب على أهل الإسلام التقيد بما شرعه الله والحذر مما أحدثه الناس من البدع، أما التوسل المشروع فهو التوسل بأسماء الله وصفاته وبتوحيده وبالأعمال الصالحات. والإيمان بالله ورسوله ومحبة الله ورسوله ونحو ذلك من أعمال البر والخير. والله ولي التوفيق[1].

---

(١) «فتاوى وتنبيهات» لفضيلته (٢٢٢ – ٢٢٤)، (ط. مكتبة السنّة).

[٢٧] لا تعترضي على قدر الله في خلقه

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - عقب قول الحق - سبحانه وتعالى -:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

«الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس، وكل جنس يشمل أنواعًا أو نوعين، وتحت كل نوع أفراد. فإذا ما رأيت جنسًا من الأجناس انقسم إلى نوعين، فاعلم أنهما يشتركان في مطلوب الجنس، ثم يختلفان في مطلوب النوع، ولو كانا متحدين لما انقسم إلى نوعين. كذلك في الأفراد.

وإذا نظرنا إلى الجماد وجدنا الجماد جنسًا عامًّا ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء، فهذا البناء يتطلب رملاً، ويتطلب أسمنتًا، ويتطلب آجرًا، ويتطلب حديدًا، فجنس الجماد كله مشترك في إقامة البناء، ولكن للإسمنت مهمة، وللجبس مهمة، وللرمل مهمة، وللمرو - وهو الزلط - مهمة، فلا تأخذ شيئًا في مهمة شيء آخر.

وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين، إلى ذكورة تتمثل في الرجال، وإلى أنوثة تتمثل في النساء، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما. فلو أردت أن تضع نوعًا مكان نوع لما استطعت.

إذن: فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين، ثم تأتي لتقول: إن هذا

النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع. وأيضا نعرف ذلك عن الزمن، فالزمن ظرف للأحداث، أي أن كل ما حدث لأبُدَّ له من زمن، لكن لكل زمن حدث يناسبه. فالزمن وهو النهار ظرف للحدث في زمنه، والليل أيضًا ظرف للحدث في زمنه. ولكن الليل حدثه السكون والراحة، والنهار حدثه الحركة والنشاط. فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين.

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شيء قد نختلف فيه بشيء قد اتفقنا عليه. فيبين لك: هذا الذي تختلف فيه رده إلى المتفق عليه. فالزمن لا خلاف في أنك تجعل الليل سكنًا ولباسًا وراحة وهدوءًا، والنهار للحركة. وكل الناس يصنعون ذلك.

فالحق سبحانه وتعالى يوضح: كما جعل الزمن ظرفًا لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو ضدان أو متكاملان؟

إنهما متكاملان؛ لأن راحة الليل إنما جُعلت لتصح حركة النهار، فأنت تنام وترتاح لتستأنف نشاطًا جديدًا. إذن: فالليل هو الذي يعين النهار على مهمته. ولو أن إنسانًا استيقظ ليلة ثم جاء صباحًا لما استطاع أن يفعل شيئًا.

إذن: فما الذي أعان حركة النهار؟ إنه سكون الليل؛ فالحق سبحانه وتعالى بين: أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعًا متدينين و غير متدينين. فإذا اختلفتم في أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتحدا في العمل والحركة والنوع نقول لكم: لا، هذا أمر متفق عليه في الزمن، فخذوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه. ولذلك ضرب الله المثل فقال:

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ ﴾ [الليل: ١].

فعندما يغشى الليل يأتي السكون. وقال الحق بعد ذلك:

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٢].

وعندما تبزغ الشمس تدب الحركة، ثم جاء بالشيء المختلف فيه، فأتبع سبحانه ذلك بقوله:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ٣، ٤].

أي: أن لكل جنس مهمة. وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين: الذكورة والأنوثة، وفيهما عمل مشترك، وخاصية مشتركة. وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يوجد رَجُلٌ يرغم امرأة على عقيدة، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون.

إذن: فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد، فلا سلطان لنوع على نوع، وكذلك حرية التعقل في المهمات، وعرفنا كيف أن أم سلمة - رضي الله عنها - أشارت على رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية إشارة أنقذت المسلمين من انقسام فظيع أمام حضرة رسول الله ﷺ، وعرفنا قصة بلقيس - ملكة سبأ - التي استطاعت أن تبرم أمرًا تخلّى عنه الرجال، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لهن أصالة الرأي، وحكمة المشورة في نوع مهمتها.

فمثلاً يحدثنا التاريخ أن ملك (كندة) سمع عن جمال امرأة اسمها (أم إياس) بنت عوف بن محل الشيباني، فأراد أن يتزوجها، فدعا امرأة من (كندة) يقال لها: (عصام) وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف. أي أرسلها خاطبة. فلما ذهبت إلى والدة (أم إياس) واسمها (أمامة بنت الحارث) أعلمتها بما جاءت له. وأرسلت الأم تستدعى الابنة

من خيمتها، وقالت لها: هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تستري عنها شيئًا أرادت النظر إليه من وجه وخلق وناطقيها فيما استنطقتك به.

فلما اختلت (عصام) بالبنت فعلت مثل ما أمرتها أمها. وكشفت للخاطبة (عصام) عن كل ما تريد من محاسنها. فقالت الخاطبة كلمتها المشهورة: «ترك الخداع ما انكشف القناع». وصار هذا القول مثلاً، أي: أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة، وعادت الخاطبة (عصام) إلى الملك فسألها: ما وراءك يا (عصام) إنه يسأل. أي خبر جئت به من عند (أم إياس؟) فقالت: أبدى المخض عن الزبد. والمخض هو: هز الحليب في القربة ليفصل الزبد عن اللبن. وذلك يعني أن رحلتها قد جاءت بنتيجة.

فقال لها: أخبريني.

قالت: أخبرك حقًا وصدقًا. ووصفتها من شعرها إلى قدمها وصفًا أغرى الملك. فأرسل إلى أبيها وخطبها ووفت إليه.

وفي ليلة الزفاف نرى الأم العاقلة توصي ابنتها في ميدان عملها، في ميدان أمومتها، في ميدان أنوثتها. قالت الأم لابنتها: «أي بنية: إن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك. أي: أنها كأم تثق في أدب ابنتها ولا تحتاج في هذا الأمر لنصيحة، ولكنها معونة للغافل وتذكرة للعاقل، إنك غدًا ستذهبين إلى بيت لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكون له أمة يكن لك عبدًا، واحفظي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا.

وانظروا إلى الخصال التي استنبطتها المرأة من ميدان رسالتها، تستمر كلمات الأم: «أما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح،

ولا يشم منك إلا أطيب ريح. **والخامسة والسادسة**: التفقد لوقت طعامه والهدوء عند منامه فإن تنغيص النوم مغضبة، وحرارة الجوع ملهبة. أما **السابعة والثامنة**: فالتدبير لماله والإرعاء على حشمه وعلى عياله. وأما التاسعة والعاشرة: فألا تفشي له سرًّا ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحًا والحزن إن كان فرحًا».

فذهبت أم إياس بهذه النصائح إلى زوجها وأنجبت له البنين والبنات وسعدت معه وسعد معها.

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى التعقل، ولكن في أي شيء؟ في ميدان مهمتها. إذن: فالمرأة يمنحها الله ويعطيها أن تتعقل ولها ميدان ولا يأتي هذا التعقل غالبًا إلا في ميدانها. لأن ميدان الرَّجُل له حركة تتطلب الحزم، وتتطلب الشدة، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان؛ والأمثال في حياتنا اليومية تؤكد ذلك، وإن الرَّجُل عندما يدخل بيته ويحب أن ينام، قد يأتي له طفله صارخًا باكيًا، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه، وقد يقول ألفاظًا مثل: «اكتمي أنفاسه إني أريد أن أستريح». وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كتفه وتسكته، ويستجيب لها الطفل، فهذه مهمة الأم، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية العصيبة تبرز الرَّجُل في مكانه والمرأة في مكانها.

فمثلاً: سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، قالت له: أتتركنا في مكان ليس فيه حتى الماء، أهذا نزلته برأيك أم الله أنزلك فيه؟ قال لها: أنزلني الله هذا المكان. فقالت له: اذهب كما شئت فإنه لا يضيعنا. هذه المهمة للمرأة. هاجر مع طفل في مكان ليس فيه مقوم الحياة الأول وهو

الماء. فانظروا عطفها وحنانها، ماذا فعلت؟ لقد سعت بين الصفا والمروة، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قواها.

إن الذي يذهب إلى الحج أو العمرة ويجرب الأشواط السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحمله المرأة في سبيل ابنها؛ لأن هذا موقف عطف وحنان، ابنها يريد أن يشرب. وكأن الله قال لها: إنك قد سعيت ولكني سأجعل رزقك من حيث لا تحتسبين، أنت سعيت بين الصفا والمروة، والماء ينبع تحت قدمي ولدك. إذن: فصدقت في قولها: إنه لا يضيعنا، ولو أن سعيها جاء بالماء لظننا جميعًا أن السعي هو الذي يأتي بالماء، ولكن اسع ولا تعتقد في السعي، بل اعتقد في الرزاق الأعلى، تلك مسألة ظاهرة في أمنا هاجر.

وحينما جاء موقف الابتلاء بالذبح، اختفت هاجر من المسرح، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحزمه وعزمه ونبوته. ورأى في الرؤيا أنه يذبح ابنه، أين أمه في هذا؟ اختفت من المسرح؛ لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها.

إذن: فكل واحد منهما له مهمة. والنجاح يكون على قدر المهمة؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

فساعة ترى جنسًا أخذ شيئًا وجنسًا آخر أخذ شيئًا، إياك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول: «أريد هذه»، ولكن اسأل الله من فضله؛ لأن كلمة ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ هي نهي عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضًا على بعض، ولذلك يقول: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ومادمت تسأل الله من فضله؛ فهنا أمل أن يعطيك.

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيتساءل: كيف ينهانا الله عن أن نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ

عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾ مع أن فضل الله من شأنه أن يفضل بعضنا على بعض بدليل قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. فضلاً على أنني أطمع في أن أسأل الله ليعطيني؛ لأنه - سبحانه - ما أمرنا بالسؤال إلا ليعطينا؟

ونقول: لا؛ التمني عادة أن تطلب شيئًا يستحيل أو لم تجر به العادة، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتي إلى شيء تستطيع الحصول عليه، فأوضح: لا تذهب إلى منطقة التمني، ولذلك ضربوا المثل للتمني ببيت الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

تمنى الشاعر أن يعود الشباب يومًا فهل هذا يتأتى؟ إنه لا يتأتى، أو أن يقول قائل: ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها، هل يمكن أن يحدث ذلك؟ لا، ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجر به العادة، أو هو مستحيل، إذن فالسؤال يجب أن يكون في حدود الممكن بالنسبة لك، والحق يوضح: لا تنظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض، ومادام الله قد فضل بعضًا على بعض فليسأل الإنسان لا في منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواه، ولكن في منطقة أن توفق في إبراز ما فضلك الله به.

ولذلك نجد الحق في آيات التفضيل يقول:

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وما هو الرزق؟ هل هو نقود فقط؟ لا. بل الرزق هو كل ما ينتفع به، فالحلم رزق، والعلم رزق، والشجاعة رزق، كل هذا رزق. وقوله الحق: «ما فضل الله به بعضكم على بعض». يجعلنا نتساءل: من هو المفضل ومن هو المفضل عليه؟ لأنه قال: ﴿بَعْضَكُمْ﴾. لم يبينها لنا. إذن: فبعض مفضل وبعض مفضل عليه.

وسؤال آخر: وأي بعض مفضل وأي بعض مفضل عليه؟ إن كل إنسان هو فاضل في شيء ومفضول عليه في شيء آخر. فإنسان يأخذ درجة الكمال في ناحية، وإنسان يفتقد أدنى درجة في تلك الناحية، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كامنة ومكتومة. وهذا يعني التكامل في المواهب، وهذا التكامل هو أسنان الحركة في المجتمع.

لننتبه إلى التروس، نحن نجد الترس الزائد يدخل في الترس الأقل، فتدور الحركة، لكن إذا وضعنا ترسًا زائدًا مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة.

إذن: فلابد أن يكون متميزًا في شيء والآخر متميزًا في شيء آخر فيحدث التكامل بينهما، ومثل ذلك قلنا: الليل والنهار، الليل يعينني على حركة النهار، وقلنا: إن السيف في يد الفارس يضرب به ويقتل، ولو لم يسنه خبير في الحدادة ويشحذه ويصقله لما أدى السيف مهمته، وقد لا يستطيع هذا الخبير في صقل السيوف الذهاب للمعركة، وقد يخاف أن يضرب بالسيف، لكن له فضل مثل فضل المحارب بالسيف.

إن كل واحد له مهمة يؤديها، والأقدار تعطي الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندة، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفوق عليّ في مجال ما؛ لأنني أحتاج إليه، وهو لا يحسدني إن تفوقت عليه في موهبة أو عمل لأنه يحتاج إليّ. إذن: فأنا أريده أن يتفوق، وهو يريدني أن أتفوق، وذلك مما يحبب الناس في نعم ومواهب الناس، فأنا أحب النعمة التي وهبها الله للآخر، وهو يحب النعمة والموهبة التي عندي.

مثال ذلك: عندما نجد رجلاً موهوبًا في تفصيل الملابس ويحيك أجود أنواع الجلابيب فالكل يفرح به، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له بابًا

جيدًا لدكانه، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل نعمة عند واحد محمودة، ولذلك سمانا الله «بعضا»؛ و«بعضا» ويتكون الكل من بعض وبعضٍ، فأنت موهوب في بعض الأمور ولا تؤدي كل الأمور أبدًا، ولكن بضميمة البعض الآخر نملك جميعًا مواهب بعضنا بعضا.

ويتابع الحق:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ ﴾.

فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحًا ومؤديًا للمهمة التي خُلق من أجلها، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه، فالثواب والعقاب يأتي على مقدار ما يقوم كل مخلوق مما كلف به.

والمثال على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة، يتجلى في أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض، ويكون عنده ولد رضيع، فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل؟ طبعًا لا، لأن لكل واحد مهمة؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله في خلقه، ويحترم مواهب الله حين أعطاها، وهو يسأل الله من فضله، أي مما فضله به ليعطي له البركة في مقامه، وحين يقول الحق: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ ﴾ نلحظ أن هذه تساوي تلك تمامًا.

﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ ومن واسع علمه سبحانه أنه وزع المواهب في خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر؛ لأن تكرار المجتمع هو الذي يولد الشقاق، أما تكامله فيولد الوفاق. وسبب نزول الآية:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ﴾.

إن النساء قلن: إننا لم يكتب علينا الجهاد وأعطانا ربنا نصف الرَّجُل من الميراث. وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرَّجُل لأنها محسوبة على غيرها ولن تصرف وتنفق من دخلها على نفسها، بل سيصرف الرَّجُل وينفق عليها، والمسألة بذلك تكون عادلة. وكذلك قال الرجال: مادام الله قد فضلنا في الميراث، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا في الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها، فيصنع الرَّجُل العمل الواحد ويريد الضعف!

وانظر لذكاء المرأة، حينما قالت: مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطينا نصف العقوبة إذن؟ فأوضح لهم الله: اهدأوا ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ﴾ [النساء: ٣٢]. أي: أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له.



[٢٨] نهي المرأة أن تحلق شعر رأسها

سُئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

«هل يجوز للمرأة أن تحلق رأسها؟».

الجواب:

يحرم على النساء حلق رءوسهن لقول عليّ ﷺ: «نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها»[(١)]. (رواه النسائي والترمذي).

وذلك لأن في حلق رأسها تشبهًا بالرجال، وخروجها عن طبيعة الأنثى، ونفور الرجال منها، وظهورها بمظهر رديء وهو حرام.

لما روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال:

«**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»[(٢)] (رواه الخمسة إلا مسلم).

ولكن إذا ما ظهر في رأسها ما يحتم الحلق ككثرة الهوام والحشرات أو ظهور تقرحات في جلدة الرأس فتلك ضرورة تبيح حلقها كما قال الإمام أحمد حينما سئل عن المرأة تعجز عن شعرها، وعن معالجته، أتأخذه؟ فقال لأي شيء تأخذه؟ قيل: لا تقدر على الدهن وما يصلحه..

فقال: «إذا كان لضرورة فأرجو ألا يكون به بأس».

وسئل - رحمه الله -:

«انتشرت في الآونة الأخيرة ظاهرة جديدة على المجتمع وهي ظهور المرأة

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي وغيره.

(٢) أخرجه البخاري، وغيره.

حليقة الشعر، أو أن يكون شعرها في طول شعر الرجال، فما رأى الإسلام في هذه الظاهرة، وهل يختلف الأمر بالنسبة للمرأة التي تحلق شعرها لسبب مرض كظهور تقرحات مثلاً في رأسها؟».

الجواب:

أولاً: أن تتشبه المرأة بالرجل فهذا حرام. حرام. فكون أن تحلق المرأة رأسها من غير علة فهذا حرام لأن ذلك تشبه بالرجال، وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن ذلك. فعن سيدنا عليّ رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها(١)، ولأن تشبه المرأة بالرجال حرام، وذلك لقول الرسول ﷺ:

«**لُعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»(٢).

ثم إن حلق المرأة لشعرها في الحقيقة خروج على طبيعة المرأة ذاتها. بل يجعل الرجال ينفرون منها، فهو مظهر ولا شك رديء يدعو إلى النفور. وهو تبرج نهى الله عنه. أما إذا كان حلق الشعر لسبب يحتم ذلك مثل ظهور تقرحات في فروة الرأس مثلاً أو غير ذلك من الأمور الجلدية فتلك ضرورة تبيح الحلق.

وقد سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن المرأة التي تعجز عن معالجة شعرها أي: العناية به ورعايته أتأخذه؟!

بمعنى تقصره أو تحلقه. فقال: لأي شيء تأخذه؟! فقيل له: لا تقدر على الدهن وما يصلح الشعر. فقال: إذا كان لضرورة فأرجو ألا يكون به بأس.

والأصل أن حلق المرأة لشعرها حرام إلا لضرورة تبيح ذلك مع ضرورة الالتزام بتغطية شعرها.



---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي وغيره.

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

نهي المرأة عن الوَشْمِ .. والنَّمْصِ .. والفَلْجِ

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ «لعن الواصلة، والمستوصلة والواشمة، والمستوشمة»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن، المغيرات خلق الله». قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يُقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنصمات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟

فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله.

فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف، فما وجدته.

فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فقالت المرأة: فإني أرى شيئًا من هذا على امرأتك الآن.

قال: اذهبي فانظري.

قال: فدخلت على امرأة عبد الله، فلم تر شيئًا، فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئًا.

فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها(٢).

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الدم، وثمن

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

الكلب، وكسب البغي، ولعن الواشمة والمستوشمة، وآكل الربا وموكله، والمصورين»[١].

قال الإمام النووي - رحمه الله -[٢]: «هذا الفعل حرام على الفاعلة والمفعول بها لهذه الأحاديث، ولأنه تغيير لخلق الله، ولأنه تزوير، ولأنه تدليس» .ا.هـ.

لكن إذا نبتت للمرأة لحية أو شارب فيجب عليها إزالة هذا الشعر، حتى لا تتشبه بالرجال.

قال الإمام النووي - رحمه الله -[٣]: «هذا الفعل حرام إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب، فلا تحرم إزالتها، بل يستحب عندنا» .ا.هـ.

وقال: «النهي إنما هو في الحواجب وما في أطراف الوجه» .ا.هـ.

هذا، والتفليج المذموم هو ما كان للحُسْن، لقوله ﷺ: «**المتفلجات للحسن**».

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «فيه إشارة إلى أن الحرام هو المفعول لطلب الحسن، أما لو احتاجت إليه لعلاج أو عيب في السن ونحوه فلا بأس»[٤].

تعريف من كتاب (غريب الحديث):

الوشم: غرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم، ثم حشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة فيخضر، وقد يفعل ذلك بدارات ونقوش، وقد تكثره وقد تقلله. وفاعلة هذا واشمة، والمفعول بها موشومة، فإن طلبت فعل ذلك بها فهي مستوشمة.

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) «صحيح مسلم» بشرح النووي (٤/٨٣٧).
(٣) نفس المرجع.
(٤) المرجع السابق.

والنمص: هو نتف أو إزالة الشعر من الوجه.

والنامصة: الناتفة. **والمتنمصة**: التي تطلب فعل ذلك لها.

والفلج: في الأسنان: تباعد ما بين الثنايا والرباعيات[١]، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها في السن إظهارًا للصغر وحسن الأسنان؛ لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار، فإذا عجزت المرأة كبرت سنها، وتوحشت فتبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر، وتوهم كونها صغيرة، ويقال له أيضًا: الوَشْر.



(١) «غريب الحديث» للخطابي (١/٥٩٨).

[٣٠] لا تتبعي ما ليس لك به علم

من علامات اليقين بيوم الحساب: كبح جماح الجوارح عما يغضب الله تعالى.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

«قضايا الحياة يمكن أن تقسم إلى قسمين:

- قضايا تختلف فيها الأهواء.
- وقضايا تتفق فيها الأهواء.

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء: هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرة عنده فقط، وإن كانت ضارة بغيره، فمادام الأمر قائمًا على الأهواء فلابد أن تختلف، فكلٌّ له هواه الخاص، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبدًا.

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال:

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

إذن: فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين؟ المخرج أن يخرج كل واحد منا من هوى نفسه أولاً، ثم نرد القضية التي اختلفت فيها أهواؤنا إلى مَن لا هوى له.

وربك سبحانه وتعالى هو وحده الذي لا هوى له، ونحن جميعًا خلقه، وكلنا عنده سواء، ليس منا من بينه وبين الله نسب أو قرابة. فشرع الله واحد للجميع، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع متبع له؛ لأنه شرع الخالق سبحانه لا شرع أحد من الناس. لذلك اشتهر قولهم: «اللي الشرع يقطع صباعه ميخُرِّش دم».

فأنا لم أخضع لك، وأنت لم تخضع لي، بل الجميع خاضع لله تعالى منصاع لأمره. إذن: اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يشرعها لكم، لكي ترتاحوا من تسلط بعضكم على بعض. أما القضايا التي تتفق فيها الأهواء فهي القضايا المادية القائمة على المادة الصماء التي لا تجامل أحدًا على حساب أحد، ولا مانع أن تتبعوا الآخرين فيها؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قهرًا ورغمًا عنكم، فالمعمل الذي تدخله لتجرى التجارب التي توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحدًا.

وقد سبق أن قلنا: إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسى وأمريكي؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلاف عليها، أما الذي جعل المعسكر الشرقي يختلف والمعسكر الغربي هي القضايا الأهوائية، فهذا شيوعي، وهذا رأسمالي.

لذلك، فالنبي ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ في الوجود الإيماني حينما رأى الناس يؤبِّرون النخل، فأشار عليهم بعدم تأبيره[1]، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل في هذا العام، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر، وأثبتت التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صوابًا.

يأتي هذا ممن؟ من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله، الذي يحرص على أن تأتي

(١) تأبير النخيل: تلقيحه وإصلاحه.

كل قضاياه صادقة صائبة، وما كان منه إلا أن قال: «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**»[١].

ليضع بذلك أسوة لعلماء الدين ألا يضعوا أنوفهم في قضايا الماديات. وقد قال الحق تبارك وتعالى:

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

ويقول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[٢].

فإن أردت أن تتحرك في الحياة حركة سليمة مجدية، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

لكي تسير في حركة الحياة على هدى وبصيرة.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبع ولا تتدخل فيما لا علم لك به، كمن يدعي مثلا العلم بإصلاح (التليفزيون) وهو لا يعلم، فربما أفسد أكثر مما يُصلح.

ومن هنا قال أهل الفقه: من قال لا أدري فقد أفتىَ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى من يعلم، أما لو أجاب خطأ، فسوف يترتب على إجابته ما لا تحمد عقباه، والذي يسلك هذا المسلك في حياته تكون حركته في الحياة حركة فاشلة.

والفعل (يقفُو) مأخوذ من القفا وهو المؤخرة. وقد قال تعالى في آية أخرى:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: ٢٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٢)، من حديث رافع بن خديج أنه قال حين **أسقطت النخل** ثمرها: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم **فخذوا** به، و إذا أمرتكم بشيء من **رأيي فإنما أنا** بشر». وفي حديث أنس (٢٣٦٣): «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

(٢) **ضعيف** أخرجه ابن أبي عاصم في «السّنة» (١٢/١).

أي: أتبعناهم. ويقفو أثره: أي يسير خلفه.

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أن يتزوج قال له: لا تتخذها حنانة، ولا منانة، ولا عشبة الدار، ولا كبة القفا.

فالحنانة: التي لها ولد من غيرك يذكرها دائمًا بأبيه فتحن إليه.

والمنانة: التي لديها مال تمن به عليك.

وعشبة الدار: هي المرأة الحسناء في المنبت السوء والمستنقع القذر.

وكبة القفا: هي التي لا تعيب الإنسان في حضوره، وتعيبه وتذبه في غيبته.

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعني العلم الديني فقط، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة. والعلم علمان:

- **علم ديني:** وهو الذي يقضي على الأهواء، ويوحدها إلى هوى واحد هو الهوى الإيماني.

وهذا العلم يتولاه الخالق سبحانه، وليس لنا دخل فيه؛ لأن الصانع أدرى بصنعته، وهو الذي يضع لها قانون صيانتها؛ لأنه يعلم ما يصلحها وما يفسدها.

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلا؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه ﷻ:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧].

فليس لنا أن نتدخل فيه، أو نزيد عليه؛ لأنه منهج الله الذي جاء بـــ (افعل

ولا تفعل)، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل، فما كان فيه أمر ونهي فعليك الالتزام به، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذي رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث في الكون فسادًا بترك الأمر أو بإتيان النهي. أما الأمور التي تركها الخالق سبحانه ولم يرد في شأنها أمر أو نهي فأنت حر فيها، تفعل أو لا تفعل.

والمتأمل في شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف (بافعل ولا تفعل) قليلة إذا ما قيست بالأمور التي ترك لك الحرية فيها. إذن: فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعته أن نحكِّمه في أمور ديننا، ونخرج أنوفنا مما اختص به سبحانه؟ أما النوع الآخر من العلم، فهو:

- **العلم المادي التجريبي:**

الذي لا يخضع للأهواء، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق، ومضمارًا يجري فيه الجميع؛ لأنهم في النهاية سيلتقون فيه قهرًا ورغمًا عنهم.

وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها: الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد. ثم ختم ذلك بقوله:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

فهذه ظواهر الكون، اِرْبعْ فيها كما شئت بحثًا ودراسة، وإن أحسنت الإمعان فيها فسوف توصلك إلى ظواهر أخرى تثرى حياتك وترقيها، فالذي

اكتشف عصر البخار، والذي اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديدًا في كون الله، إنما أحسن النظر والتأمل فتوصل إلى ما يريح المجتمع ويُسعده.

لذلك، فالحق سبحانه وتعالى يحذرنا أن نمر على ظواهر الكون في إعراض وغفلة ودون تمعن فيها:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء في التعبير عن الواقع الفعلي، فهم لم يخلقوا جديدًا في الكون. فكل هذه الأشياء موجودة، والفضل لهم في الاهتداء إليها واكتشافها، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقة في التعبير عن هذه الاكتشافات.

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبع ما ليس لنا به علم، فماذا نتبع؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم، فإن كانت في الدين تركناها للخالق سبحانه يقننها لنا، وإن كانت في أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويثرى حياتنا؛ لذلك تكلم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومادام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع ما لا نعلم، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقيني فلابد أن يسأل المرء عن وسائل العلم هذه، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما علم الإنسان شيئا، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها؟ هذه الحصيلة هي العلم. وهذه الحواس تؤدي عملها في الإنسان بمجرد أن تنشأ فيه، وبعد أن يخرج إلى الحياة، والبعض يظن أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين، والحقيقة أن الطفل يدرك ويعي من الأيام الأولى لولادته.

ولذلك، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون: «إن الطفل يُولد ولديه ملكاتٌ إدراكية سماها العلماء احتياطًا (الحواس الخمس الظاهرة)». وقد كان احتياطهم في محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى، مثل حاسة العضل مثلاً التي نميز بها بين الخفيف والثقيل.

وإن كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها: السمع والبصر. وقد وردت في القرآن بهذا الترتيب، السمع أولاً، ثم البصر، لأن السمع يسبق البصر، فالإنسان بمجرد أن يولد تعمل عنده حاسة السمع، أما البصر فإنه يتخلف عن السمع لعدة أيام من الولادة. إذن: فهو أسبق في أداء مهمته، هذه واحدة.

الأخرى: أن السمع هو الحاسة الوحيدة التي تؤدي مهمتها حتى حال النوم، وفي هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم.

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة في قصة أهل الكهف، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطل حاسة السمع لديهم، وإلا لما تمكنوا من النوم الطويل، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف. فقال تعالى:

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف: ١١].

ولم يسبق البصر السمع إلا في آية واحدة في كتاب الله تعالى وهي:

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة: ١٢].

والحديث هنا ليس عن الدنيا، بل عن الآخرة، حيث يفزع الناس من هولها فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. لأنهم في الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا.

فالسمع أول الحواس، وهو أهمها في إدراك المعلومات، حتى الذي يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ، فتعلم أولاً بالسماع ألف باء، فالسمع أولاً في التعلم، ثم يأتي دور البصر.

والذي يتتبع الآيات التي ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر، مثل قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [السجدة: ٩].

إلا في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها جاءت:

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

لماذا؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات؟

وقبل أن نوضح الحكمة هنا يجب أن نعي أن المتكلم هو الله تعالى، ومادام المتكلم هو الله فلابد أن نجد كل كلمة دقيقة في موضعها، بليغة في سياقها.

فالسمع جاء بصيغة الإفراد؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعًا، فهو واحد في جميع الآذان.

أما البصر فهو خلاف ذلك؛ لأن أمامنا الآن مرائى متعددة ومناظر مختلفة، فأنت ترى شيئًا، وأنا أرى شيئًا آخر، فوحدة السمع لا تنطبق على البصر؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع.

أما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فقد ورد البصر هنا مفردًا؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية، مسئولية كل إنسان عن

سمعه وبصره، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يسأل أحد عن أحد، بل يسأل عن نفسه فحسب، فناسب ذلك أن يقول: السمع والبصر؛ لأنه سيسأل عن بصر واحد هو بصره.

فالإنسان - إذن - مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده من حيث التلقي، تلقي القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا، كذلك من حيث الإعطاء، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن: لا تسمعي إلا خيرًا، ولا تتلقي إلا طيبًا، ويا مربي النشء لا تسمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويثريها. ويقول للعين: لا ترى إلا الحلال الذي لا يهيج غرائزك إلى الشهوات، ويا مربي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبنى عليها حركة حياته.

ومادمت مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية، ومحاسبًا عنها، فإياك أن تقول: سمعت وأنت لم تسمع، وإياك أن تقول: رأيت وأنت لم تر، إياك أن تتعرض لشهادة تدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن. أو تتبنى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك؛ لأن المبني على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة، وما بني على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة.

وجماع هذا كله في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

لماذا؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

* * * *

[٣١] نهي المرأة عن التعطر

والخروج وريحها تعصف

سئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

«هل يصح للمرأة أن تضع عطرًا على ملابسها، وتخرج إلى الشارع أو إلى العمل، وهي باللباس الشرعي؟».

الجواب:

«استعمال المرأة للعطر خارج بيتها حرام، قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية**»[١].

وفي حديث آخر: «**إذا شهدَتْ إحداكُن المسجد فلا تمس طيبًا**»[٢].

وقد شدد الإسلام على المرأة، وأمرها ألا تبدي زينتها إلا ما ظهر منها وألا تتعمد جذب انتباه الرجال في الشوارع أو في العمل بالعطور وغيرها، أما زينة المرأة وعطرها لزوجها وداخل بيتها فهو مباح مندوب إليه.



---

(١) حسن: أخرجه أحمد وغيره.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود وغيره.

[٣٢] لا تفصلي بين الصلاة والسلوك

سئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

«ما حكم الإسلام في امرأة مسلمة ملتزمة بتكاليف العقيدة ومنهج الإسلام لكنها تنزل الشارع سافرة، حاسرة الأعضاء؟».

الجواب:

على الفتاة التي تزعم أن الدين يحجر عليها في لباسها وفي زينتها وفي حياتها أن تعلم جيدًا أنه كيف أراد الدين أن يؤمِّن شيخوختها في الهِرم وعند سن اليأس إذ أن أول صدمة تقع في كيان المرأة عند سن اليأس عندما تنقطع عنها الدورة الشهرية، وفي هذه الأوقات الحرجة لما تذوى نضارة المرأة ويخبو جمالها نراها محتاجة إلى عطف زوجها وحنانه وبره. وهي ضعيفة مسكينة، كثيرة التفكير في المصير المؤلم من ناحية أخرى لأنها لم تعد تشبع غرائز الزوج.

فعلى الفتاة أن تعلم أن الإسلام إنما أراد أن يؤمن هذه الشيخوخة الذابلة المنهكة وأن يدفع إليها البشر والتفاؤل والأمان.

فعلى هذه الفتاة أن تعلم أنها لن تظل جميلة طول عمرها ولا فاتنة ساحرة مدى حياتها. فإذا ما ذبلت تلك الزهرة بتقدم العمر وانمحت نضارتها اعتصرت محاسنها. ولم تعد تصلح لإثارة غرائز الزوج وهي ليست في مستوى الإهاجة ونزل إلى الشارع فرأى فتاة في خير عمرها، وفي كامل زينتها ورونقها جرت شهوته إلى غمار المقارنة بين ما ينظر في الشارع وما يراه في البيت وبين هذا وذاك تتكالب عليه الهموم والحسرات، ولا تعتقد أن هذه المقارنة ستسر أي امرأة.

فنظرة الرجل في الشارع إلى حسن ظاهر سافر مبتذل تبدد رصيد الحب بينه

وبين زوجته، لو لم ير في الشارع لما التهبت مشاعره، ولا تنبهت غرائزه، من هنا تنحل الأسرة الزوجية، وتتفكك المودة العائلية.

فاعلمي أيتها الفتاة أن الذي منعك منع من أجلك، والذي منع؛ منع ليحافظ عليك.

ويضيف الإمام - رحمه الله - : فبمقدار ما أغوت امرأة رجالاً بمقدار ما زهد فيها رجال، وبمقدار ما رغب فيها أناس بمقدار ما رغب عنها أكثر منهم، وبمقدار ما استمالت من نفوس فإن الله يذل آخرها في الدنيا، بأن ينصرف الكل عنها انصرافًا مزريًا محتقرًا. والذي كان يتمنى أن يحظى بنظرة واحدة لو رآها لبصق عليها.

* * * *

[٣٣] نهي المرأة عن وصل شعرها

فعن أسماء - رضي الله عنها - قالت: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ، فقالت: يا رسول الله، إن لي ابنة عُرَيِّسًا أصابتها حصبة، فَتَمَرَّق شعرها، أَفأَصِلُه؟».

فقال: «**لعن الله الواصلة والمستوصلة**»[١]. وعن عائشة - رضي الله عنها -: «أن جارية من الأنصار تزوجت، وأنها مرضت، فتمرط شعرها، فأرادوا أن يصلوه، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؟». فلعن الواصلة والمستوصلة[٢].

والواصلة: هي التي تصل شعر المرأة بشعر آخر.

والمستوصلة: هي التي تطلب من يفعل بها ذلك.

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «هذه الأحاديث صريحة في تحريم الوصل، ولعن الواصلة والمستوصلة مطلقًا»[٣].ا.هـ.

وقال القاضي عياض - رحمه الله -: «أما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهى عنه، لأنه ليس بوصل، ولا هو في معنى مقصود الوصل». ونقل عن الليث بن سعد قوله: «النهي مختص بالشعر، ولا بأس بوصله بصوف وخرق وغيرها»[٤].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله -: «رخصت الفقهاء في القرامل، وكل شيء وصل به الشعر، ما لم يكن الوصل شعرًا»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) «صحيح مسلم» بشرح النووي (٤/٨٣٤).
(٤) «صحيح مسلم» بشرح النووي (٤/٨٣٦).
(٥) «أحكام النساء» للإمام/ ابن الجوزي (٨٨).

[٣٤] النهي عن الكِبْرِ

الكِبْرُ: هو السيئة التي أخرجت إبليس من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وهو سبب هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة.

وهو كما عرفه النبي ﷺ : «**بطر الحق**[١]**، وغمط الناس**[٢]»[٣].

وفي الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه أنه قال: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار**»[٤].

والإجهاز على الكبر والتخلص منه ومن آثاره من موجبات الجنة.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**من مات وهو بريء من الكبر والغُلول والدَّيْن دخل الجنة**»[٥].

هذا، وقد جاء التحذير من الكبر في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، منها:

١- قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية في الأرض؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع له توازنًا اجتماعيًا.

(١) بطر الحق: دفعه ورده.

(٢) غمط الناس: احتقارهم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) صحيح: رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني.

وأوّل شيء في هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعًا عند الله سواء، وكلنا عبيده، وليس منا مَن بينه وبين الله قرابة أو نَسَب، فالجميع عند الله عبيد كأسنان الْمُشْط، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وإنْ تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً: هذا غني، وهذا فقير.

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى، وهذا لا يصح، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان، وأن الحصيلة واحدة، وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومادام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح لأحد أن يرفعَ رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

أي: فخرًا واختيالاً، أو بَطَرًا وتعاليًا؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به، ويظن أنه أفضل من غيره، يجب أن يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به، بمعنى أن يكون ذاتيًا فيه، لا يذهب عنه ولا يفارقه، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له، وليست أصيلة فيه.

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هي هبة يمكن أن تسترد في يوم من الأيام، وكيف الحال إذا تكبَّرتَ بمالك، ثم رآك

الناس فقيرًا، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً؟

إذن: فالتواضع والأدب أليَقُ بك، والتكبُّر والتعالي لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته؟!

وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا.

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه، فلينظر إلى العبادات، ففيها استطراق العبودية في الناس، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية: الغني والفقير، والرئيس والمرءوس، الوزير مثلاً والخفير، الكل راكع أو ساجد، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله، الكل عبيد لله بعد أن خلعوا أقدارهم[1]، عندما خلعوا نعالهم، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج.

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرءوسه وهو في هذا الموقف وفي هذا الخضوع والتذلُّل، لماذا؟ لأن الخضوع هنا والتذلُّل لله، وهذا عين العِزّة والشرف والكرامة.

ثم يقول تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

في هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين، ولأصحاب الكبرياء الكاذب: كيف تتكبرون وتسيرون فَخْرًا وخُيلاء بشيء موهوب لكم غير ذاتي فيكم؟!

(١) قدْر الإنسان: مكانته بين الناس.

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرقوا الأرض، بل ستظل صلبة تتحداكم، وهي أدْنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام، وكذلك الجبال وهي أيضًا جماد ستظل أعلى منكم قامة ولن تطاولوها، والحق سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرَّم لِيُبقِي له على التكريم في:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهي جماد؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه.

والناظر لأجناس الكون: الجماد والنبات والحيوان والإنسان، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس، فالجماد ينفع النبات، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان، والحيوان ينفع الإنسان، وهكذا جميع الأجناس مُسخّرة في خدمة الإنسان، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان؟ ومَنْ تخدم؟

لابُدَّ أن يكون لك دَوْر في الكون ووظيفة في الحياة، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك، فابحثْ لك عن مهمة في الوجود.

وفي فلسفة الحج أمر عجيب، فالجماد الذي هو أدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله، وفي ركنها الحجر الأسعد الذي سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به.

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية في الكون، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة في تقبيل حجر.

وكذلك النبات يحرُم قطعه، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه، وكذلك الحيوان يحرُم صَيْده، فهذه الأشياء التي تخدمني أتى الوقت الذي أخدمها وأُقدِّسها، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة في العمر لنلمح الأصل، ولكي لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْري في الكون كله.

فإياك أيها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبوديّ في الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ»ا.هـ.

٢- وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«إياك أن تكون النعمة أو البذل الذي ستبذله يعطيك في نفسك غرور الاستعلاء؛ لأن غرور الاستعلاء يكون استعلاء كاذبًا. وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة، فهذه الأعراض تتغير، ومعنى (أعراض) أنها تأتي وتزول.

فالذي يريد أن يستعلي ويستكبر فعليه أن يستعلي ويستكبر بحاجة ذاتية فيه؛ ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله، إنما الأغيار من البشر فنحن نرى من كان قويًّا يصير إلى ضعف، ومن كان غنيًّا يصير إلى فقر، ومن كان عالمًا يصبح كمن لا يعلم:

﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥].

فلا كبرياء إذن لمخلوق، ومن يريد أن يستعلي ويتكبر على غيره فليتكبر - كما قلنا - بحاجة ذاتية فيه، أي بشيء لا يسلب منه، والخَلْقُ كلهم في أغيار، والوجود الإنساني تطرأ عليه الأغيار. إذن: فاجعل الكبرياء لصاحبه، وإياك ان

تظن أنه عندما قلنا لك: اعمل كذا وأحسن لذى القربى واليتامى والمساكين، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعلي بها؛ لأنها موهوبة لك من الله، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح؛ لأن الذي يتكبر هو الذي لا يجد أمام عينه من هو أكبر منه.

هات واحدًا يتكبر لأن عنده مليونًا من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل؟ إنه يستحي ويتضاءل، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه، لكنه لو ظل ناظرًا إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده.

إذن: فعندما يتكبر المتكبر، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس في باله. لكن لو كان الحق المتكبر بذاته في باله لاستحى، فإذا كان في بالك من يعطيك لاستحييت.

إذن: فمعنى المتكبر أن ربنا غائب عن باله؛ لذلك يقول الحق في ختام الآية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦].

وما (الاختيال)؟ وما (الفخر)؟ إن المادة كلها تدل على زهو الحركة، ولذلك نسمي الحصان (خيلا)؛ لأنها تتخايل في حركتها، وعندما يركبها أحد تتبختر به؛ ولذلك نسمي الخيلاء من هذه.

إذن (الاختيال): حركة مرئية، و(الفخر) حركة مسموعة، فالحق ينهي الإنسان عن أن يمشي بعنجهية، كما نهاه أن يسير مائلا بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدرًا للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه:

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج: ٩، ١٠].

أما الفخر فهو أن يتشدق الإنسان بالكلام فيحي عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر، والخيلاء والفخر ممنوعان، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر، ولماذا جاء الحق بهذا هنا؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته، إنه يحسن مما وهبه الله.

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخذهم عبيدًا؛ لأنك تحسن عليهم. وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك. يقول الحق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

* * * *

التواضع من صفات عباد الرحمن

هذا، واعلمي أختي المسلمة أن التواضع صفة من صفات عباد الرحمن، ألا تحبين أن تكوني منهم، وتُحشري معهم؟ ها هو الطريق أمامك.

قال الحق سبحانه:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«يعطينا الحق تباك وتعالى صورة للعبودية الحقة، ونموذجًا للذين اتبعوا المنهج، كأنه سبحانه وتعالى يقول لنا: دعكم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذبوا رسوله، ونظروا إلى أوصاف عبادي الذين آمنوا بي، ونفذوا أحكامي، وصدقوا رسولي.

نقول: عباد وعبيد. والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد، وأن (عباد) جمع لعابد. مثل: رجال: جمع راجل. ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج: ٢٧]. إذن: عبيد غير عباد.

وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين العبيد والعباد، فكلنا عبيد لله تعالى: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، فما دام يطرأ عليه في حياته ما لا يستطيع أن يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور، فالعبد الكافر الذي تمرد على الإيمان بالله، وتمرد على تصديق الرسول ﷺ ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها.

فهل بعد أن ألف التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إن أصابه؟ أو يستطيع التمرد على الموت إن حل بساحته؟

إذن: فأنت عبد رغمًا عنك، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار.

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذي منحه الله في أن يؤمن أو يكفر، وتنازل عنه لمراد ربه، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]. فنحن وإن كنا عبيدًا فنحن سادة؛ لأننا عبيد الرحمن؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله ﷺ في الإسراء هي عبوديته لله تعالى، حيث قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]. فالعبودية هي علةِ الارتقاء.

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القرب الذي لم يسبقه إليه بشر؛ لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٦]. وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف في ظاهر الأمر هذا المعنى الذي قلناه في معنى العباد، وهي قوله تعالى في الكلام عن الآخرة: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧].

فقال للضالين: (عبادي) وهي لا تُقال إلا للطائعين، لماذا؟ لأن في القيامة لا اختيار لأحد، فالجميع في القيامة عباد، حيث انتفى الاختيار الذي يميزهم.

والعلماء يقولون: إن العباد تؤخذ منها العبادية، وأن العبيد تؤخذ منها العبودية. العبادية في العباد أن يطيع العابد أمر الله، وينتهي عن نواهيه طمعًا في ثوابه في الآخرة، وخوفًا من عقابه فيها. إذن: جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنب عقابها.

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة، إنما إلى أن الله تعالى تقدم بإحسانه على عبيده إيجادًا من عدم، وإمدادًا من عُدْم، وتربية وتسخيرًا للكون، فالله يستحق بما قدم من إحسان أن يُطاع بصرف النظر عن الجزاء في الآخرة ثوابًا أو عقابًا.

أما العبودية فهي: ألا ينظر العبد إلى ماقدم من إحسان، ولا ما أخر من ثواب وعقاب، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أن يُطاع، وإن لم يسبق له الإحسان، وإن لم يأت بعد ذلك ثواب وعقاب.

وإن كانت العبودية مكروهة في البشر كما قال أحد الساسة[1]: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟». ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده، أما العبودية لله تعالى فعزٌ وشرف، حيث يأخذ العبد خير سيده، فهي عبودية سيادة، لا عبودية قهر.

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام، يقول لك: إن أردت أن أذكرك فاذكرني. وفي الحديث القدسي: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[2].

وإن كان سبحانه وتعالى يستدعيك إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، فما ذلك إلا لتأنس بربك، لكن أنت حر تأتيه في أي وقت تشاء من غير موعد، وأنت تستطيع أن تحدد بدء المقابلة ونهايتها وموضوعها . إلــخ. فزمام الأمر في يدك.

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله، فكان إذا وضع يده في يد أحد الصحابة يسلم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذي ينزع يده من يد رسول الله، وهذا أدب من أدب الحق تبارك وتعالى. إذن: فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن، لا عبودية لجبار.

وأول ما نلحظ في هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن، حتى لا

---

(١) هو: أحمد عرابي - زعيم مصري -.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والبخاري وغيرهم.

نظن أن العبودية لله ذلة، وأن القرآن كلام رب وضع بميزان، ثم يذكر سبحانه وتعالى صفات هؤلاء العباد، صفاتهم في ذواتهم، وصفاتهم مع مجتمعهم، وصفاتهم مع ربهم، وصفاتهم في الارتقاء بالمجتمع إلى الطهر والنقاء.

أما في ذواتهم، فالإنسان له حالتان هما محل الاهتمام: إما قاعد، وإما سائر، ونخرج حالة النوم لأنه وقت سكون، أما حال القعود فالحركة محدودة في ذاته، والمهم حال الحركة والمشي، وهذا هو الحال الذي ينبغي الالتفات إليه.

لذلك يوضح لنا ربنا ﷻ كيف نمشي فيقول:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

يعني: برفق وفي سكينة، وبلين دون اختيال، أو تكبر، أو غطرسة، لماذا؟ لأن المشي هو الذي سيعرضك لمقابلة مجتمعات متعددة، وهذا الأدب الرباني في المشي يحدث في المجتمع استطراقًا إنسانيًا يسوّي بين الجميع.

وفي موضع آخر يقول تعالى في هذه المسألة:

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧].

وتصعير الخد أن تميله كبرًا وبطرًا وأصله (الصعر) مرض في البعير يصيب عنقه فيسير مائلاً، ومن أراد أن يسير متكبرًا مختالاً فليتكبر بشيء ذاتي فيه، وهل لديك شيء ذاتي تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به؟ إن كنت غنيًا فقد تفتقر، وإن كنت قويًا صحيحًا قد يصيبك المرض فيقعدك، وإن كنت عزيزًا اليوم فقد تذل غدًا.

إذن: فكل دواعي التكبُّر ليست ذاتية عندك، إنما هي موهوبة من الله، فعلام التكبر إذن؟!

لذلك يقولون في المثل: «اللي يخرز يخرز على وركه». إنما يخرز على ورك غيره؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتي بالصبي الذي يعمل تحت يده، ويجعله يمد رجله، ويضع السرج على وركه، ثم يأخذ في خياطته، فرآه أحدهم فرق قلبه للصبي فقال للرجل: إنه ضعيف لا يتحمل هذا، فإن أردت فاجعله على وركك أنت. كذلك الحال هنا، من أراد أن يتكبر فليتكبر بشيء ذاتي فيه، لا بشيء موهوب له.

والمتكبر شخص ضرب الحجاب على قلبه، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى، ويرى أنه أفضل مِن خلْق الله جميعًا، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحي أن يتكبر على خلق الله، فتكبره دليل على غفلته عن هذه المسألة.

لذلك يقول الناظم:

فدع كل طاغية للزمان فإن الزمان يقيم الصعر

يعني: سَيَرَي من الزمان ما يقوِّم اعواجاجه، ويرغم أنفه.

ومعنى ﴿مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]. المرح: الفرح ببطر. والبطر: أن تأخذ النعمة وتنسى المنعم، وتتنعم بها، وتعصي من وهبك إياها. إذن: المنهي عنه الفرح المصاحب للبطر، وإنكار فضل المنعم، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود، كما قال تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

وفي موضع آخر يعلمنا أدب المشي، فيقول:

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

وقالوا: إن المراد بالمشي الهون، هو الذي يسير فيه الإنسان على سجيته دون

افتعال للعظمة أو الكبر، لكن دون انكسار وذلة. وسيدنا عمر ﷺ حينما رأى رجلاً يسير متماوتًا ضربه، ونهاه عن الانكسار والتماوت في المشية، وهكذا فمشية المؤمن وسط، لا متكبر ولا متماوت متهالك.

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٣].

والجاهل: هو السفيه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخلق ولا في الأدب.

وسبق أن فَرَّقنا بين الجاهل والأمي. الأمي: هو خالي الذهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السهل إقناعه بالصواب. أما الجاهل: فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهودًا في إقناعه؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرج من ذهنه الخطأ، ثم تُدخل في قلبه الصواب.

والمعنى: إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه فتسفه عليه كما سَفِهَ عليك، بل قَرِّعْه بأدب وقل: ﴿سَلَٰمًا﴾. لتشعره بالفرق بينكما.

والحق تبارك وتعالى يوضح في آية أخرى ثمرة هذا الأدب، فيقول:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝﴾ [فصلت: ٣٤].

وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي في هذا المعنى:

إذا نطق السفيه فلا تُجِبْه — فخير من إجابته السكوت

فإن كلَّمْته فَرَّجت عنه — وإن خَلَّيْتَه كمدًا يموت

فإن اشتد السفيه سفاهة، وطغى عليك وتجبر، فلابد لك من رد العداون

بمثله؛ لأنك حلمت عليه، فلم يتواضع لك، وظن حلمك ضعفًا، وهنا عليك أن تريه الفرق بين الضعف وكرم الخلق، كالشاعر الذي قال:

صَفَحْنا عن بني ذُهْلٍ ... وقلنا القومُ إخوانُ

عسى الأيام أن يُرجِعْن قومًا كالذي كانوا

فلما صرَّح الشر فأمسى ... وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا ... ن دِنَّاهُم كما دانوا

مَشَيْنا مشية الليث ... غدا والليث غضبان

بضربٍ فيه توهين ... وتخضيعٌ وإقران

وطعن كفم الزِّق[1] ... غدا والزِّق ملآن

وفي الشر نجاة حين ... لا ينجيك إحسانٌ

وبعض الحِلْم عند الجهل ... للذلة إذعان

وللإمام عليٍّ كرم الله وجهه:

إذا كنتُ محتاجًا إلى الحلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرسٌ للحِلم بالحِلم ملجمٌ ... ولي فرسٌ للجهل بالجهل مُسْرَج

فمن رام تقويمي فإني مقوَّمٌ ... ومن رام تعويجي فإني مُعَوَّج

ومعنى ﴿قَالُوا سَلَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٣]. قالوا: المراد هنا سلام المتاركة، لا سلام الأمان الذي نقوله في التحية «السلام عليكم». فحين تتعرض لمن يؤذيك بالقول، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلامًا يعني سلام المتاركة.

---

(١) الزق: السقاء، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه.

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ هنا تعني المعنيين: سلام المتاركة، وسلام التحية والأمان. فحين تحلُم على السفيه فلا تجاريه تقول له: لو تماديت معك سأوذيك، وأفعل بك كذا وكذا، فأنت بذلك خرجت من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

ألم يقل إبراهيم عليه السلام لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره:

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧].

والمعنى: لو وقفت أمامك لربما اعتديت عليك، وتفاقمت بيننا المشكلة.



[٣٥] النهي عن الشرك

فعن أميمة بنت رقيقة - رضي الله عنها - أنها جاءت فيمن يبايعنه من النساء على الإسلام، فقال ﷺ:

«أبايعكِ على أن لا تشركي بالله شيئًا، ولا تسرقي[١]، ولا تزني[٢]، ولا تقتلي ولدَكِ[٣]، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديكِ ورجليكِ، ولا تنوحي[٤]، ولا تبرَّجي[٥] تبرج الجاهلية الأولى»[٦].

وقد جاء الأمر بتوحيد الله تعالى والنهي عن الشرك به سبحانه في مواطن كثيرة من القرآن منها:

١- قوله تعالى في سورة (النساء):

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«وعندما يقول لنا الحق:

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

أي: إياكم أن تدخلوا في قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله في منهجه، والعبادة هي: طاعة العابد للمعبود، فلا تأخذها على أنها العبادات التي نفعلها فقط من: الصلاة والصوم والزكاة والحج؛ لأن هذه أركان الإسلام،

(١) سيأتي الحديث عن السرقة بعد قليل - إن شاء الله -.
(٢) تقدم الحديث عن الزنى.
(٣) تقدم الحديث عن الإجهاض.
(٤) سيأتي الحديث عن النوح بعد قليل - إن شاء الله -.
(٥) تقدم الحديث عن التبرج.
(٦) **حديث حسن**: أخرجه أحمد في «المسند» (٢/١٩٦).

ومادامت هذه هي الأركان والأسس التي بني عليها الإسلام، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هي الأسس التي بني عليها الإسلام، والأسس التي بني عليها البيت ليست هي كل البيت؛ لذلك فالإسلام بنيان متعدد، فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفي، أو المصطلح الفني في العلوم ويقولون: إن العبادات هي: الصلاة وما يتعلق بها، والزكاة والصوم والحج؛ لأنها تسمى في كتب الفقه «العبادات» فلقد قلنا: إن هذا هو الاسم الاصطلاحي، لكن كل أمر من الله هو عبادة.

ولذلك فبعض الناس يقول: نعبد الله ولا نعمل. نقول لهم: العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط، فالشعائر هي إعلان استدامة الولاء لله. وتعطي شحنة لنستقبل أحداث الحياة، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة، فالمعاملات عبادة، والمفهوم الحقيقي للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض، فالحق سبحانه وتعالى قال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩].

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع، وجاء بـ ﴿ٱلْبَيْعَ ﴾ لأنه العملية التي يأتي ربحها مباشرة؛ لأنك عندما تزرع زرعًا ستنتظرمدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار، لكن البيع تأتي ثمرته مباشرة، تبيع فتأخذ الربح في الحال.

والبيع - كما نعلم - ينظم كل حركات الحياة؛ لأن معنى البيع: أنه وسيط بين منتج ومستهلك فعندما تبيع سلعة، هذه السلعة جاءت من منتج، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك، وهذا المستهلك تجده منتجًا أيضًا، والمنتج تجده أيضًا مستهلكًا. فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها في البيع وفي الشراء، ومادام هناك بيع ففيه شراء، فهذا استمرار لحركة الحياة. والبائع

دائمًا يحب أن يبيع، لكن المشتري قد لا يحب أن يشتري؛ لأن المشتري سيدفع مالاً والبائع يكسب مالاً، فيوضح الله: اتركوا هذه العملية التي يأتي ربحها مباشرة، ولبوا النداء لصلاة الجمعة. لكن ماذا بعد الصلاة؟ يقول الحق:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

إذن: فهذا أمر أيضًا، فإن أطعنا الأمر الأول: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فالأمر في ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يستوجب الطاعة كذلك. إذن: فكل هذه عبادة، وتكون حركة الحياة كلها عبادة: إن كانت صلاة فهي عبادة، والصوم عبادة، وبعد ذلك ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة؟ لأبُدَّ أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلي. وما هي مقومات حياتك؟ إنها طعام وشراب ومسكن وملبس، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إذن: فجماع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

إذن: فكل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله، لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان.

وإياك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصنيفية التي في الفقه (قسم العبادات) و(قسم المعاملات) لا، فكله عبادة، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة؛ لأنك تعمل لنفعك، أما في الصلاة فأنت تقتطع من وقتك، فسميناها العبادة الصحيحة؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم

يؤمن بإله، فهو أيضًا يخرج للحياة ويزرع ويصنع.

ولماذا سموها العبادات؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين. إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة. هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لنرقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦].

بعدما قال كل هذا الكلام السابق، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلحظها دائمًا في كل تصرفاتنا هي أن نأتمر بأمر الله في منهجه، وألا نشرك به شيئًا؛ لأن الشرك يضر قضية الإنسان في الوجود، فإن كنت في عمل إياك أن تجعل الأسباب في ذهنك أمام المسبب الأعلى، بل اقصد في كل عمل وجه الله.

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد ولتعب المشرك فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا عبد مملوك لجماعة، والجماعة مختلفة ومتشاكسة، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التي تتضارب، فإن أرضى هذا، أغضب ذاك. إذن: فهو عبد مبدَّد الطاقة موزَّع الجهد، مقسم الالتفاتات، ولكن العبد المملوك لواحد، لا يتلقى أمرًا إلا من سيد واحد ونهيًا من السيد نفسه.

والحق يشرع القضية لعباده بصيغة الاستفهام، وهو العليم بكل شيء ليجعل المؤمن به يشاركه في الجواب حتى إذا ما قال الحق: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب، فماذا يقول؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً: لا يا رب لا يستويان.

إذن: فأنت أيها العبد المؤمن قد قلتها، و لم يفرضها الله عليك. وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك، حتى يكون جوابك الذي لن تجد جوابًا سواه. فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتحت في الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهي واحد، هنا تصبح سيدًا في الكون، فلا تجد في الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون. وتلك هي راحتنا في تنفيذ قول الله:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦].

لأن الإشراك بالله – والعياذ بالله – يرهق صاحبه. وياليت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله، ولا يأخذون عون الشركاء. لكن الله يتخلى عن العبد المشرك، لأنه سبحانه يقول: «**أنا أغنَى الشركاء عن الشرك مَن عمل عملا أَشْرَك فيه معي غيري تركْتُهُ وشِرْكه**»[1].

الحق إذن يتخلى عن العبد المشرك. وليت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك، وإنما ينعدم عنه حظ الله؛ لأن الله غني أن يشرك معه أحدًا آخر وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيماني، ويحيا في كد وتعب». ا.هـ.

هذا، ومن مات مشركًا، دخل النار لا يخرج منها أبدًا.

قال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ [البينة: ٦].

---

(١) أخرجه مسلم.

[٣٦] النهي عن عقوق الأمهات

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: «قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قَدِمَتْ عليَّ أمي، وهي راغبة[١]، أفأصل أمي؟».

قال: «**نعم صلي أمك**». رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

ولفظه، قالت: قدمت على أمي راغبة في عهد قريش، وهي راغمة[٢] مشركة، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي، وهي راغمة مشركة أفأصلها؟

قال: «**نعم صلي أمك**».

فانظري أختي المسلمة إلى رحمة الإسلام التي امتدت إلى تلك الأم المشركة! فما بالك بالأم المؤمنة؟ لقد وصى الإسلام بالإحسان إلى الوالدين في مواطن عدة.

قال الحق سبحانه:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«الوالدان هما الأب والأم؛ لأنهما السبب المباشر في وجودك أيها المؤمن، ومادامت عبادتك لله هي فرع وجودك، إذن: فإيجادك من أب وأم كسببين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول، إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن

---

(١) راغبة: طامعة فيما عندي تسألني الإحسان إليها.

(٢) راغمة: كارهة للإسلام.

تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم (عليه السلام).

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

انظر إلى المنزلة التي أعطاها الله للوالدين، وهما الأب والأم، والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله، والتكليف لك وأنت فرع الوجود؛ لأن الخطاب لمكلف، والتكليف فرع الوجود، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك، فإذا صعّدت السبب فالوالدان من أين جاءا؟ من والدين، وهكذا حتى تصل لله، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد؛ لأن التكليف من المُكلِّف إلى المُكلَّف فرع الوجود.

والوجود له سبب ظاهري هما «الوالدان»، وعندما تسلسلها تصل لله إنه -سبحانه- أَمَر: اعبدني ولا تشرك بي شيئًا، وبعد ذلك. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. كلمة «الإحسان» تدل على المبالغة في العطاء الزائد. الذي نسميه مقام الإحسان.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته؛ لأنه إله واحد ولا نشرك به شيئًا، لم ينكر أو يتعرض لإيمانهما أو كفرهما؛ لأن هناك آية أخرى يقول فيها:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

صحيح لا تطعهما ولكن احترمهما؛ لأنهما السبب المباشر في الوجود وإن كان هذا السبب مخالفًا لمن أنشأه وأوجده وهو الله - جلت قدرته - .

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه، إياك أن يكون قلبك متعلقًا بهما إن كانا مشركين، لكن صاحبهما في الدنيا معروفًا؛ ولذلك قال:

﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ أي انظر مصلحتهما في أمور الدنيا معروفًا منك، والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب.

والحق يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. ويكررها في آيات متعددة. فقد سبق في سورة البقرة أن قال لنا:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا. ﴾ [البقرة: ٨٣].

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي نحن بصددها. ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

وبعد ذلك يأتي أيضًا قوله سبحانه:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ويأتي أيضًا في سورة العنكبوت فيقول:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨].

لكن إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، فإن كان الوالدان مشركين فلابد أن نعطف عليهما معروفًا. والمعروف كما أوضحنا يكون لمن تحب ومن لا تحب، ولكن الممنوع هو: الودادة القلبية؛ ولذلك قال:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددها وبين آية سورة المجادلة، وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالاً.

وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وفي قوله سبحانه:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨].

ففيه «إحسان» وفيه «حسن»، «الإحسان»: هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعرًا أنه يراك، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، و«الإحسان» من «أحسن» فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه.

وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلي الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة، ويصوم شهر رمضان، ثم يصوم يومي الاثنين والخميس أو كذا من الشهور، ويزكي حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة وقد يزيد الزكاة إلى عشرة في المائة، ويحج ثم يزيد الحج مرتين.

إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله، فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان.

وما هو المقابل (للحسن)؟ إنه (القبح)، إذن فالحق أدخلنا في مقام الجمال مرة، وفي مقام الإحسان مرة أخرى، وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم، أولاً: نجد أن المفروض في الشائع الغالب أن الوالدين يربيان أبناءهما، ومن النادر أن يصبح الولد يتيمًا ويربيه غير والديه، فقال: الحظ سبب التربية بعد الوجود، فسبب الوجود: يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق

حقوقهما وتدخل في مقام الإحسان، ولكنه جاء في آية وعلل ذلك فقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

لقد جاء الحق بالتربية حيثية في الدعاء لهما وفي البر التوصية بهما، لكن لو أن إنسانًا أخذ فيك منزلة التربية و لم يأخذ فيك سببية الإيجاد، أله حق عليك أن يكون كوالديك؟

إن الحق يقول:

﴿ كَمَا رَبَّيَانِى ﴾.

فإذا كان والدي لهما هذا الحق، فكذلك من قام بتربيتي من غير الوالدين له هذا الحق أيضًا! ما دام جاء الحق بالوالدين في علة الإحسان:

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

فمرة نلحظ أنه لا يجيء بمسألة التربية كي نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين، وشيء آخر: وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانا، جاء في الحيثيات بما يتعلق بالأم و لم يأت بما يتعلق بالأب:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

هنا جاء الحق بالحيثيات للأم وترك الأب بدون حيثية، وهذا كلام رب؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وُجِد وقت أن صار جنينًا. فهي قد حافظت على نفسها وسارت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنينًا. وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل و[illegible] بينما والده قد يكون بعيدًا لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلامًا ليربيه لكفاح الحياة، أما في فترة الحمل والمهد

فكل الخدمات تؤديها الأم و لم يكن للطفل عقل حتى يدرك هذا، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم: أبوك يحققه لك، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له في بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك، فمن الذي - إذن - يحتاج إلى الحيثية؟ إنها الأم، أما حيثية إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ بدء وعيه لأنه رأى كل حاجته معه؛ لذلك قال الحق:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾.

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذي يأتي بكل حاجة، وما دام أبوه هو الذي في الصورة، فتكون الحيثية عنه موجودة، والأم حيثيتها مغفولة ومستورة، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيثية المتروكة عند الإنسان مكتفيًا بالحيثية للأب الموجودة والواضحة عند الابن، ولذلك تجد النبي ﷺ حينما يوصيّ قال: **أمك ثم أمك ثم أمك**، وبعد ذلك قال: « **ثم أبوك** ».

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟

قال ﷺ: « **أمك** ».

قال: « ثم من؟ »

قال: « **أمك** ».

قال: « ثم من؟ »

قال: « أمك ».

قال: « ثم من؟ »

قال: « أبوك »[(١)].

ولو حسبتها تجدها واضحة، وأيضًا فالأبوة رجولة، والرجولة كفاح وسعى والأمومة حنان وستر، فهي تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها، أبوك إذ خرج ليعمل فعمله شرف له. إنما خروج الأم للسعي للرزق فأمر صعب على النفس، فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾. أو : ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾. إنها مقرونة في ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به، ثم أفردهم بالإحسان في آيتين، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال:

﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥].

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه، ونلحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما في قوله:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

لأنهما وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه، فلا يستحقان أن يقول: ارحمهما؛ لأن الحق أراد أن يسع الولد والديه في الدنيا وإن كانا على الكفر.

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان في الكون كله، يبتدئ بالأقرب فالقريب فالجار، فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

إذن: ففيه دوائر، ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه، فلن نجد واحدًا في شيخوخته مهينًا أبدًا.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

[٣٧] النهي عن ظلم اليتيم وقهره

والأدلة الناهية عن ظلم اليتيم، والداعية إلى الإحسان إليه مشهورة ومنشورة، وسيأتي بعضها بعد قليل.

وحول موضوع اليتيم وفضل الإحسان إليه يحدثنا الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول:

«اليتيم - كما نعلم - هو: من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال، إنه يحتاج إلى حنان أولى. لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يعتبر يتيمًا؛ فقد أصبح له ذاتية مستقلة؛ ولذلك يتخلى عنه الوصف باليتم، والذي تموت أمه لا نسميه يتيمًا، لكن اليتيم في الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهي بسرعة؛ لأن والدة الحيوان هي التي ترعاه في طفولته القصيرة نسبيًّا.

إذن فيتم الحيوان من جهة الأم، والإنسان يتمه هو فقد الأب؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُربّى لمهمة أسمى من الحيوانية، وعرفنا من قبل أنك عندما تأتي لتزرع - مثلا - فِجْلاً، فبعد خمسة عشر يومًا تأكل منه، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة (مانجو) تمكث كذا سنة، حتى تثمر، إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكولة للشيء، فإن كانت مهمته كبيرة، تكن مدة طفولته أطول.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان، فإياك أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القربى فقط. خذ في الدائرة أيضًا اليتيم، لأن اليتيم فقد أباه، ثم يرى كثيرًا من زملائه وأقربائه لهم آباء، ولو لم يوصِّ الحق سبحانه

وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفي قلبه جذوة من الحقد على المجتمع، وقد يتمرد على الله، ويتساءل: لماذا لا يكون لي أب وكل واحد من أقراني له أب يأتيه بحاجته، لكن حين يرى أنه فقد أبًا واحدًا ثم وجد في الجو الإيماني آباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أمات أباه.

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافًا، عليهم بالإحسان إلى اليتيم. فلو رأى الواحد منا يتيمًا يُكْرَمُ في بيئة أبوة إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أن يموت ويترك ولدًا صغيرًا، بل يقول الإنسان لنفسه: إن المجتمع فيه خير كثير، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية، ولا يؤرق نفسه، وهذه مسألة تشغل الناس فنقول لكل إنسان قادر: إذا كنت في بيئة إيمانية، واليتيم يجد رعاية من آباء إيمانيين متعددين فسينشأ اليتيم وليس فيه حقد؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به، لكن إذا رأى الإنسان يتيمًا مضيعًا، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتي بالدنيا كلها لولده، ونقول لمثل هذا الأب: اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله؛ لأن الذي خلق آمن من المخلوق.

ولذلك قلنا من قبل: إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص كانا يجلسان في أخريات حياتهما يتكلمان معًا، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين: ماذا بقي لك من متع الدنيا؟ قال معاوية: أما الطعام فقد سئمت أطيبه،

وأما اللباس فقد مللت ألبنه، وحظي الآن في شربة ماء بارد في يوم صائف تحت ظل شجرة.

وهذه كلمة تعطي الإنسان طموحات إيمانية في الكون، فبعدما صار معاوية خليفة وأميرًا للمؤمنين والكل مقبل عليه قال: حظي في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف، وهذه توجد عند ناس كثيرين. كأن الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد: شربة ماء بارد. ثم قال معاوية لعمرو: وأنت يا عمرو. ماذا بقي لك من متع الدنيا؟

قال عمرو بن العاص: بقي لي أرض خوارة - يعني فيها حيوانات تخور مثل البقر - فيها عين خرارة. أي: تعطي ماءً وفيرًا لتروي الأرض، وتكون لي في حياتي ولولدي بعد مماتي. وكان هناك خادم يخدمهما اسمه (وردان) أراد أمير المؤمنين أن يلاطفه فقال له: وأنت يا وردن، ماذا بقي لك من متاع الدنيا؟ انظروا إلى جواب العبد كي تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود، فقال له: حظي يا أمير المؤمنين: صنيعة معروف أضعه في أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليّ في حياتي. أي: لا يردّون هذا الجميل لي. حتى تبقى لعبقى في عقبهم. إذن: فحظه صنيعة معروف يضعه في أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه في حياته حتى تكون لعقبه أي لمن سيترك من أولاده.

كأنه يفهمنا أنه لا شيء يضيع، فكما تمد يدك يمد غيرك يده لك، والرسول ﷺ يعطينا هذه المنزلة فيقول: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا - وأشار بإصبعيه متجاورين -**». أيُّ منزلة هذه. فبالله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منا عن يتيم يكفله لكي يكون مع النبي ﷺ في الجنة. وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابي.

فقد جاء رَجُلٌ من الأنصار إلى رسول الله وهو محزون فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان مالي أراك محزونًا؟**».

فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه.

فقال: «**ما هو؟**».

قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد عليه النبي ﷺ ونزل عليه جبريل بهذه الآية:

﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾**﴾ [النساء: ٦٩].

فعبث النبي ﷺ فبشره[١].

فالحق يقول لهؤلاء: لا تحزنوا، فمادمتم تحبون رسول الله ﷺ وتفرحون في الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه في الجنة، فالمرء مع من أحب؛ ولذلك أقول لكل مسلم: ابحث عن يتيم تكفله كي تأخذ المنزلة الإيمانية، المنزلة العلية في الآخرة.

فقد قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا - وأشار بالسبابة والوسطى وفرد بينهما -»[٢].

فقل لي: إذا عاملنا اليتيم في ضوء هذا التعاليم فماذا يحدث؟ سينتشر التكافل في المجتمع.

* * * *

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه الطبراني، وأبو نعيم في «الحلية» وابن مردويه، وغيرهم من طرق.

(٢) أخرجه البخاري.

[٣٨] نهي النساء عن النوح

فعن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ :

«اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»(١).

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ :

«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»(٢).

* * * *

[٣٩] نهي المرأة عن السفر بغير مَحْرَم

فعن ابن عمر ﷺ قال: أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تُسافر المرأة ثلاثًا إلا ومعها ذو محرم»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري - ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زوجها»(٤).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم»(٥).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم».

فقام رَجُلٌ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجَّة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟

قال: **«انطلق، فحجَّ مع امرأتك»**[1].

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «الحاصل أن كل ما يسمى سفرًا تُنْهَى عنه المرأة بغير زوج أو محرم، سواءً كان ثلاثة أيام، أو يومين، أو يومًا، أو بريدًا، أو غير ذلك، لرواية ابن عباس المطلقة»[2].ا.هـ.

* * * *

[٤٠] نهي المرأة عن لطم الخدود وشق الجيوب

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ:

«ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[3].

وعن أبي بردة بن أبي موسى قال: وجع أبو موسى وجعًا فغشي عليه، ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) «صحيح مسلم» بشرح النووي (٣/٤٨٤).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بريئ مما برئ منه رسول الله ﷺ. فإن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة(١).

والصالقة: هي التي ترفع صوتها عند المصيبة.

والحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة.

والشاقة: هي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

* * * *

[٤١] النهى عن السرقة

قال تعالى:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩].

قال الإمام **الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهاتين الآيتين ما مختصره:

«يأتي الحق تبارك وتعالى بقضية يريد أن يصون بها حركة المؤمن في مجتمعه، لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك، وحتى يتحرك الإنسان لأبُدَّ أن يضمن الإنسان ثمرة حركته. أما أن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلابد أن يزهد المتحرك في الحركة، وحين يزهد الإنسان في الحركة يتوقف تقدم

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

الوجود؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته، وأن تكون حركته فيما شرع الله.

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال؛ فليس لأحد دخل؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك في باله أم لم يكن.

وقلنا من قبل: إن الرَّجُل الذي يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستمثر هذا المال؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة في قلب صاحب المال، فيقول الرَّجُل لنفسه: إن المال عندي مكتنز فلأبني لنفسي عمارة، ويزين له الحق هذا الأمر، ويفكر الرَّجُل في أن يبني عمارة من عشرة طوابق وفي كل طابق أربع شقق، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه، وهو حصيلة شهرية لا بأس بها.

لقد حسب الرَّجُل المسألة وهو لا يدري أن الله سبحانه وتعالى يقذف في باله الخواطر، فيُسرع ليشتري قطعة الأرض. وبعد ذلك يأتي بمن يصمم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء، وتخرج النقود المكتنزة. وهكذا نرى أن الثري قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا. ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر. ولكل إنسان خواطره، فالبخيل له من يسرف في ماله، والكريم له من يكتنز من ماله، وإياك أن تظن أن هناك حركة في الوجود خارجة عن إرادة الله. فالحق يقول:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [آل عمران: ٨٩].

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم. ولذلك نجد أن الخير إنما يأتي من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئًا من وراء الله.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد، نعم، فهو غيب قيوم؛ ولذلك يكون تدبيره في الكون غيبًا. وفي قرانا يخصصون يومًا للسوق ونرى ساحته في اليوم المخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع محرك الكون؛ ففي الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيهم ولا يحلمون شيئًا، وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم. ونرى نساء تحمل كل واحدة منهن صنفًا من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع في السوق، ونرى أخريات يحملن سلالاً فارغة، ونعرف أن كلا منهن ذاهبة للشراء، وفي آخر النهار نرى المسألة معكوسة، من كان يحمل في الصباح شيئًا حمله غيره، فمن الذي هيج الخواطر ليذهب من يرغب في البيع في إلى السوق ليبيع؟ من الذي حرك الشاري للشراء؟ هو الحق سبحانه يحقق للراغب في البيع أن يوجد المشتري، ويحقق للراغب في الشراء أن يوجد البائع. إنه ترتيب الحي القيوم. ونسمع من يقول: لقد أنزلنا في السوق اليوم عشرين طنًّا من الطماطم وأربعين طنًّا من الكوسة، وغيرها من الأطنان. ونجد آخر النهار أن كل شيء قد بيع. إنها خواطر الله المتوازنة في الناس والتي توازن المجتمع.

إذن: الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك، ويريد أيضًا ألا يقتات الإنسان أو يتمتع بغير مجهود؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره. وهذا الفعل يزهِّد الغير في العمل.

إن في الإسلام قاعدة هي: عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك، ولكن افتح أي مشروع ولو لم تكن في حاجة إليه كأن تحفر بئرًا وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعود الإنسان على

الكسل، بل يجب تعويده على العمل، ومن لا يقدر على العمل فلابد له من ضمان. فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً، فإن لم يكن قادرًا على العمل، فضمانه من أسرته وقرابته، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة، فأهل محلته مسئولون عنه، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلَّة أن يوفروا له ذلك، فبيت المال عليه أن يتكفل بالفقراء.

إذن: فالأرضية الإيمانية تحثُّنا على أن نضمن للإنسان العمل، أو نعوله ونقوم بما يحتاج إليه إن كان عاجزًا، ولكن الآفة أن بعضًا من الناس يحبون عملاً بذاته، فهذا يرغب في التوظف في وظيفة لا عمل فيها، ونقول له: في العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلَّم أي مهارة، فما ضنت الحياة أبدًا على طالب قوت من عمل.

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة حين أقام أول مزاد في الإسلام عندما جاء له رَجُلٌ من الأنصار يسأله، فقال له: «**أما في بيتك شيء**».

قال الرَّجُل: بلى، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب - أي قدح - نشرب فيه من الماء.

قال: «**إيتني بهما**».

فأتاه بهما. فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «**من يشتري هذين؟**».

قال رَجُلٌ: أنا آخذهما بدرهم.

قال: «**من يزيد على درهم؟ - مرتين أو ثلاثًا -**».

قال رَجُلٌ: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري وقال: «**اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه - أي ألقه - إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فائتني به**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود، وغيره.

إذن أشار النبي ﷺ على الرَّجُل وأمره بأن يحضر الحلس الذي ينام عليه والقدح الذي يشرب فيه، حتى يعرف الرَّجُل أنه تاجر في شيء يملكه، لا في عطاء من أحد. وجاء الرَّجُل إلى حضرة النبي ﷺ ووجد أن النبي ﷺ قد سوَّى له يدًا للقدوم وقال للرجل: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا**»[١].

وذهب الرَّجُل يحتطب ويبيع امتثالا لأمر النبي ﷺ وجاء بعد خمسة عشر يومًا وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا.

فقال النبي ﷺ : «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة**»[٢].

هذه هي التربية. إذن: فالغرض الأساسي أن يحمي الإسلام أفراد المجتمع، فالذي لا يجد قوته نساعده بالرأي وبالعلم والقدرة والقوة. والخير أن نعلمهم أن يعملوا لأنفسهم.

وهكذا يعلمنا الإسلام أن الإنسان لابُدَّ له من عمل. لكن ماذا إن سرق؟ أولاً ما هي السرقة؟ إنها أخذُ مالٍ مقوّم خفية، فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب، ومرة أخرى يكون خطفًا، ومرة رابعة يكون اختلاسًا.

فالأخْذُ له أنواع مُتعددة؛ فالتاجر الذي يقف في دكانه ليبيع أي شيء، وجاء طفل صغير وخطف قطعة من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به، هذا خَطْف، أما الذي يغتصب فهو الذي قهر صاحب الشيء على أن يتركه له، أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه، أما السرقة فهي أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون في حرز مثله؛ أي: يكون في مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو

---

(١) أخرجه أبو داود، وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود، وغيره.

يتصرف فيه إلا بإذنه، أما الذي يترك بابه مفتوحًا أو يترك بضاعته في الشارع فهو المُقصّر، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحدًا، كذلك يأمر بعدم الإهمال، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكّل.

وسبحانه هو المُشرّع العَدْل الذي يُقيم اليقظة على الجانبين، حدّد الشّرع السرقة بما قيمته ربع دينار، وربع الدينار في ذلك الزمن كان يكفي لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد، بل إن الدرهم كان يكفي أن يقيم أود أسرة في ذلك الوقت.

وكيف نقوِّم ربع الدينار في زماننا؟ إن كان لا يكفي لمعيشة، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعَيِّش، ومادام الدينار كان في ذلك الزمان ذهبًا، فربع الدينار ترتفع قيمته، وقديمًا كان الجنيه الذهب يساوي سبعة وتسعين قرشًا ونصف، أما الجنيه الذهب حاليًا فهو يساوي أكثر من مائتين وسبعين جنيهًا، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع، ولذلك وضع الشرع له قدرًا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم، وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة في الحصول على القوت، ونعرف أن رسول الله ﷺ أعطى الدرهم للرجل وقال: «**اشتر طعامًا لك ولأسرتك**».

وكان الدرهم - كما قلنا - يكفي في ذلك الزمن، والدرهم جزء من اثنى عشر جزءًا من الدينار، فربع الدينار ثلاثة دراهم، والدرهم يساوي في زماننا هذا أكثر من عشرين جنيهًا.

والسطحيون يقولون: إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السّرقة في عام الرّمادة؛ ونقول لهم: لا. لم يسقط عمر بن الخطاب الحد، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التي حصلت فيما يوجب الحد، والحادثة التي حدثت في عام الرمادة أو

عام الجوع هي وجود الشبهة، وبفطنته كأول أمير للمؤمنين، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد، وفي مسألة عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة، عندما سرق غلمانه، فماذا حدث؟ قال الغلمان لعمر: كنا جوعى و لم يكن ابن أبي بلتعة يعطينا الطعام، ودرأ سيدنا عمر الحَدَّ بالشُّبهة.

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك، لكن بعض السطحيين في الفهم يقولون مثل ما قال المعري:

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ ... ما بالها قُطِعَتْ في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا رد عليه العالم المؤمن فقال: «أنت تعترض لأننا نعطي دية اليد خمسمائة دينار، وعندما يسرق إنسان، نقطع يد السارق لأنها أخذت ربع دينار».

وقال العالم المؤمن:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية، لكنها تشريعات في منتهى الدقة. بالله لو أن مقننا يقنن للسارق أو السارقة، ويقنن للزاني والزانية ماذا يكون الموقف؟

إن الذي يتكلم هو رب العالمين، فقال هنا:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

والسرقة عادة ما تكون رغبة في الحاجة وهي غالبًا ما تكون من عمل الرجل، أما في الزاني والزانية فلو أن الرجل لم يُهيّج ويستثر بجمال امرأة لما فكر

في الزِّنا، إذن: فهي صاحبة البداية، وينص سبحانه على العقوبة وجاء بالحكم. وعندما يُشرع للقصاص وهي الحالة التي يغلي فيها دم أقارب القتيل، فيقول:

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ولنر الحنان الموجود في كلمة ﴿أَخِيهِ﴾، ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره، إلا تقنين الرب الذي خلق الإنسان وهو أعلم به.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]. هذا ما انتهى إليه حد السرقة في تشريعات السماء[1].

والسُّنة هي التي تبين لنا كيفية القطع، وكان القطع لليد اليمنى؛ لأنها عادة التي تباشر مثل ذلك العمل. وفي إحدى رحلاتي إلى أمريكا، حدثني أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتي وقال: إن التَّيَمُّن يجب أن يكون في كل شيء، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى؟

قلت: إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف، فليست المسألة ميكانيكية. وأضفت: إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطئ كالحاسب الآلي. ولو كان ينتقي ويختار لأمكن أن يخطئ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء. وقلت: إنني أطلب من السائل أن يقف. فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتي فلما تقدم جهتي مد رجله اليمنى، فقلت تعليقًا على هذا: إنه تكوين خِلْقي. ولذلك فالذي عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن ترغمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتشذ في الخلق، ولتظهر قدرة الخالق.

فلا داعي لقهر الابن الذي تتأبى عليه يمينه؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست في اليد ولكن في المخ. وقد أوجد الحق تلك الأمور في الكون

---

(١) الأولى أن يقال: تشريعات الله.

حتى نفهم أن خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسنته، لا إنه يخرق السنن كلما أراد. لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى في الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ ومجافيا للفطرة.

﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا ﴾.

وإذا سمعنا كلمة «كسب» فهي تعني الأخذ لأكثر من رأس المال، والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة، و«النكال» : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها.

والحق يقول عن بعض الأمور:

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [النور: ٢].

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثّم من أجل الاعتبار والعظة، فالتشريع ليس من بشر لبشر، إنما تشريع خالق لمخلوق. والخالق هو الذي صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة. والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة في قطع الأيدي، بل تريد أن تمنع قطع الأيادي.

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد، والذين قالوا: «قطع الأيدي فعل وحشي» نقول لهم: إن يدًا واحدة قطعت في السعودية فامتنعت كل سرقة، وإذا كان القتل أنفى للقتل؛ فالقطع أنفى للقطع، أما عن مسألة التشويه التي يطنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عددًا من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة «بوتوجاز» تفعل أكثر من ذلك، فلا تنظروا إلى القصاص مفصولاً عن السرقة إن انتشرت في المجتمع، وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التي يترتب عليها العقوبات يُنسي المجتمع بشاعة الجريمة الأولى، وعندما يحين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة.

لكن إن وُقِّعَ العقاب سَاعَة الجُرم تنته المسألة، وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم، لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة في سياسة الحياة فالجزاء هنا ﴿ نَكَٰلًا ﴾ أي: عقابًا ، و« نكولا » وهو الرجوع عن فعل الذنب أي: العبرة المانعة من وقوع الجُرم، فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير في مثل ما آلت إليه هذه الحالة.

أو أن يحافظ الذي قُطعت يده على ما بقي من جوارحه الباقية؛ لأنه قد قُطِعت يمينه وإن عاد قُطِعت يساره، فإن عاد قُطِعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى، ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أي جارحة من جوارحه قد نقصت، فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له، ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هي: أن من يأخذ غير حقِّه يُحَرم من حَقه.

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يد لا من كسب، فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى، وهكذا، وتلك سُنَّةً كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس، وخصوصًا من يستبطئون جزاء الآخرة، ومن يُغريهم ويَغرُّهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم.

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رقعة جغرافية في البيئة التي تعيش فيها في أسرتك، أو حيك، أو بلدك أو أمتك، فأنت تجد قومًا قد حَرَّموا بأنفسهم من غير أن يحرِّم عليهم أحد، فتجد واحدًا مصابًا - والعياذ بالله - بالبولينا، ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم، أو آخر مصابا بمرض السكر؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى، أو ملعقة من العسل. لأن أحدًا لن يستطيع أن

يأخذ شيئًا بدون علم الله. وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلب.

فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن أنك خدعت شرع الله، فهو سبحانه عزيز لا يُغلب أبدًا.

ونرى في حياتنا الذين يأخذون أمولاً بغير حق رشوة أو سرقة أو اختلاسًا، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوي أو الأموال قد ذهبت وأنفقت في مهالك ومصائب؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام، ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال. وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب، فيكتبوا في ناحية القرش الذي كسبوه من حرام، ويكتبوا في ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال. وليشاهد كل مسرف على نفسه في أكل حقوق الناس المصائب التي سيبتليه الله بها، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال.

وكنت أعرف اثنين من الناس، ولكل واحد منهما وَلَدٌ في التعليم. وكنت أجد أحدهما يعطي ولده خمسة قروش. فيقول الابن لأبيه: «معي مصروف الأمس». وكان الآخر يعطي ولده عشرة قروش فيقول الابن له: «إنها لا تكفي شيئا». وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة في مكتب يتبع وزارة الري بالزقازيق، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتَّاب تلك المصلحة يأتي بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منهما، فسألته: ما هذا؟ فقال: بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسي. فقلت له: هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التي تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك: إن القروش العشرة لا تكفي شيئًا. أما الشخص الآخر فابنه يقول له: لا أريد مصروف يد اليوم لأن معي خمسة قروش هي مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسًا خصوصية لأني

أحب الاعتماد على نفسي.

إذن قوله الحق: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ واضح تمامًا، ويردف الحق قوله هذا: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد، حتى الذي يسرق، إنما يسرق الرزق المكتوب له؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المسروق رزق أيضًا لأنه يُنتفَع به، ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه، فإياكم أن تحتالوا على قدر الله؛ لأنه حكيم في تقديره.

والله عزيز، أي لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد. وهو حيكم فيما يضع من عقوبات للجرائم؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة. ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع؛ لذلك يقول الحق:

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة: ٣٩].

والسارق ظالم؛ لأنه أخذ حق غيره، فإن تاب أي: ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط، بل يصلح ما أفسده، هنا تُقبَل التوبة، ولكن كيف يفعل ذلك؟

إذا كان الشيء المسروق في حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه، وإن كان قد تصرف فيه فعليه أن يأتي لصاحب الشيء ويستحلّه ويقول له: كنت في غفلة نفسي وفي زهوة الشيطان مني ففعلت كذا وكذا، وأعتقد أن أي إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيًا. وبذلك يستحل الشيء الذي أخذه، لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشيء المسروق كلص «الأتوبيسات»؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد

الشيء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة، وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول: الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به في سبيل الله وأقول: يا رب ثوابه لصاحبه.

إذن: فوجوه الإصلاح كثيرة، وإن كان يخجل من رد الشيء المسروق فليقل: فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة. وفي القرآن تأتي آيات كثيرة عن التوبة:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

كأن توبة الله مكتوبة أولاً؛ ثم يتوب العبد من بعد ذلك. وسبحانه يقول:

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢].

وللتوبة - كما نعلم - ثلاث مراحل؛ فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنًا بها، وبعد ذلك يتوب العبد، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة، ولذلك يقول الحق: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وصفة المغفرة وصفة الرحمة كل في مطلقها تكون لله وحده، وهي توبة للجاني ورحمة للمجني عليه. وكلمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في أن يغفر وأن يرحم. فإياك أن تقول: إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض، وهو الذي أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذي أوجبه على نفسه، وله طلاقة القدرة في الكون.

❁ ❁ ❁ ❁

[٤٢] نهي المرأة عن معصية زوجها

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها**»(١).

وقال ﷺ: «**لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها، وهي لا تستغنى عنه**»(٢).

وسئل ﷺ عن خير النساء؟ قال: «**التي تُطيع إذا أَمَرَ، وتَسُرُّ إذا نظر، وتحفظه في نفسها وماله**»(٣).

وقد وصف الحق سبحانه الصالحات بقوله:

﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«والمرأة الصالحة هي المرأة التي استقامت على المنهج الذي وضعه لها مَنْ خَلَقَها في نوعها، فما دامت هي صالحة تكون قانتة، والقنوت هو دوام الطاعة لله، ومنه قنوت الفجر الذي نقنته، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت.

والمرأة القانتة خاضعة لله، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء.

﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾.

وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة. فالمرأة حين يغيب عنها الراعي لها

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٥٩).
(٢) صحيح: أخرجه النسائي في «عشرة النساء» (٢٤٩).
(٣) صحيح: أخرجه النسائي في «عشرة النساء» (٧٥).

والحامي لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم، والزوج بالنسبة للزوجة، فكل امرأة في ولاية أحد لابد أن تحفظ غيبته، ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدد المرأة الصالحة قال في حديث عن الدنيا:

«**الدُّنيا كُلّها متاع، وَخَيْرُ متاع الدنيا المرأةُ الصَّالحة**»[1] ا.هـ.

لقد وضع ﷺ قانونًا للمرأة الصالحة يقول فيه: «**خير النساء التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره**»[2]. وأي شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك، وكلمة «**إن نظرت إليها سرتك**» إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط، جمال المبنى، لا، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة؛ لأن النبي ﷺ حذرنا من أن نأخذ صفة ونترك صفة أخرى، بل لابد أن نأخذها في مجموع صفاتها.

فقال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها لحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[3].

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة في الجمال، بل انظر إلى كل الزوايا، فلو نظرت إلى الزاوية التي تشغل الناس، الزاوية الجمالية، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة، لأن عمر هذه المسألة (شهر عسل) - كما يقولون - وتنتهي، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى.

فإن دخلت على مقوم واحد، وهي أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك، وتظن أنك تريدها سيدة صالون! ونقول لك:

هذه الصفة أمدها بسيط في عمر الزمن، لكن ما يبقى لك هو أن تكون

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) **صحيح** أخرجه أحمد وغيره.

(٣) **صحيح** أخرجه البخاري ومسلم، وغيرهما.

أمينة، أن تكون مخلصة، أن تكون مدبرة؛ ولذلك فالفشل ينشأ في الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وهدأ شِرَّته، وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحي الجمال الأخرى، فلا يجدها فيحدث الفشل، لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها، إياك أن تأخذ زاوية واحدة، وخير الزوايا أن يكون لها دين.

وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج، فخير الزوايا أن يكون له دين، فقد قال رسول الله ﷺ:

«إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(١)].

وعندما استشار رجل سيدنا الحسين بن علي -رضي الله عنهما- قال:

(زوِّجها من ذي الدين، إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها).

إذن: فالدين يرشدنا إلى أنه: لابد أن ننظر إلى المسألة التي سيكون لها عمر طويل في الحياة الزوجية الممتدة.

وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها في بيتها، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود، أو تتعلم التطريز كي لا تدفع أجرة، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه، أن تتعلم كي تغني

---

(١) أخرجه الترمذي وغيره.

عن مدرس خصوصي يأخذ نقودًا من دخل الأسرة، وإن بقى عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة.

وتستطيع المرأة أن تقوم بأي عمل وهي جالسة في بيتها وتوفر دخلا لتقابل به المهام التي لا تقدر أن تفعلها، والمرأة تكون من «حافظات الغيب» ليس بارتجال من عندها أو باختيار، بل بالمنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب.

فما المنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب؟

تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها في غيبته، فتنظر المنافذ التي تأتي منها الفتنة وتمتنع عنها، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كي لا ترى أحد يفتنها أو يفتن بها؛ لأن هذه هي مقدمات الحفظ، ولا تذهب في زحمة الحياة، وبعد ذلك نقول لها: «حافظي على الغيب» بل عليها أن تنظر ما بَيَّنه الله في ذلك.

فإن اضطررتِ أن تخرجي فلتغضّي البصر؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفي، لأن كل شعور في الإنسان له ثلاث مراحل: مرحلة أن يدرك، ومرحلة أن يجد في نفسه، ومرحلة أن ينزع، أي يحوّل الأمر إلى سلوك، ونضرب دائمًا المثل بالوردة. وأنت تسير ترى وردة في بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان. وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية، فكم مرحلة؟ ثلاث مراحل: إدراك، فوجدان، فنزوع.

ومتى يتدخل الشرع؟ الشرع يتدخل في عملة النزوع دائمًا، يقول لك:

أنت نظرت إلى الوردة ولم نعترض على ذلك، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئًا، لكن ساعة جئت لتمد يدك لتأخذها قلنا لك: لا، الوردة ليست لك.

إذن فأنت حر في أن تدرك، وحر في أن تجد في نفسك، إنما ساعة تنزع نقول لك: لا، هي ليست لك، وإن أعجبتك فازرع لك وردة في البيت، أو استأذن صاحبها مثلاً.

إذن فالتشريع يتدخل في منطقة النزوع، إلا في أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك؛ لأن الذي خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالا، نظرنا له، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التي نراها ونشتهيها، وساعة يوجد إدراك واشتهاء، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع؛ لأنك - كرجل - مركب تركيبا كيميائيًّا بحيث إذا أدركت جمالا ثم حدث لك وجدان واشتهاء، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع، فيبين لك الشرع: أنا رحمتك من أول الأمر، وتدخلت من أول المسألة، وكل شيء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك؛ لذلك أمر الحق سبحانه الرجل أن يغض البصر. وكذلك أمر المرأة.

لماذا؟ لأنك إن أدركت فستجد، وإن وجدت فستحاول أن تنزع، ونزوعك سيكون عربدة في أعراض الناس، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت؛ لذلك حسم الحق سبحانه المسألة من أولها وقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا؟ لأنني عندما أرى وردة؟ ثم قالوا لي: هي ليست لك فلا تقطفها، فلا يحدث عندي ارتباك في مادتي، لكن عندما يرى

الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فسيحدث عنده النزوع؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال، ولذلك يوضح لك الحق: أنا خالقك وسأتدخل في المسألة من أول الأمر، فقوله:

﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ . أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ: ألا أعرض نفسي لإدراك، فينشأ عنه وجدان، وبعد ذلك أفكر في النزوع، فإن نزعت أفسدت، وإن لم تنزع تعقدت، فيأتي شر من ذلك، هذا معنى ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ . يعني انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندها. بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالقه.ا.هـ.

تنبيه:

وطاعة الزوج ليست طاعة مطلقة، ولكنها مقيدة بطاعة الله تعالى.

فعن علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**»[1].

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -: «على ما ذكرنا من وجوب طاعة الزوج، فلا يجوز للمرأة أن تطيعه فيما لا يحلّ، مثل أن يطلب منها الوطء في زمن الحيض، أو في المحل المكروه، أو في نهار رمضان، أو غير ذلك من المعاصي، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى»[2].ا.هـ.

* * * *

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) «أحكام النساء» (٨١).

[٤٣] نهي المرأة عن دخول الحمام

المقصود بالحمام - هذا - الأماكن العامة التي يغتسل الناس فيها عرايا. مثل: شواطئ البحار، والسّونا، والمساج، ونحو ذلك.

فعن أبي المليح بن أسامة، قال: «دخل نسوةٌ من أهل الشام على عائشة - رضي الله عنها - فقالت: ممن أنتن؟ قلن: من أهل الشام، قالت: لعلكن من الكورة التي تدخل نساؤها الحمامات؟ قلن: نعم. قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى»**[1].

❁ ❁ ❁ ❁

[٤٤] النهي عن السخرية

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - عقب قول الحق - سبحانه -:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١].

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الكبر بطر وغمص الناس - ويروي - وغمط الناس**».

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠١٠)، والترمذي (٨٣٠)، وغيرهما، وصححه الألباني.

والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له. ولهذا قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. أي: لا تلمزوا الناس. والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]. والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال ﷻ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم: ١١]. أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاغيًا عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال. ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. أي: لا يقتل بعضكم بعضًا. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقابل بن حيان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾. أي: لا تداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها.

روى الإمام أحمد عن الشعبي قال: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك قال فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾. قال قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رَجُلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدًا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾. ورواه أبو داود.

وقوله جل وعلا: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾. أي: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾. أي: من هذا. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝﴾.

[٤٥] النهي عن الإسراف

الإسراف: عدو النعمة، ومصدر تشويش الخاطر، وقلق البال. وقد ورد النهي عنه في الإسلام.

قال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«والزينة: إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ هذا يعني أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة.

أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله، وهم متنوعون في مهمات حياتهم، وكل مهمة في الحياة لها زيها ولها هندامها؛ فالذي يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس، ومن يعمل في (الحدادة) له زي خاص مناسب للعمل، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعًا في لقاء الله، أيأتي كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد؟ لا، فليجعل للمسجد لباسًا لا يضايق غيره، فإن كانت ملابس العمل في مصنع أو غير ذلك لا تليق، فاجعل

للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يؤذَى أحد بالوجود بجانبك؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله في بيت الله، فلابد أن تحتفي بهذا اللقاء.

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل، فلا تتجاوز الأكثر الذي أُحلِّ لك إلى ما حرم الله؛ لأن هذا إسراف على النفس، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة، فهي حلال لك بشرط ألا تسرف، ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم؛ لأن الله جعل لك في الحلال ما يغنيك عن الحرام، فإذا لم يوجد ما يغنيك، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود. ولا سرف في حِلّ، إنما السرف يكون في الشيء المحرم، ولذلك جاء في الأثر: «لو أنفقت مثل أحد ذهبًا في حِلّ ما اعتبرت مسرفًا، ولو أنفقت درهمًا واحدًا في محرم لاعتبرت مسرفًا».

ولذلك يطلب منك رسول الله ﷺ أن تعطي كل نعمة حقها بشرط ألا يؤدي بك ذلك إلى البطر». ا.هـ.

وفي سورة (الإسراء) قال الحق سبحانه:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

« في هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة.

فقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾.

واليد عادة تُستخدم في المْنح والعطاء، نقول: لفلان يد عندي، وله عليَّ أيادٍ لا تُعَد، أي: أن نعمه عليَّ كثيرة، لأنها عادة تُؤدّى باليد، فقال:أي: لا تجعل يدك التي بها العطاء ﴿مَغْلُولَة ﴾ أي: مربوطة إلى عنقك، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك.

وفي المقابل:

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾.

فالنهي هنا عن كل البَسْط، إذن: فيُباح بعض البسْط، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة. وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذي سبق الحديث عنه.

فبذَّر: أخذ حفنة من الحبِّ، وبَسَط بها يده مرة واحدة، فأحدثتْ كومة من النبات الذي يأكل بعضه بعضًا، وهذا هو التبذير المنهيّ عنه، أما الآخر صاحب الخبرة في عملية البذْر فيأخذ حفنة الحبِّ، ويقبض عليها بعض الشيء بالقدر الذي يسمح بتفلت حبات التقاوي واحدة بعد الأخرى، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أي « بَذَرَ» .

وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم، وهو الوسط، وكلا طرفيه مذموم.

وقد أتى هذا المعنى أيضًا في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧].

أي: اعتدال وتوسُّط. إذن: أي: لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديْك، ولكن بعض البَسْط الذي يُبقِي لك شيئًا تدخره، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقيَ بحياتك.

وقد سبق أن أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق. وقلنا: إن الإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة، ويُسهِم في إنمائها ورُقيّها، على خلاف القَبْض والإمساك، فإنه يُعرقِل حركة الحياة، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعوق حركتها.

إذن: لابُدّ من الإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة، ولابُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِي على شيء من دَخْلك، تستطيع أن ترتقي به، وترفع من مستواك المادي في دنيا الناس.

فالمبذر والمسْرف تجده في مكانه، لا يتقدم في الحياة خطوة واحدة، كيف وهو لا يُبقِي على شيء؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم نضمن سلامة الحركة في الحياة، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعي والارتقاء الفردي.

ثم تأتي النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير:

﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩].

وسبق أن أوضحنا أن وِضَعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شيء.

وكلمة ﴿فَتَقْعُدَ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة، لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها، لذلك قال تعالى:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٥].

﴿مَلُومًا﴾ أي: أتى بفعل يُلاَم عليه، ويُؤنَّب من أجله، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادُه وأهلُه، وكذلك الممسِك البخيل، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن.

﴿مَّحْسُورًا﴾ أي: نادمًا على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة، أو من قولهم: بعير محسور. أي: لا يستطيع القيام بحمله. وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده.

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت مَلُوم، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسورًا عن طموحات الحياة التي لا تَقْوى عليها. إذن: فكلا الطرفين مذموم، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه في حياة الفرد والمجتمع. إذن: فما القصد؟

القصد أن يسير الإنسان قوامًا بين الإسراف والتقتير، كما قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

فالقرآن يضع لنا دستورًا حاسمًا وَسَطًا ينظّم الحركة الاقتصادية في حياة المجتمع، فابْسُط يدك بالإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء، لكن ليس كل البسط، بل تُبقِي من دخلك على شيء لتحقق طموحاتك في الحياة، وكذلك لا تمسك وتُقتّر على نفسك وأولادك فيلومونك

ويكرهون البقاء معك، وتكون عضواً خاملاً في مجتمعك، لا تتفاعل معه، ولا تُسهم في إثراء حركته.

والحق سبحانه وتعالى هو صاحب الخزائن التي لا تنفد، وهو القائل:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه.



[٤٦] النهي عن أذى الجار

روى أبو بكر بن أبي شيبة بإسناد صحيح: «قالوا: يا رسول الله، فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها.

قال: «**هي في النار**».

قالوا: يا رسول الله، فلانة تصلي المكتوبات، وتصدَّق[1] بالأثوار من الأقط[2] ولا تؤذي جيرانها.

قال: «**هي في الجنة**».

أختي المسلمة:

لقد أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الجار. قال تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦].

قال الإمام **الشعراوي** - رحمه الله -:

« ﴿وَٱلْجَارِ﴾. كلمة (جار) تعني: عدل؛ كقولنا: جار عن الطريق. أي: عدل عنه، فكيف أسمي من في جانبي (جارًا)؟ لأنه في جانبك حددّ مكانًا له من دنيا واسعة، فيكون قد ترك كثيرًا وجاء للقليل، وأصبح جارك، أي أنه عدل عن دنيا واسعة وجاء جانبك، فيسموا الجار لمن جار، أي عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك.

(١) وتصدَّق: يعني: وتتصدق.
(٢) الأثوار: هي قطعة من الأقط. والأقط: شيء يُتخذ من مخيض اللبن الغنمي.

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب، وباليتيم وبالمسكين، للجار حقوق كثيرة؛ لذلك قال النبي ﷺ كما جاء في الحديث:

«الجيران ثلاثة: فَجَارٌ له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقًا، وجار له حقَّان، وجار له ثلاثة حقوق: فأما الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجاء مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم»[1].

ويقول ﷺ في حق الجار:

«ما زال جبريلُ يُوصِيني بالجار حتى ظننتُ أنّه سَيُورِّثه»[2].

أي سيجعل له من الميراث، وما هي حدود الجار؟. حدوده: الأقرب بابا إليك، إلى أربعين ذراعًا، وقالوا: إلى أربعين دارًا، هنا يقول الحق:

﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.

فأعطاه حق القربى وحق الجوار، وقال:

﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾

لأن فيه جارًا قريبًا وجارًا بعيدًا، وقوله: ﴿ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي البعيد، ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ ﴾، ﴿ وَٱلصَّاحِبِ ﴾ هو المرافق. و ﴿ بِٱلْجَنْبِ ﴾ أي بجانبه. قالوا: هو الزوجة أو رفيق السفر؛ لأن الرفقاء في السفر مع بعضهم دائمًا، أو التابع الذي يتبعك طمعًا فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علمًا أو حرفة يريد أن يتعلمها منك؛ فهو الملازم لك، والخادم أيضا يكون ﴿ بِٱلْجَنْبِ ﴾ وكل هذا يوسع

---

(١) حديث ضعيف رواه البزار، وغيرهما.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

الدائرة للإحسان، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدها كلها متداخلة.

وها هو ذا النبي ﷺ يقول لأبي ذر رضي الله عنه:

«**يا أبا ذر إذا طبخت مَرَقةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**»[1].

والمهم أن تتواصل مع جارك، أو الجار ذي القربى: أي الذي قربته المعرفة، وكثير من الجيران يكون بينهم ود، وهناك جار لا تعرف حتى اسمه، فهذا هو ﴿ٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾. و﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وابن السبيل، فقد تقول مثلاً: فلان بن فلان، كأنك لا تعرف أباه، أو تقول: فلان ابن البلد الفلانية. أي: لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه منسوب لبلد معين» .ا.هـ.

تنبيه:

ليس من الإحسان معاونة الجار على المعصية والعداوان.

أختي المسلمة:

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى ختام هذا الكتاب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * * *

(١) أخرجه مسلم.

الفهرس